

تليجرام : هنا تصور الزليخة أكبر مكتبة رقمية

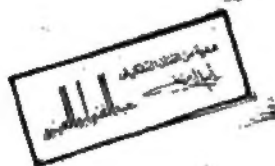
القاهرة
مدينة ألف ليلة وليلة
(٩٦٩ - ١٩٦٩)

تألف: أولج فولكف
ترجمة: أحمد صليحة





الألف كتاب (الثاني) ١٧



القاهرة
مدينة ألف ليلة وليلة
٩٦٩ - ١٩٦٩

تليجرام مكتبة غوامر في بحر الكتب



الإخراج الفني : البع جودجي

الراجعة والإشراف الفني : طاف توليق

القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة ٩٦٩ - ١٩٦٩

تأليف : أوليج فولكف
ترجمة : أحمد صليحة



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٦



مقدمة

لليل من الفن تلك التي يمكن أن تثير خيال المرء لنرى سماع اسمها كمدينة القاهرة لأن هذا الاسم يبعث في النفس صورا وخیالات بطولية والعة أو مفزعة وقاسية . وهناك ترى الأهرامات ، تلك الصروح الهائلة تعبر عن فكرة الخلود في عالم سماوى لأعن نهاية الحياة التي توحى بها المقابر الأوربية . وتبدو لنا قلعته كقائد حربي مختال يشرف على جنوده اللذين تؤلفهم منائر للعاصمة ، فترسم لنا صورة المالك بعائلته وثيابههم اللطفاضة وهم منطلقون على صهوة جيادهم الملهمة ، وفي أيديهم سيوفهم مشرعة ينعكس عليها ضياء الشمس .

وقد يشير هذا الاسم بصورة مدينة حديثة تدمج بالسيارات وتفتقر مساهمة الطائرات ، ولكن على تعدد تلك الصور وتباينها ، تشترك جميعا في كونها صورا جذابة تضاف من روعة تلك المدينة المتينة .

ولكن إذا ما تسألنا عن ما هو هذا السحر المخصص لمدينة القاهرة ، لوجدنا أن الإجابة الحقيقية عسيرة . لذا فكل ما يمكن قوله هو أن أسرد بضع عناصر أولها تراث المدينة الثرى الذي يشيع في روح الإنسان النشوى وهذا التراث لا يتشثل فقط في الأبنية المتينة التي شيدت على مدار خمسة آلاف عاما ، ولكن في الشواهد الدالة على حضارات عدة متباعدة ، شكل كل منها وجه المدينة بأسلوبه ، وخلف لنا آثارا تشهد بذلك .

لها جامع سامق يدعو الحارة الى الاجتماع في ظلال اعمدته الرطبة من ليل الشمس ، وهناك كنيسة قبطية عتيقة تزدان بصورة القديسين الرصينة ، والى جانب هذا تقوم هائل حديقة الطراز ثقيلة ومتزاحمة تبرز بين الفيلات الأنيفة التي تطل على نهر النيل .

ويبدو أن هذا السحر وليه نموعة خاصة تميز بها تيار الحياة القاهرية نتجت عن صفاء سمائها الحلوة ، التي لا تتخذ المظهر المتجمج للسماء الأوربية . ومن اعتدال مناخها التي يخلو من التقلبات الحادة والواصف المسرة ، ومن أهلها الذين يفتخرون الى خشونة النوريين

من أهل الشمال الأوربي وإلى صبيحة القبائل الأفريقية ، فخلقهم يقسم
 بالسماحة واللين وأخيرا فتلك هي العنوة المميزة لبلد شديد الخصب
 يشيع في أرجاء حياته الكسل واللامبالاة ، وهما كلمتان لا تقيرا في
 النفس الأوروبية المعاصرة سوى ذكريات الرمة لاصلوب حياة قد مضى
 وانتهى .

وهناك سبب آخر لهالة المسحر تلك التي تحيط بالمدينة ،
 تمثل هذا في الأساطير العديدة التي ترمز لها صورة شاعرية تمس
 شغاف القلوب . فيقال أن هناك صخرة تعمل آثار أصابع النبي موسى .
 وفي تلك الصخرة اختفى الفرعون من أبي العبرانيين . وقبل أن يخرج
 هؤلاء إلى سيناء ، قيل أنه تسلق بعضا من الراح الناموس في جبل
 المطم . وتوجد في الجزيرة نخلة يعتقد أن « السبعة المزراء » ارضعت في
 ظلها الطفل « يأسوع » . وفي جامع عمرو بن العاص يوجد عمود يقال
 أنه طار من مكة إلى مصر . وبالقرب من جامع ابن طولون يقال أن أرواح
 أسرة الرسول صلعم تجتمع كل ليلة تحت رئاسة ملكة عجوز (كذا)
 حتى تتباحث في أمور مصر وتوصي لما كنها بقراراتهم . وفي المعتقدات
 الشعبية يرى النيل الذي يحمل الخير أو الشمار لمصر ينبع من الجنة لا من
 الهضاب الأفريقية .

ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نتبع قصة تلك المدينة التي
 لا تقشاه مع غيرها من المدن الأوروبية ، فكما ذكرنا آنفا أن هذه المدينة
 لم تكن متجانسة العناصر ولكن كانت مزاجا من صفة مدن متباينة
 المصور والحضارات . فإذا كانت لندن وباريس ونيويورك تبدو لنا أشجارا
 قوية نمت وترعرعت في جو متجانس حافظ لها دائما على الجلود الأولى ،
 أثناء تطورها المستمر ، فإن مهننة القسطنطينية بأكوامها المتزاخمة
 حول عدد من الكنائس والأديرة تقتصر إلى رباط حضارى مع مدينة القاهرة
 اللامنية بقصورها الزاهرة وحماقتها البديعة . وهذه المدينة بدورها
 لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدهرة بأى رباط سوى الرقعة الجغرافية .



وحتى ينسئى لنا رؤية هذا الخليج العجبارى الرائع يجب علينا
 أن نصعد في أحد أيام الصيف إلى أعلى جبل المقطم الذى يشكل نصف
 دائرة تحيط بالمدينة . وأول ما نراه مرئسا على خط الأفق المنارتين
 الرشيقتين لجامع محمد على وقد بدأ كرمحين مشرعين . وخلف

الأرض الخضراء التي تمتد الى ما لا نهاية ترتفع الاهرامات فوق الأفق بأحجامها المتدرجة . ويبقى الأهرامات وجبل المقطم يمتد مجرى النيل ككتبان هائل تضيئ على هذا المنظر المائل لأعيننا جواً من الغموض الأسطوري . وعلى صفحة النهر تجري في خفة قوارب ذات لشعة مثلثة محملة بالتمسح أو الفخار ، تذكرنا بالصورة الملونة التي نراها على جدران المقابر المصرية القديمة . وتمتزج معها القباب التي تبدو كما لو كانت حعلقة في الهواء ، ومئات المنائر التي يحط عليها الطير . وتبدو لنا من أعلى شبكة الطرقات التشابكية ، كلوحة ملئت بطبقة من الطلاء اللامع تلمعت تحت وهج شمس مصر الساخنة فيلف الصمت الملبق كسكون المقابر بعض طرقاتها ، وتصخب بعضها بضوضاء كهدير سيل جبلي . وفي الشمال ترتفع على حافة الصحراء الملائكة مجبوعة من القباب العالية التي تنائر في أرجاء قرافة المباليك ، وتبدو كما لو كانت خطوط سقطت من فريق من الصائكة . فإذا ما جيل المساء خلعت عليها لشعة الشمس الفسارية حلة قرمزية . وانتشر في كل مكان ضياء الشمس النحاسي أو الذهبي المتقاطع مع أجسام النخيل والتي يتسطل الى كل ركن ليصدق الظلال ويمحو ذروة السماء ، فيسج المكان بالضياء ، ويخلع جواً من البهاء حتى الى أحقر الأبنية . وهذا الجو اللطيف والسماء الرائعة أثرا مطلقا على النفس البشرية فلا عجب أن قال ذلك الرحالة الذي وردت قصته في كتاب ألف ليلة وليلة « من لم يرى القاهرة لم يرى شيئا » .

تليجرام : هنا سفور الأزيكسية
أكبر مكتبة رقمية



الفتح العربي - الفسطاط - المعسكر

كان عمرو بن العاص في الخامسة والأربعين من عمره عندما فتح مصر ، كان مختل القوام ، ربة ، صلع ، عريض الفك ، واسع الصدر ، ضخم الفم ، غائر الجبهة وعيناه سوداويتان ثاقبتان . كان عينا في غضبه وكانت لعينه مخضبة بالسواد ويوصي مظهره بقوة شديدة ، غير انها كانت حالية من الصرامة التي تليق بالخوف . اما وجهه فكان يترك انطبعا حسنا في النفوس . وكان النبي صلعم يلقبه قلديرا كبيرا ويرى فيه مسلما نموذجيا أهلا للنقة . وقد قال عنه انه رجل من خيرة رجال قریش ، وقلبه كثيرا لصله وشجاعته .

وتظهر روايات عدة مسجبت عنه انه كان يجمع بين سلامة العقل وقوة الجسم وحاسبا هائلا وقوة ارادة وشجاعة في مواجهة الصعاب مع رباطة الجأش والبراعة . كان متجذلا لبقا ومثقلا بسمائر عصره ، وكان شغوبا بالموسيقى والشعر . وقد اختاره محمد صلعم للصاحبة كي يؤم الناس في صلاة الجمعة ابان حياته ، كما اشتهر أيضا بسرعة اليدوية . وعندما اراد الخليفة عمر يوما ان يميز عن تباين مخلوقات الله في اقدارها ، حين مسح رجلا يتأني ، قال « اشهد ان خالق هذا الرجل وهبوه واحدا » (١) .

(١) ترجمة للمعاصر الفرنسي .

امتزجت في شخصية عمرو خلاص القديس مع الجندي ، والشاعر مع الشاعر ، وكان يشيع حوله جوا من السحر ، لقد كان صريحا وواضحا في تصرفاته ، عظيما في أفعاله وأدائه بهذا الطلمع استطاع ان يكتسب ولاء العديد من الرجال . هذا هو الرجل الذي أراد بأربعة آلاف فارس ان يترع من الامبراطورية البيزنطية انفى مقاطعاتها .

وقد سمجت العديد من الأساطير التي لا تغلور في الخرافة حول الفتوح العربي لمصر . فقد ذكر السيوطي ان عمرو كان قد زار مصر قبل حملته الفظرة في عام ٦٤١ م وفي أثناء سفره من مكة الى مدينته القدس لأداء بعض الأعمال كان يعبر أحد الجبال حينما وجد راهبا مسيحيا على وشك ان يهلك عطشا فشقاه ثم نام الراهب ، وأثناء نومه خرج لعميان من كهف فأسرع عمرو يقتله . وعندما استيقظ الراهب قص عليه عمرو الحادثة فطلب الراهب للمم بالامتثال من عمرو ان يصحبه الى الاسكندرية حتى يقدم له الشيء دينار هدية وهو ضئيل المبلغ الذي كان يأمل ان يجنيه من رحلته . ووصلا الى الاسكندرية ، بينما كان الملك ورجال يحفلون بعمه . وكان من بين الألعاب لعبة تطلق فيها كرة من الذهب وعلى اللاعبين ان يحاولوا التقاطها بأنهم . وكان الاعتقاد الشائع ان من أمسكها لا يموت قبل ان يسهل منصب في حكومة البلاد . لبس الراهب عمرو ثيابا من حرير واصطحبه الى العيد . وعندما قلنت الكرة سقطت في كم عمرو ، فانقض الناس قائلين « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا حله لكرة . اقرى هذا الاعرابي يملكنا ؟ ما يكون هذا ابدا » . وعندما خرجوا من القصر قص الراهب على أهل الاسكندرية المعروف الذي صلبه عمرو وطلب منهم ان يجسموا له ألف دينار مكافاة . فتم له ذلك ثم غادر عمرو البلاد .

في عام ٦٢٨ م التقى عمرو بالخليفة عمر بالقرب من دمشق . وعقد معه اجتماعا تاريخيا دعاه فيه الى غزو مصر . وطبقا لرواية المؤرخ العربي ياقوت قال عمرو للخليفة « يا أبا سفيان ثلثين ألفا في ان أسع ، فانك ان قهرتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم . وهي أكثر الأرض أموالا ، وحجزها عن القتال والحرب » . وتردد الخليفة حشية ان يعرض المسلمين للخطر . لكن عمرو أسر وأخذ يسهب في مدح مصر موبنا من أسر غزوها . وانتهى الخليفة الى أن وضع تحت تصرف عمرو قوة من أربعة آلاف فارس قائلا « مر وأنا مستريح الله في مسيرك ، وسياطيك كتابي صريحا ان شئت الله ، فان تحركت كتابي وامرتك فيه

بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو كسبها من أرضها فانصرف ،
وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيتك كتابي فاعلمى لوجهك واستعن بالله
واستنصره . »

دخل عمرو وأخذ عمر وعمرى معه فأتاه في الإيهام ، لكن الهواجس
انقضت وخولوا على مصير المسلمين كتب إلى عمرو أمرا إياه بالعودة
ووصلت الرسالة عمرو بينما كان لا يزال في دفع من أرض الشام
حين عمرو فعوى الرسالة فانتظر حتى وصل إلى المريش فمصر قبل
أن يقتحمها . ولما قرأها سأل ضباطه قائلا « أهذا المكان في مصر أم في
الشام ؟ » فاجابوه « في مصر » . فقرأ الرسالة بصوت عال واطلهم
على ما كان قد اتفق عليه مع الخليفة ، ثم أمرهم بمواصلة السير .

غزت الجيوش العربية مصر واستطعت مدنها بيساها الواحدة بعد
الأخرى . ألحما ثم يليس وعلف أخرى أقل أهمية . وبعد أن احتل
العرب قرية أم دنين الواقعة على شاطئ النيل القروى (دينا في موقع
الأزبكية الحال) ، استولى عمرو على القوارب وعبر النهر واستولى على
الفيوم ثم دخل إلى الصعيد وتهاوت نظريات الحرب القديمة الرومانية
لأمام قدرة العرب على الانتشار السريع وللناوذة والمجسات الارتجالية
العسكرية لفرسانهم . أربكت غارتهم المفاجئة البيزنطيين الذين صجزوا
عن مقاومتها ولما فشل البيزنطيون في طع الصالات العرب مع شبه
الجزيرة العربية ، تحصنوا في داخل قلعة بابلليون النينة التي تعرف
بأبراجها النينة المستديرة على مدينة مصر - خليفة وورثة ممفيس
القديمة . وعندما حاول البيزنطيون لك الحصار علوا بهزية ساحقة
في سهل هليوبوليس - المكان الذى هزم فيه كليبر الانكشارية الأتراك
تحت قيادة يوسف باشا بعد هذا التاريخ ياللى عشر قرنا من الزمان .
وتحصن ما تبقى من البيزنطيين في بابلليون لكن الحصن استسلم بعد
سبعة أشهر في أبريل سنة ٦٤٦ م .

وتلى هذا سقوط الاسكندرية وجلا ما تبقى من قوات البيزنطيين ،
ثم احتضار مصر كلها تدريجيا وبذا انتهت مسبة قرون من الاحتلال
البيزنطى ثلاثت كخفية بفوى حلتها بيمدا رباح أعمار .



وخشانا لسيطرة العرب على مصر ، ونظرا لأن يعلما من أرض
الجزيرة العربية كان يمكن أن يحصل من استردادها أن سيطرت أبر
صعبا ، فقد اعترم العرب الاستقرار فيها . وبمجرد أن وقعت معاهدة
الجلاد ، ولجأ العرب مشكلة اختيار العاصمة . أراد عمرو أن يختار

من الاسكندرية قاعدة حكمه نظرا لشهرتها و ثرائها ، لكن عمر رضى الله عنه رغب ان يترك قواته في مدينة تفصلها مياه الفيضان عن ارض الجزيرة العربية في كل عام لذا امعد الاحتياول اختيارا على قبة المروحة التي تمسكها دلتا نهر النيل ، لكن الآراء تضاربت في اختيار الموقع الفضل للمدينة : ا يكون على الضفة الشرقية أم الغربية ، أراد الاقضياء ان يجعلوها على الضفة الغربية ذلك ان الوصول صلهم ذكر ان الجزيرة بها روضة من رياض الجنة . لكن عمرو كان عمل التفكير فقد فصل الضفة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتصال قوى بجيشه . وكان من رأى الخليفة انه من الأفضل ان تكون الجزيرة والروضة تغطي ارتكاز وتقل للجوش من الشرق الى الغرب وهكذا وقع الاختيار على الضفة الشرقية في البقعة المجاورة لمصن بابليون للهيمن على الطرق المؤدية الى الصعيد ، لكن جزءا من الجنود الذين كانوا بالمجرة رفضوا مقادرتها بحجة انهم أمضوا بها أكثر من شهر . وبموافقة الخليفة صرح لهم في النهاية بالاقامة فيها على أن يسبقوا حصنا يده في اقامته في عام ٦٤١ م وانتهى في السنة التالية .

وبالقرب من بابليون يتفتح وادي النيل الذي كانت عبره القوافل . ذهابا الى الجزيرة العربية محملة بخيرات مصر واياها من المدينة المنورة محملة بالثمن والتعزيرات . ومن هناك أيضا كان يبدأ الخليج ، وهو قناة تخرج من النيل شمال الفسطاط وتمر بهليوبوليس (عين شمس) ، وتخترق السهل كله حتى يصب في البحر الأحمر قرب مدينة السويس الحالية وكانت في الأصل فرعا من النيل طيته الرمال واعيد شكله . وقد أعاد عمرو تطهيره من الرمال حتى ينشأ طريقا ملاحيًا بين الفسطاط والمدن المقدسة ، سمي « بخليج أمير المؤمنين (١) » .

وقد مهد هذا الخليج في عام ٦٨٨ م لقطع الامدادات عن احمد منتحل الخلافة (هبة الله بن الرير) وكان مقبلا في المدينة . وفي النهاية بطل استعماله وأن ظل مستخدما كخزان مياه للسهل الواقع في شمال القاهرة لمدة ألف عام . وكان الجزء السليم منه بمثابة نهر لمدينة القاهرة .

(١) تجر اسم الخليج في عصر الحاكم يجر الله الذي أدخل عليه تحسينات عدة الى « خليج الحاكم » فضلا عن هذا الاسم فقد أطلق عليه أسماء أخرى قرأنا من خريطة الحصنة الفرنسية للقاهرة في عام ١٧٩٨ م - وبدا من أن نصب مياه الخليج في البحر كانت تفيض في بركة « الجب » والمنطقة المجاورة لها وأخيرا اندثر الخليج في نهاية القرن التاسع عشر .

وتعددت مزايا المنطقة المجاورة ، ففي السهل كانت توجد غبار وعيون لماء العذب . ومثلت تلال المقطم محجرا ثريا كانت أحجاره جزءا مكملا لمواد البناء التي كانت تتوافر بكثرة على طول شفتى النيل كالطين مثلا والوحل وأحجار السمائر القديمة الخربة . بالإضافة الى هذا كانت القاهرة تجاور أرضا زراعية خصبة تقوم على حشبتين بساتين من مياه الفيضان . وعلاوة على هذا كان يوجد في سفح المقطم وادي جاف يصلح كجيبانه .

كيف كان يبدو موقع المدينة في وقت الفتح العربي ١٠٠ الى الشمال من السهل الذي كانت مسقيفه عليه للمدينة التي سبقت القاهرة كانت تقع مدينة هليوبوليس القديمة التي دعاها العرب عين شمس . وإلى الجنوب يقع حصن بابليون الذي ازدهرت حوله مدينة قصر الفسح (٢) . وفي قلب السهل كانت توجد قربتين منفصلتين هما أم دنين ومصر .

بينما تناثرت بين النيل وجبل المقطم كنائس وأديرة وحدائق وكرمات .

كانت طبوغرافية هذه المنطقة حائلة التغير ، فالنيل يقع دائما من مجراه بسبب الرواسب التي تتراكم على قاعه . وفي وقت الفزو كانت صاحبة « قصر الفسح » - وهو الموضع الذي سيقيده فيه جامع عمرو تطل على النيل ، وخلال وضع عشرات من السنين غير النهر من مجراه الى الغرب مكونا مساحة سمحت بإقامة مبان بين قصر الفسح والنيل . ومن الملاحظ ان قمة الدلتا تنزلق دائما نحو الشمال ، أما النهر فيتحرك غربا دائما بشكل ملحوظ ، مما يؤدي الى ظهور شواطئ جديدة . كما ان أي هائق في مجرى النهر كمنطام سفينة أو دغل أو لوح خشبي كقنصل بأن يجمع حوله رمال وطين يتراكم ويتعاسك بفضل الأملاح الكلسية التي تحتويها مياه النيل . ثم يرتفع مستوى القاع تدريجيا ، ويستوى الأمر بأن تظهر من تحت الماء جزيرة تبرز صفحة الماء التي تفصلها عن الشاطئ من مجرى الماء الرئيس ، لتتحول الى بركة تمتلئ بالماء فقط أثناء الفيضان . وفي النهاية ينفذ تماما وترقى بها الحدائق وتقام عليها الأبنية ولا يبقى الا الاسم القديم ليلذكنا بأصل تلك الأرض .

(١) الاسم العربي لحصن بابليون ويبدو انه معروف لكثرة غنى القبطية التي تسمى « مصر » .

عندما جاء عمرو الى مصر لم يكن يمررى النيل سوى جزيرة واحده
تسمى جزيرة مصر ، او اختصار الجزيرة ، وهي تطابق الى حد ما
جزيرة الروضة الحالية . وكثيرا ما كان الفرين الذي يجلبه النهر
يسد الفاصل لكلى الذي كان يفصل الجزيرة عن شاطئ النيل . وغير
كلى مرة كان يصاد تطهير من الرواسب للتحفاظ على الجزيرة التي كانت
تلمب دورا هاما فى خطة النظام الدفاعى للقائد العربى .

لم يكن الموقع الذى قدر للقاهرة ان تشغله خواء . فبند
مصر ما قبل التاريخ سكنته قبائل عاشت فى سفح المتعلم على ارض يمتد
عن مياه الفيضان . ولقد هتر على مصانع للالات الطرانية على سفح هذا
الجبيل على ارتفاع اقل من الجبال والمقبات . والى الجنوب قليلا هتر
على ميائل عظيمة دفنت فى وضع القلعة وعلى فؤوس حجرية مصقولة
واوان ورعى طواحين وآثارا هامة تلقى ضوءا على اسلاف أهل القاهرة
الحاليين .

وعلى تلك الأرض الواقعة بين المدينتين الفرعونيتين ممفيس
وخليوبوليس شيدت مدينة عرفت باسم بايليون أو قصر الشمع .
وقد خلد اسم بايليون (مجهول الاصل) فى اسم دير بايلون .
أما أصل الاسم الثانى فكانت التسويع التي طغى الحى القبطى (١) .

ومعلوماتنا القليلة عن مدينة بايليون لا تسبج لنا بأن لرسم
لها صورة تفصيلية أما عن خليوبوليس التي كانت قد شيدت فى الأصل
على أشبه لمروع النيل فقد اضمحلت كهرجيا . وفى نهاية العصر المسيحى
لم يكن قد بقى منها الا أكواخا مبعثرة فى الصحراء . وكانت ممفيس
قد أقيمت يتفرع فيها النيل الى لمروع هدة قسمت الأرض الى جزر فكانت
ذات نفع عظيم فى المواصلات التي اعتمدت أساسا على القوارب .
لكن المدينة ما لبحت ان حرقت بعد ان هجرت . ومن تلك المدن الثلاث
لم تبق الا بايليون لميزات عدة انفردت بها . فهي حصنة بالشواطىء
الغربية من طريق قنطرة بين ثمران بجزيرة الروضة . وبهذا كانت نقطة
هامة من نقاط المواصلات وبهذا صارت العاصمة الفعلية لذلك الإقليم قبل
ان تستبدل القاهرة الفسطاط .

ازدهرت بايليون تحت الحكم الرومانى . وكما قيل فى أوردان
البردى فقد كان بها أرضة شجر وميناء ومقاييس للنيل . وقد ذكر

(١) قيل ان أصل التسويع كانت تتركه للاعلان عن انشغال الجنس من برج الى برج .

ستيرايدون انها كانت يقرها المفرقة من الفرق الثلاث الرومانية التي كانت تشكل حامية مصر . وكانت السواقي تغذيها بالماء فضلا عن طياريه يديرها مائة من السجناء . وقد شيد الامير بطور تراجيان الحصن والقناة التي كانت تغرق المدينة ولما قد سميت بقناة تراجان .



كثيرا من الذكريات وقليل من الآثار تلك التي وصلتنا عن تلك المدن التي سبقت القاهرة التي لم يلق سكانها أهمية كبيرة على حياتهم الأرضية بل كان جل عنايتهم بالحياة الأخرى ؛ ولما فقد شيد سكان مدن ممفيس وهليوبوليس وبابلليون مساكنهم من الطوب بينما كانت عقاربهم من الأحجار . ولما فقد غالبت المسابر الزمان بينما لم تصد المساكن سوى سطوات .

وتلك المدن القديمة لا تقبى المدن الحديثة بمنازلها المتلاصقة . بل هي أقرب الى مدن العصور الوسطى حيث كانت تقصير كل أبرشية من الأتري أرض ففسله ما كان يكسبهم مظهر القرى المتلاصقة . وقد عوض جمال مظهرهم الطبيعي هذا من العدم الوحشة . كانت تلك التجمعات السكانية اذا ما شوعحت من أهل أقدسه بقمه مكبات بمشرقا يد ظل هابت . كانت أخلاط من مزارع وأرض مسيجة وذكواح وأبنية دينية مبعثرة على أرض واسعة . كان لكل بناء فيها وحدته المنيزة ، تحده حديقة ، ويشيد على مرتفع حتى يتجنب الأرض المنخفضة ، التي يفرقها الفيضان ، وكان يفصل بعضها عن كلبعض أحيانا قنوات وجسور ، وأحيانا كانت تحاط بأسوار لحمايتها .

ويبدو ان بابلليون كانت مدينة سابقة للفتح العربي ولهم مظهرها المتفكك . ولما فلم يكن قرار الكنائس العربي بالشيء عاصمة له . هذا المكان خلفا لمدينة جديدة من العدم ، بل كان يلوذ لدائع غير محسوس كان يطلع الناس حتى ذلك الوقت للاستقرار في المنطقة . فليس من الغريب ان يقبل الناس على سكنى المدينة الجديدة .

جذبت المميزات المادية لهذا الموقع العديد من السكان ، وتكاثرت البواعت الدينية بالآخرين . فلقد نسجت الأتافيص الدينية حالة حول تلك المنطقة . كان من المعتق أن الدعوات التي تؤدى على جبل المقطم محابة ، وإن لله قد وجه بان يجلس من السفح واحة من رياض الجنة ، وأن هذا السطح يتبع بمخاصية خارقة للطبيعة مباركة ، فالتجست التي تدن فيه لا قبل لوقت طويل على عكس وادى النيل (وذلك بسبب الجفاف) . وقد اعتقد أن من يدخل إلى نهاية الطرف الجنوبي يبعث

أيام الأربعاء والخميس والجمعة للفصلين • وطبقا لأحدى الروايات أخبر المقوقس (الذي لا تعرف الكثير عنه فيما خلا دوره في القتال ضد الفاتحين العرب) لعمرو بن العاص القائد العربي أن المولى المنقوبي في سفح الجبل يسمتوا يوم القيامة دون حساب عن أعمالهم • وكان هذا خطأ من المقوقس • فقد نبش الصرب القبور القديمة ليحلوا محلها قبورهم • وبالقرب من هذا الجبل قيل أن موسى تسلم الصديدي من ألواح الشريرة • وصعد إليه يوسف أثناء إقامته في مصر • وفي المطرية توجد شجرة العذراء • التي يبدو لها خلقت شمسجرة كانت مكرسة للالهة ايزيس • وفي قصر الفصح تحتفظ أمم الكنائس بأغلال القديس جورج وأخرى تضم الضار الذي احتفت فيه العذراء مع المسيح عليه السلام • تلك الذكريات الدينية دعت الكثيرين إلى أن يفيدوا الأديرة والكنائس ثم إلى السكنى في جيرة هؤلاء القديسين وبدا عبر الألفين •



بنيت الكنائس القبطية على نسق واحد • والكنائس العالية مغطيا صورة عما كانت عليه الكنائس المعاصرة لعمرو بن العاص • فلكه القمت الواجهات من الطوب أو الحجر وتركت عارية من الزخرفة ولا تحمل طابعا مميزا مثل واجهات المنازل الإسلامية • أما من الداخل فيقسمها صفان من الأعمدة إلى صحن أوسط ورواقين جانبيين يتقوسهما دهليز مستعرض • والحوادث متراكمة وتظهر عليها آثار الرطوبة وتلطيخها بقع من الدخان مما يكسيها مظهرا متفرا • وتحمل السقف دعائم مميكة • وتفصل الهيكل ستائر خشبية مطعمة بالمعاج وخشب الأرز فتحت ليها أبوابا تغلقها ستائر مخملية • ويمتد الهيكل في حنية الكنيسة • وبه المذبح • وفي قلب الكنيسة توجد ستائر من الخشب الخروط تشبه إلى حد كبير المقربيات كانت تفصل أماكن الرجال عن أماكن السيدات • وفي كل مكان علفت صبور القديسين التي اعتمتها المسنون • فطالما ينظرات متجهة تحمل نيرة تماثيل •

ولا تعرف القائمة الكاملة لتلك المشعات الفنية حيث دمر العديد منها في القرون الأولى للهجرة - ومن المحتمل أن تكون كنائس أبو مينا وحنا تادرس ودير مارى حنا والمعلقة أصبحت قبل إنشاء القسطنطين • وكانت تقع على شاطئ النيل الذي كان يبعد عن مجراه الحال ٢٥٠ مترا إلى الشرق • وإن كان إنشاء كنيسة أمرا لا يستتبعه بالضرورة هجران

للمنطقة المجاورة فإن عدد الكنائس لا يدل انه كان يطابق حجم السكان المحيطين بها . وسجلات الكنيسة تذكر على سبيل المثال اسم أسقف بابليون الذي كان مقره في الأحياء المتنامية حول الكنيسة مثل ممفيس وهليوبوليس . وأخيرا فإن فخامة بعض الكنائس مثل الكنيسة للطقس التي احتفظت دوما بشهرتها لهو دلائل على قوة الشعور الديني للاقباط .



وكشائر العنقاء (١) الخرائط التي كان يستعملها رعاة آلب إلى الخراب كل المدن التي شيدت في هذا الموقع مثل القسطنطين والعسكر والقطائع والقاهرة . وأعيد في كل مرة تقييدها على نحو أبهى وأعلم .

كانت ممفيس وهليوبوليس وقصر الفصح ضواحي أقام فيها الفاضل من سكان العاصمة التي امتدت مساكنهم حتى حافة المقطم . ويوضح الخط الذي كان يربط تلك المدن المتنامية في اتجاه نمو واتساع مدينة القاهرة . فقد أحدثت القسطنطين وحليفاتها في الاتساع نحو الشمال على نحو متصل . ولما كان المقطم يشكل عتبة في اتساع المدينة فقد حاذته البيوت متجهة إلى الشمال نحو سهل العاصمة وأخيرا إلى صحراء مصر الجديدة . وقد شهدت القاهرة محاولات غير ناجحة للانسحاق نحو الجنوب . فعندما اشتد الجفاف في مصر في عام ٦٨٠ م حتى أنه كان يجصد في كل يوم ٧٠٠٠٠ إنسان ، لجأ حاكم مصر في ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان إلى حلوان ، وكانت قرية صليبة تقع إلى الجنوب من العاصمة وعند قرية طوبة شاعده الحاكم دفرا ضيقه على ضفة النيل يسكنه عدد كبير من الرهبان فاشتراه بمئتين ألف دينار ، ووسعه بأقامة ملحقات فيه حتى يتسع لأقامة حاشيته وحرسه ثم أقام مساجد وغرس حدائق وكرعات . ولكن لم تنقذ حلوان عبد العزيز بن مروان من الموت فعندما عاد الجفاف مرة أخرى في عام ٧٠٥ م توفي عبد العزيز في مملكته هناك . وبالرغم من شهرة تلك الضاحية إلا أنها لم تزدهر إلا في أيام الخديوي توفيق عندما وبطها بنج حديدي مع العاصمة . لكن القاهرة أو بابليون لم تحاولا أبدا الانضمام إلى حلوان .



ديروى من تأسيس مدينة القسطنطين قصة طريفة وبما هي أسطورة لكنها تحمل صدى من الحقيقة . بيتما كان عمرو يتأهب للزحف على

(١) طائر الربيع أو Phoenix للقدس الذي آمن المصريون القدماء انه يحيا خمسين سنة في منطقة البريرة النورية . وقيل أن يرايه الأجل كان يسره إلى مصر إلى محبة الشمس في الخريف (هليوبوليس) حيث يحرق ثم يبعث من جديد .

الإسكندرية وجد حمامة قد بنت عشها على قمة خيمته ، وكان يبنيها على
وشك العنق فاستشبع عمرو ان يهدم عش طائر استجار به في شهر
محرم وأمر بأن تترك الخيمة حتى حين عودته من الإسكندرية . ويقول
بالولت المؤرخ صاحب تلك الرواية ان عمرا قد نصب حارسا على الخيمة
حتى يمنع اللصوص من مضايقة الطير .

ومن كلمة فسطاط وتسمى الخيمة اشتملت المدينة اسمها . لكن هذا
الاشتقاق قابل للنقاش . ذلك ان المؤرخين قد كتبوه في خمسة صور
فوسطاط - فسطاط - فوساط - فوساط - فسطاط . وكانت لهم جميعا
نفس صيغة الجمع فسطاطين ، وكمنى عتلا من جلد أو شعر الغيران .
وربما كانت الفسطاط هي الصيغة العربية لكلمة فوساطين اليونانية
(Fossation) وتسمى المسكر . وأياما كان المصدر غالاسم هاش والتسحق
بالمكان وباسم مصر . واستخدمت كلمة فسطاط مصر للدلالة على سكان
المطقة بوجه عام .

وحسبما ذكر المؤرخون كان جيش عمرو يضم الى جانب المحاربين
لساءا وأطفالا وتجارا ومغامرين ، أي كان بالاختصار أمة متحركة .
ولم يفقد هؤلاء المحاربون للذين اضطروا الى الاستئجار حينئذهم الى
الصحراء . وإذا فقد كآثره الفسطاط بطبيعة منشئها الذين كانوا وسطا
بين البداوة والتمدن . وبالرغم من انها كانت معقل القوات العربية في
مصر فلم تتخذ شكل المدن المصنعة بل كانت تحسب بمعسكر مؤقت
أو أشبه بمدينة في مرحلة التكوين أو ببغتين لاشكل له يتمو تدريجيا حتى
يتخذ في النهاية عن أولوة الشرق مدينة القاهرة .

لكن النمو كان بطيئا فلهذا أراد عمرو ان تكون مدينته مدينة بسيطة
حتى يجنب جنوده دعة الحياة التي هي عنوة للشجاعة والصلابة .
وأراد ان يبعدهم عن امتهان المهن العملية كالزراعة التي تضغط
الشخصية . لكنه اضطر التقدير فالاحتكاك بضاربة أرقى يولد الرغبة
في الاستمتاع بثرف الحياة التي تغري البدوي يسكني المدن الحقيقية
وعندئذ يتعلمون قيم العمل الجاهي وتحل المدينة محل القبيلة في
اجساس المرء بالانتماء . وسرعان ما يتخلص البدوي من طبيعتهم
القوضوية وتتحول معسكراتهم الى مدن منتظمة تصبحها الشرطة .

كانت منازل أهل الفسطاط في البداية شديدة البساطة تتألف
من حجرتين أو ثلاثة وجهها كانت أقرب الى الأكواخ منها الى المنازل .
وحول الدويان ، (مقر الادارة) خطت كل ميجرة عرقية لها قسما
مستقلا من المدينة « خطة » كطارات مدينة القاهرة المستقبلية ، ومنهنا

على سبيل المثال « حطة الفارسيين » التي ذكرها القريزي ، وكانت مقرا للفرس الذين اعتنقوا الاسلام وشاركوا في فتح مصر ، وصيت بعض الخطط اناسا عن قبائل عربية مختلفة مثل « حطة اهل الرابية » التي شيدت حول جامع عمرو ، « حطة اللقيف » الى الشمال منها ، و« حطة » اهل الظاهر ، وقد خصصت لاستقبال القادمين الجدد الذين لا يستطيعون الإقامة في خطط قبائلهم .

وكما ذكرنا من قبل فقد استقرت بعض القبائل في الجزيرة تحت حماية إحدى القلاع .

وكانت كل حطة تضم حظائرا للماشية وللحيوانات ويفصل بعضها عن بعض ارضي نفسه لاحتزاع أو تقطعها أكوام قماش مما كان يعطى للسكان الطباعا بانهم مازالوا يحبون في الصحراء ، ويعينهم في نفس الوقت الأحقاد التي تلازم المجتمعات العشائرية وبالتدريج عمرت تلك الأرض بالمهاجرين الجدد والتجار الأقباط حتى ان الخازن عبد الله في سنة ٧٣١ م استقدم خمسة آلاف رجل من قبيلة قيس وأنزلهم بالفصاحية الشمالية الشرقية حتى يحقق التوازن مع الأقباط الذي رفض معظمهم اعتناق الإسلام .

يقول المؤرخ العربي « زيدان » أن العرب اعتادوا الدورول على أطراف المدن التي يفتحونها لكن الآن اختلف في الفسطاط ، فإلى الجنوب من بابلليون امتدت بركة الحبش التي كانت موطئا للأوثىة والناموس ، أما إلى الشمال الغربي في المنطقة التي كان يحصرها مرتفعين هما جبلا « يشكر » و« الرمد » فقد كانت توجد حطبة مقعرة الشكل ، ويقيم بعض المباني الدينية أوجعت المساحة اللزامة لبناء المدينة العربية التي امتدت من النيل غربا ، حيث كان مجرا إلى الشرق قليلا من المجرى الحال ولاستتج أطرافها المرتفعات الصحراوية الواقعة شرقا .

في شتاء ٦٤١ - ٦٤٢ م شيد عمرو مسجد في الموقع الذي كان قد نصب فيه رايته عندما كان يحاصر حصن بابلليون ، ولما عرف الموقع بميدان الرابية . كان هذا الموقع أصلا جبالا قديمة تقوم وسط مزارع الخضروات وكرمات . وكان مملوكا لرجل يدعى عبد الرحمن ابن قيسية الذي ملحه حية للمسلمين بفن عقابل يناه على طلب عمرو ولقد ذكرت إحدى الروايات المشكوك في صحتها ان الأرض كانت تشغلها كنيسة . وربما نشأت تلك الأسطورة بسبب الأعمدة قبطية الطراز التي توجد في بيت الصلاة . وفي رواية أخرى قيل ان الأرض

كانت بحوزة امرأة يهودية طلب منها عمرو ان تبيعها ، فرفضت باعتزم ان ياحتها بالقوة ، لكنه اراد استشارة الخليفة أولا - فارسل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان فى يتبع حينذاك على ساحل البحر الأحمر - ووجد الرسول الخليفة يتنزه على اطراف المدينة وكان بالقرب منه كوم عملات - اتصت للرسول ثم الحسن والتفت بصحبه خروف بيضاء رط عليها بالحبر طين احدهما مستقيم والاخر أعوج ، ثم استدار الى الرسول وطلب منه ان يحمل الجمجمة الى عمرو ، الذى تأملها محاولا ان يفهم لها معنى واحدا اتضح له مياها فصاح قائلا : ان الخليفة فعل حق - يجب اتساع الطريق للقويم ، سبيل الله ، لا الطريق الأعوج ، سبيل الشيطان الرجيم » (١) - واستدعى عمرو المرأة وطلب منها ان تبيعه قطعة أرض يسكن ان ينطيقها بجبل ثور ، فوافقت المرأة - وكما فعلت « دينون » (٢) - وعلى النقيض من امر الخليفة قطع جبل ثور حديث الديع الى قتال رقبة أساط بها مسافة الأرض التى شيد عليها مسجده الذى يحمل اسمه .

كان المسجد الاصلى شديد البساطة اشبه بمنزل نادى مستطيل الشكل - طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧ مترا - وساحته - وطيه شيد من صنف البخيل وموصول على دعائم - ولم يكن به منبر ولا مئذنة ولا أبراج بالروايا - وكان مروا ستة أبواب - وقد استخدم لافراس حتى : كمحكمة وقاعة مجلس وماوى - ويروى ان ثمانين من الصحابة رضوا الله عليهم قد حدثوا اتجاه قبلته ، وكان بها خطا طفيفا صلح عدسا لعميد بناؤه - وقد انحط حيرة المخاربين منازلهم حول الجامع وأحاطت به مكونة نصف حلقة وقد عرفت خطتهم باسم « خطه أهل الراية » .

وسرعان ما ضاق المسجد بجموع المسلمين الذين اضبطوا الى الجلوس فى صفوف فى الفضاء الواقع خارج للمسجد ، وقد امر الخليفة عمر رضى الله عنه بكسر المنبر الذى أقامه عمرو فى مسجده ، ووبخه على رغبته فى ان يعلو بأى صورة على رؤوس المسلمين - وكنت الريادة الأولى فى مساحة الجامع فى عهد مسلمة بن مخلد فى عام ٦٧٣ م - فقد ضاف رواق فى الجانب الشمال وكسى أرضية الجامع بالحصى بدلا من الحصى - وقد بنى أبرجا صغيرة فى اطراف الجامع ، وشيد عليها منائر تحمل اسمه - وقد زاد فى عدد المؤذنين - وأمرهم بالأذان لصلاة

(١) مؤسسة مدينة قرطاجنة .

(٢) لم أذكر على النص الاصل لنا ترجمت كلام ثلاث .

الفجر مثلا من استخدام الناقوس الخشبي baginodo وفي عام ٦٩٦م أعاد عبده العزيز بن مروان بناء جزء من الجامع أو بالأحرى أعاد بناء الرواق الشمالي الذي كان قد أضعف من قبل . وفي عام ٧١١ م كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى واليه على مصر قرعة بن شريك بأن يهضم الجامع ويمسك ببناؤه من جديد . وفي تلك المرة بنى المحراب على هيئة تجويف غائر . ثم يأتي عبده الله بن طاهر في عام ٨٢٧ م ويزيد مساحة الجامع إلى الضعف تقريبا . وأخيرا وبعد ما كان الجامع على وشك الاندثار رُميه مراد بك في عام ١٧٩٢ م ليتخط الصدورة التي هو عليها الآن ذلك الجامع الذي يعد أقدم جامع في مصر وبالتالي من أقدم الآثار الإسلامية . وفي عصرنا الحاضر أهمل الجامع القديم ولم يعد يستعمل بالصلوات إلا مرة واحدة في كل عام في الجمعة الأخيرة من رمضان .

ولقد أتى عليه حين من الدهر كانت فيه جذرائه الملوثة مزهجرة بماء الذهب وقد أودع فيه ١٢٩٠ مصسحا وأبارت جنياته ١٨٠٠ مصباحا . وحلعت عليه أهدته الرحمانية ، التي ربما كانت قد جلبت من مصب لافروديت حيث شابهت حلاعة طقوس عبادتها أو ظنلت في يوم ما مذبحا مكرسا لديانة المنراء ماري العفيفة . مظهرًا لغاية قد كسى الصنيع أجنارها . وكما امتلأ صدر عمرو بالفخار وهو يشاهد جنوده يصلون في جامعة وقد انتظروا صلوات كصفوف المجاهدين أثناء القتال أمام المحراب ، الذي يذكره بكلمة الحرب والجهاد . فبعد المعارك التي وضعت ثروة مصر في أيدي العرب كان عليهم أن يخوضوا جهادا روحيا من أجل سعادتهم في العالم الآخر .

وتحيط بقصة بناء الجامع صحابة من الأساطير . فإثناء بناؤه طلب عمرو من الخليفة أن يرسل له عبودا من مكة فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبودا بأن يظفر إلى المسطاط ، لكن العبود أوى الحركة بالرغم من إعادة الأمر عليه . وبعد أن أعاد عليه الرسول صلعم (وفي رواية أخرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه) الأمر ثلاثة مرات ضربة يسوطه ومازال أثر الضربة بالحياء في صورة عرق على بدن العبود الرخامي ، ثم أمره بسم الله أن يطيع ، وعندئذ ارتفع العبود في الهواء وغير القضاء كالسهم ، وحبط في المكان الذي كان المسجد يبني فيه . وعلى المنرق أو ما يقال عليه أثر الضربة يقرأ تكفي غير ملبوس تقشقه يد غير بشرية . وقيل أيضا إن هناك عبودين في بيت الصلاة لا يمكن أن يمر من بينهما إلا الصالحين .

مرتبط اسم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى توفي عام ٦٤٤ م بالقضاء على المادة الوحشية المعروفة باسم هروس النيل .
 فطبقا لعادة قديمة اعتاد المصريون ان يلقوا بفتاة صغيرة فى النيل كل عام كتمبير عن امتنائهم للخير الذى يحمله اليهم . ويرى لنا المؤرخ ابن عبد الحكم كيف تم القضاء على تلك المادة البرية فبعد الفتح العربى اتى المصريون الى القائد العربى عمرو فى شهر بؤنة قائلين :

« ايها الأمير ، نئيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها » فسألهم عمرو :

« وما ذلك ؟ » فاجابوا : « انه اذا كان تنتهى عشرة ليلة تظلو من هذا الشهر ، عمدنا الى جارية بكر من ابويها ، فارغينا ابويها ، وجعلنا عليها من الحبل والكتياب الفضل ما يكون ، ثم القيناها فى النيل » .
 فقال عمرو : « ان هذا لا يكون فى الاسلام » وان الاسلام يهدم ما كان قبله » .

وظل منسوب الدهر منطفئا أثناء الشهور الثلاثة التالية لتلك الحادثة . فهم الناس بمغادرة البلاد خوفا من المجاعة المنتظرة . فأمرو عمرو يستشير الخليفة الذى أجابه « أصبحت » ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك ببطالة فاقولها فى داخل النيل » .
 وكان نص البطالة بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى مصر ، لما بعد لأن كنت تجرى من قبلك فلا تجسر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك ففسكه ان يجريك .

فلما عمرو أمر الخليفة فى ليلة كانت عسسية « عيد الصليب » منه الإقباط ونفى ليلة واحدة كما يرى المؤرخ زاد النيل سنة عشر ذواها ويلا نجي الناس من القحط والمجاعة .

وبعد تلك الحادثة استبدل الإقباط طقس « هروس النيل » بعيد يسمى « عيد الشهيد » . وكان يحتفل به فى شبرا ولكننا لا نعرف الغرض منه وقد قيل ان الناس كانوا يحصلون فى موكب كبير مقصورة بها ثلاث أصابع قيل عنها انها أصابع الشهيد بفون أدنى إضاح (١) .

واستمر الاحتفال المستوى بالتصحية بهروس النيل ، لكن الفتاة استبدلت بهروس من الطين تكسوها ثياب العروس .

(١) يذكر القريرى ان لقصورة كان بها أصبح وبعد وفى عهد السلطان الصالح صالح بن تكتون أمرت هذا الأسبوع وألقي وطعمه فى النيل .

صت المصططاط وإرداد تسيقيها وقد حسسات الماصصة الادارية للاقليم . وقد غطت في نهاية الأمر مساحة على شاطئ النيل طولها خمسة كيلو مترات وعرضها كيلو متر واحد . فقد امتدت من بركة الحبش الواقعة الى الجنوب من دير الطين حتى جبل يشكر الذي سميني عليه فيما بعد جامع ابن طولون . وكانت المنطقة المجاورة للنيل تسمى « الحمراوات » ومعظم أهلها من المسيحيين واليهود السوريين الذين كانوا قد انضموا للمسلمين لأسباب سياسية وقد انقسمت تلك المنطقة الى ثلاثة أجزاء هي على التوالي من الجنوب الى الشمال . الحمراء الدنيا (قرب نابليون) ، الحمراء الوسطى (أو الحمراء القنطرة) حيث نصبت الراية الحمراء أثناء الفتح العربي ، وأجيرا الحمراء القصوى . وقد اُردت أهمية هذا الجزء الأخير في عام ٦٤٢ م عندما أعيد تطهير الخليج (وهو القناة التي كانت تربط البحر الأحمر والنيل) وذلك لإرسال الخوّن من الجنوب الى الجزيرة العربية .

لم يكن بالمصططاط منشآت ذات أغراض دفاعية على بناء واحد محاط بسياج من البوص (روية) ، ربما تخلف من التحصينات التي كانت قد شيقت أثناء حصار حصن بابليون . ثم بعد أربعين عاماً تسمع عن سياج من الكتان شبيه الخوارج وحفروا خلفه خندقاً لحماية المدينة من قوات الخليفة مروان بن الحكم . وبهذا المؤرج المصقوب عن منارل محصنة أقيمت بين الخطط كنوع من التحصين . كانت المدينة آمنة من أي اعتداء وفي حالة الهجوم عليها كان من اليسير على أهلها الفرار الى الصحراء التي شكلت لهم ملجأ آمناً .

وبالإضافة الى جامع عمرو كان لكل خطة مسجد لها الخاص فضلاً عن المصل الذي شيد خارج المدينة ، وكانت تؤدى فيه الصلاة الجامعة في بعض المناسبات الخاصة . أما عن المنارل فكان محظوراً عليها أن تتجاوز طابقاً واحداً ارتفاعاً ، لأن المسلمين كرهوا المنارل العالية التي يمكن منها اختراق حرمات المعبران . وبمرور الوقت شيقت الكثير من المسافر الهامة . ففي عام ٧٣٣ م تسبب عن حار الصاعقة (١) « في الروضة » وعن ميناء « القس » الذي يرجع تاريخه الى القرن الأول الميلادي . وقد أقيم على النيل جسراً بأمر الخليفة المأمون . وأقام الوالي عبد العزيز بن مروان منازلاً وأسواقاً مسقوفة وحمامات . وعلى ضفاف النيل أقيمت مظالين عدة لاستقبال البضائع الواردة بطريق النهر . وتسبب في القرن

النامي الميلادي عن بناء تنوتة للحبوب وعن منشأة لأخير المؤتمنين كادت بنون شك مقرا للادارة الحكومية . ثم شيد في القسطنطينية بعد ذلك بـ ٧٥٠ م عندما كانت الدولة الاموية تحتضر ، في الخليفة مروان الثاني من العباسيين الى مصر . وعن القسطنطينية حيث وجد فيها متنازين عامرة بالفلل والقصر والتين . واتي لشرف من المدينة في المنطقة المحصورة بينها وبين القلعة تقع جدرانها المعروفة باسم القرافة . وبالقرب من بوابات قصر الشمع كان يوجد في القسطنطينية تمثالين أحدهما عرف باسم أبو الهول وقد اذتر في القرن الرابع عشر والثاني أطلق عليه أبو مرة وهو اسم من أسماء الشيطان المعروفة . وكانا التمثالين يمثلان اناثا حيوانية ، وقد صنع أولهما من الديوريت أما الثاني فكان منحوتا من الجرانيت الوردي .

وقيل أن عمرو قد شيد حماما عاما صغيرا عرف لصعده الشديد بحمام الفار . وكان بالمدينة حمامان آخران هما « حمام وردان » والآخر « حمام بصره بن ارضه » ، ولابد أنهما كانا من مدينة القدم إذ أنهما يمثلان اسمي التين من أصحاب هرو .



أخذت المدينة تنمو تدريجيا وقد انقسمت الى قسمين ، كان من الممكن أن سيرهما بوضوح في عام ٧٥٠ م ، أحدهما كان يدعى الآخر . الأول كان يسمى « جبل فوق » والثاني « جبل تحت » ويحيط الأول بالثاني كنصف دائرة تمتد من جبل يشكر شمالا حتى جبل الرصد جنوبا مارا بالنهضة الرملية المجاورة لجبل القلعة ، أخذت منطقة « جبل فوق » في الامتداد شمالا على حساب منطقة « جبل تحت » التي عانت من أجرة المستنقعات وكانت عرضة لانحطار الفيضان وغطتها سحابة دائمة من الأتربة والسمان الذي يجعله الرياح . وفي الصيف كانت تغطيها أبخرة سوداء ومن ناحية أخرى اعتاد السكان أن يلقوا بالقمامة والرم في الطرقات . وكثيرا ما عانت الصخور السطحية تصريف المرحاض مما كان يؤدي الى تصاعده الروائح الكريهة التي تؤدي المناطق المجاورة . وقد ذكر القريري أن تلك المرحاض كانت تصرف في النيل رغم أنه كان مصدر مياه الغرب الوحيد للمدينة ولذا لم يظن « جبل تحت » سوى الفقراء أو من تصب أعمالهم بشكل مباشر بنهر النيل الذي كان طريقا ملاصقة تماما . أما الآخرين فقد هجروها تدريجيا صاعدين إلى المناطق الشمالية والشرقية . وفي عام ٨٤٠ م بنى الزائ العباسي حاتم بن هرثة قبة اليهود في المنطقة التي شيدت عليها فيما بعد قلعة

الجبل وذلك حتى يستمتع بالنسيم العليل الذي كان ينعاب محطرات
الهضبة طيلة العام . وفي نهاية القرن العاشر أقام النخعي كاثور دار
الليل بالقرب من « بركة قارون » حيث كان الناس يذهبون للاستمتاع
بمياه النهر المسحرة والتمتع في القوارب . لكنه سرعان ما أدرك أن
الموقع غير صحي . ولذا شيد إلى الشمال القصر الذي حمل اسمه والذي
أصبح يستأنه فيما بعد في مدينة القاهرة الفاطمية .



كان نمو القاهرة ارجاليا لا تحكمه خطة ولا نظام . فهي تمتد في
اتجاه تارة ثم في اتجاه آخر تارة أخرى . وبمرور الوقت أخذت المدينة
تتسع لمساكنها . ومن ثم ستلحق اتجاه المدينة المستقر إلى التوسع شرقا
وشمالا . بلا الممران قلب السطاط الذي كان يمتد بمحاذاة النيل من
قصر المسح جنوبا إلى جبل الكيش بالقرب من غم الخليج شمالا . لكنها
لم تسفل الحيز الكلي للمدينة القديمة . فقد ارتدت بعض المناطق
صحراء ، مثل المنطقة الشمالية (الصحراء القصوى) وأرض جبل يسكر .
ولكن ليس لفترة طويلة . ففي عام ٧٥٠ م دخلت مصر القوات العباسية
التي كانت تطارد الخليفة مروان الثاني ، الذي كان قد أحرق السطاط .
لم يتم السادة الجدد بالسطاط لكنهم شيدوا لهم مقرا يدعى دار الامارة
في منطقة « الصحراء القصوى » - وحولها ظهر حي جديد ضم مسجده
وكنائس للجنه وأسواق ومنشآت مختلفة . وعرفت تلك المنطقة باسم
المسكر في عام ٧٥١ م ، وقد قصد بها المسكر ، وفيها أقام ٦٥ والي
عباسي خلال ١١٨ عاما .

وبالرغم من ذلك كانت الغلبة للمناطق المحاذية للنهر فقد
استغلت السطاط من سقوط الطولونيين ، وعراش النهر ، ومن
استخدامه كطريق للنقل التجاري . فضلا عن هذا كان من السهل
تفاديها بالمياه من النهر . وأخيرا انتهت المسكر بأن ذابت في السطاط
بعد أن فقدت اسمها .



أخذت السطاط تدريجيا شكل مثلث ذو ثلاثة بوابات من :

« باب الصفا » في الشرق و « باب مصر » في الشمال و « باب
المنطرة » في الجنوب وكان النيل لها بمثابة وتر المثلث . ولتعد
التصاق المدينة بالنهر لأنه مكنها من احتكار التجارة وبالتالي الصنعة .

فبعضه صارت مركزا هاما للتبادل التجاري وكانت مركزا للطرق التجارية التي وصلت الى الجزيرة العربية والمغرب وسوريا والجزر اليونانية وإفريقيا السوداء .

كما ذكرنا فيما سبق واصلت المدينة تقدمها في الاتجاه الشمالي الشرقي لكن على مضض ، فقد جاءت الاقلية ارتباطها بالنهر . أما المنطقة الجديدة المجاورة لجبل القلطم فقد تركت للموتى . وقد اقيمت فيها مقابرا للأقباط والمسلمين ، وقد عرفت جبانة المسلمين « بالقراله الكبرى » وربطت بقلب القسطنطين عن طريق شارع جنازى يسمى « طريق الوداع » . وفي تلك المنطقة اقيمت اضرحة للمسيحية قيسية ولثلاثة الميجلوس « الشافى واللىقى ومسيحي عقبة » . وبلا شك تبكلت مدينتي متجاورتين ، احداهما من منازل والاخرى من مقابر . وقد واصلنا الزحف جنبا الى جنب على نحو متواصل .

دام ازدهار القسطنطين وقد اصبحت فيها المعسكر قروبا عدة . وقد اولى الرحالة الذين زاروا مصر في أوج ازدهار الحكم الفاطمي القسطنطين اهتماما كبيرا . ووصفوها بأنها اشبه بمدينة القلمية لكنها عامرة بالسكان ومقسمة بالحوية . وقد قدرها ابن حوقل والاصطخري سنة ٩٧٧ م بثلاث مساحة بغداد . ولكن في خلال بضعة سنوات صارت القسطنطين قلب الامة الاسلامية ، حيث اولى كافور الاخشيدي العلوم والآداب رعاية كبيرة وشيد بها مدرسة . والى جانب جامع عمرو اصبحت ستة حوامع اخرى ، لكن جامع عمرو حافظ على مكانته كمركز تدور حوله كل أنشطة المدينة . كانت الأسواق تشفى بالناس والمصانع التي تنتج السكر والورق وعلى النيل اقيم ميناء القصب ودارا لصناعة السفن بنيت في عام ٩٣٦ م . وفي عصر الخليفة الحاكم بأمر الله عسر الفضاض الكائن بين جبل يشكر والقسطنطين . وضطت الضائق اطراف بركة الليل ومنحدرات جبل يشكر والفضاض الواقع بين الخليج والنيل .



وقد نهض القلمى لنظم عدد سكان القسطنطين في عام ٩٨٥ م . وفي يوم الجمعة كان يؤدى الصلاة عشرة آلاف رجل خلف الامام . واحتكر سوق القناديل الكائن جامع عمرو التجارة والحاصلات وانتشرت في كل مكان منازل من أربع أو خمس طوابق كان بعضها يتسع لمائتي نفس وقد وصفها هنا للزورخ بأنها أبهى مدن الاسلام وأكثرها عراشا ، وبفضلها عن ذلك كان المرء يجد فيها كل الاشياء التي قد يحتاجها في حياته بأسماء رخيصة حيث كانت تتدفق عليها البضائع من أرجاء العالم

بالمستمرار . وطبقا للثلاثينى فقد كان الرخاء عاما في الفسطاط في نهاية القرن الميلادى حتى ان الانبياء لم يجدوا فقرا يؤدون اليهم الزكاة ، فشكوا الى الوزير كافور الذى اخصار عليهم بيضاء للمساجد وتوريت لحواليم . ووصف الرحالة الفارسى « ناصرى خسروى » « سوق القناديل » في عام ١٠٤٦ م بأنه أغنى أسواق الدنيا ويشير بدقشة فائقة الى ارتفاع منارها فيذكر ان منها من كان ذو أربعة عشر طابقا ويذكر ان الحدائق كانت تفرس على السطح المنارل ، ولقد عده صنوف البضائع الفاخرة والنادرة التي كانت تباع في الفسطاط وتحدث عن مصنوعات المحلية . وقد امتدح حدوتها وأمنها وحسن سياسة حاكمها .

ولقد ترك لنا الرحالة للسعودى وصفا للاحتفال بعيد النطاس كما دار في ١٠ يناير ٩٤١ م وهو وقت تكون فيه مياه النهر على درجة كبيرة من اللفاء . وكانت تطلق فيه فوهات الأوسمة المستدة من نائيس الى دمياط وفي مدن أخرى في منطقة البحيرة وقد أمر والى مصر (١) بإضاءة شاطئه جزيرة الروضة . وشاطئ الفسطاط المقابل له بالفي حفول فضلا عن المصابيح التي فوقها حاصلة الفوم وأسرع الأنوار من للمسلمين والمسيحيين الى شاطئ النهر للفترة في القوارب ، وفيها كانوا يتبارون في الظهار الغرى . وكانوا ياكلون في اواني من الذهب كما يذكر السعودى ، ويتزينون بآخر الحل ، بينما تصدح الموسيقى في كل مكان ، وعليها تمايل الرقصات . وفي تلك الليلة كان الناس ينظرون في النهر اعتقادا منهم ان ذلك الحمام قليل بوقايتهم من الأمراض .

انصلبت ضاحيتي الجزيرة وجزيرة الروضة بالشاطئ الغربى من طريق جسر مزدوج وكان بالروضة جامع وفيات القبة ، أما طرفها الجنوبى فكان يضم مقياس النيل الذى يقيس ارتفاع نيلان النيل . وقد شيد في عام ٧٥١ م . ثم أعيد بناؤه في عام ٨٦١ م بأمر من الخليفة المأمون ثم الخليفة المتوكل الذى أوفد من المراق مبارى مشهور هو محمد بن كثير الفرجاني وقد صنجه رياضى يلقى بحبه النصيب الفلكى ، ثم ربه الخليفة المستنصر بالله في القرن الحادى عشر الميلادى . ويتألف مقياس النيل من يثر مستطيل متصل بقاع النهر ، ومن أجل يفتح على فناء مربع مزين بأربع حنيك بيضاوية . وفي مركز البئر يتصبب عود رخامى مشن قسم الى درجات أو أذرع تتحد ارتفاع الماء . ويمكن عن طريق سلم دائرى قد في الحواط البئر ان تنزل حتى سطح

(١) محه بن طبع الانبياء .

الماء الذي يكسبه الظلام مظهر مرمر أسود مائل • وعلى الضفة المقابلة مثلث الجيزة مدينة صناعية صغيرة • على أطرافها شيدت غيلات فاخرة وجهت بطريقة تسمح لها باستقبال نسيم النيل •

لم يص بناء المسكر ثم القطائع ثم القاهرة على التوالي نهاية القسطنطينية ، التي ظلت لمدة طويلة إحدى أهم مدن العالم الإسلامي • وكان على القاهرة أن تنتظر سنوات طويلة قبلما تتمكن من العنق على شقيقتها الكبرى القسطنطينية • وعندما اتخذ الخلفاء والاستقراطيون من القاهرة سكنا لهم ، لعبت القسطنطينية المزدحمة بالسكان دور المدينة الصناعية والتجارية • كما يشهد بذلك ما عثر عليه في حوائرها من حرف قديم ومصنوعات زجاجية • واستمرت فيها مصانع الحديد والنحاس والصابون والرجاج والورق والسكر والمنسوجات دائمة حتى القرن الثالث عشر الميلادي • وفي عام ١١٦٩ م صمدت فيها حقله من النحاس المطروق مرسمة الى درحات يملح قبطها أقدام وتزن بضع أطنان ، وقد استعملت كحامل لالة للرصد القلبي •

دار الرحالة الفارسي ناصري خسرو القسطنطينية في عهد الخليفة المستنصر ، في أوج ازدهار الامبراطورية الفاطمية • ثم بدأ الضعف يمس فيها في النصف الثاني من مدة خلافته الطويلة التي امتدت بين عامي ١٠٣٥ - ١٠٩٤ حيث قضت المجاعة والفتن العسكرية على رخاء هذه العهد ، وكانت ضربة قاسية للقسطنطينية التي اعتمدت على تجارتها السنية • وكانت أكثر مناطقها تأثرا في المنطقة الشمالية والقطائع مدينة الطولوسيين ومدينة المسكر المنيعة ، فقد هجرها أهلها واستحوطت الى خرائب ، وأعيد استخدام ما أمكن نقله منها في أبنية القاهرة في عصر بدر الجمالي • وتبع ذلك بناء حوائط حتى تحجب منظر الخرائب الكئيبة عن نظر الخليفة اذا ما غادر القاهرة متوجها الى القسطنطينية مارا بالقنارح الأعظم • وفي عصر الخليفة الأمر (١١٠١ - ١١٣٠ م) أمر وزيره المأمون البطاحي كل من يملك عقارا خريبا بأن يصلحه أو يسكنه أو يبيعه أو يؤجره والا فقد حق ملكيته • لكن هذا الأمر أدى فقط الى ظهور أحياء جديدة جنوب القاهرة بين ميدان الرملية وباب زويلة •



• انت نهاية القسطنطينية في عصر الخليفة الماضد بينما كان جيوش الصليبيون يزحف عليها • قبل النقيض من القاهرة المجاورة لها • ظلت القسطنطينية حارية من التحصينات • وحتى الوزير شاور ان يحفظ

الصاليبيون انفسطاط قاعة لهم ، غامر سكانها بالرحيل ، فغادروها كلهم
« كانوا يخرجوا من قبورهم الى القنطرة : لا يعبأ والد يؤذنه ولا يلتفت أخ
الى أخيه » وفي القاهرة أوى المهاجرون في المساجد والجامعات والشوارع

وبمجرد ان أغلقت المدينة حول اليها شاور في ٢٢ نوفمبر ١١٦٨م
عشرين ألف قلعة نقط وعشرة آلاف مشعل ، وأضرم فيها النار . تحولت
المدينة الى موقد ملتهب وحيث واستمرت النار متلججة أربعة وخمسين
يوما محت فيها المدينة ، ولم تترك منها الا هيكلا هزيلًا . لكن بقايا تلك
المدينة ، جدة القاهرة ، التي قاومت النار كان إعلانا منها بأنها ترفض
الامتياز دوسا ان تترك أثرا مهما كانت صوء حالته .

أغلقت القاهرة الفتية في التباعد عن الفسطاط الميتة وقد فصلتها
تلال من الركام . يخترقها طريق ترابي يبدأ من باب لويبة (جنوب
القاهرة) ، ويمتد الى المنازل القليلة المحيطة بجامع عمرو ، وهي المنطقة
الوحيدة التي صبرت بعد الحريق . وقد أجليت المدينة قناصل للبقاء .
فبالرغم من الأوبئة والمجاعات التي فتكت بسكانها مرات ، الا انها استمرت
تلمس دورا هاماً في اقتصاد البلاد ، ولكن دون ان تصل اليها الى سائر
مجمعات التي يهر ناصرى خسرو . ذات يوم لقد تحولت بوابة المدينة
والكثير من المنازل الى خرائب وصارت شوارعها ضيقة قلعة . اما جملتها
التي كان قد أسلحه صلاح الدين ببناء فائقة فقد حفر من جديد وأصبح
طريقا للمسيرة . ورغم هذا فسنما كان المرء يلتفت بنظرة الى النيل كان
يرى هذا من السفن التجارية الرأسية يرفق كل مارأه من قبل ابن سميد
الرحالة المغربي في القرن الثالث . واستمر السكر والحرير يستمدا بها
واستمرت أيضا مركزا للتجارة والصناعة ومنها تنقل البضائع الى
القاهرة . وحل النقيض من القاهرة المدينة الحديثة الحربية مثلت
الفسطاط مدينة تجارية مشغولة بمصالحها المادية . وقد امتدح ابن سعيد
وداعة أهلها فقال « لم أر قط في أي من البلاد أكثر من أهل الفسطاط مودة »
ويصفهم بالبرقة وذلاقة اللسان والتسامح كتجار أصلاء يجاورون
مضاعفة معارفهم .

ولمدة قرن من الزمان يمكننا متابعة تاريخ الفسطاط عن كتب ،
لقد تناولتها النواصب وأخذ أهلها بهجرونها وأخيرا عجزت عن متابعة
القاهرة بثرانها التي لم تكتفوا يرسل خسوف عبر مصر . وتدميها أخذت
القاهرة في اجتذاب التجارة اليها كل حساب الفسطاط على الحصور
الوسطى لم تعد أسواقها تجلب الكتيبة الرحالة الذين اعتنوا بوصف

أسواق القاهرة التي أحشتهم • ويخفى اسم المدينة في الظلام ولا يبق
منها سوى اسم مصر •

ويكاد يكون تاريخ الفسطاط مجهولا بدءا من القرن السادس عشر
ميلادي بينما أثلجت القاهرة في الازدهار وعاشقت سطوتها حتى صارت
الفسطاط تعرف في النهاية بمصر القديمة •



بلغ عدد سكان مصر القديمة أثناء حملة نابليون عشرة آلاف نسمة
تقريبا من بينهم متخلفة مسيحي • وقد أشار علماء الحملة الى أهمية
مبانيها في الملاحة النهرية الى مصر العليا وفي القرن التاسع عشر صارت
منطقة لسطة ، وبلغ عدد سكانها في احصاء ١٨٩٧ م واحد وثلاثين
ألف نسمة •

وفي الواقع تمتد مصر القديمة بحذاء شاطئ النيل ويمتدح طرفها
الشمالي مع مدينة القاهرة • وباستثناء جامع عمرو لم يبق من آثاره
القديمة شيء • فبعد نهاية العصر الفاطمي طغت بقاياها أكوام من الأتربة
تمتد حتى جبل المقطم ويذكرنا مرآها بالصحراء لكنها صحراء تربة
داكنة وزلطية تثير انتباهنا في النفس كأنها بحر رهيب من الرماد تتميز
عن الصحراء اللانهائية المحيطة به والتي تنبسط الى الجنوب بلوتها •
الذي يراوح بين اللهب والأحمر التاري •

القطائع

ولد أحمد بن طولون في بغداد في عام ٨٢٥ لآب من المييد الأكراد .
ولقي تعليمًا جيدًا ، ففصلًا عن دراسة العربية وحفظ القرآن درس الفقه
والإلهيات ، وعندما عين حاكم بكنك واليًا على مصر ، أرسله إليها كخاتبا
عنه . وبعد فترة من الزمن عينه الخليفة المباسي حاكما من قبله على مصر
ووصف ابن حليكان أحمد بن طولون بأنه أمير عادل كريم ، شجاع ،
تقي ، وحاكم كفء صادق الفراسة ، مترفع عن الدنيا . فقد رفض أن
يستم باقاء شمر الخليفة المنصور بعد أن عزل . وعندما أتى مصر رد
عشرة آلاف دينار أرسلها إليه كهدية القائم على حراج البلاد وبهذا اكتسب
سمعة كرجل نزيه اهل لأن يحفظ أدق الأسرار .

كان محبا للعلاء ، وقد حرص على أن يجلس مأدبة مفتوحة
لأصدقائه وزائريه ، وكان ينخصص ألف دينار للفقراء في كل شهر ،
فصلًا عما كان يتفق من نفوذ وهبات يبتغي بها مرضاة الله ، وحسنه على
نعمائه ، مثل توزيع الطعام في كل يوم على أهل المدينة . وكان يصيب
كل مسكين أربع أرغفة الثمن منها بالفالودج (عجين من النشا
والسسل) والآخران حشيا بالطعمة مختلفة . وكان التوزيع يتم في
دار ابن طولون الذي كان يشمر بمسادة حينما يرى الفقراء يتسلمون
حصصهم من الطعام . « فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » (المقرري)
وقد أطلق الكثير على تشييد عمارته بالفخرة وأنقص الضرائب ولم يلجأ

الى الابتزاز من أجل توفير المال اللازم لشئائه بل عمده الى تصحيح استقلال الأموال العامة . كان قد جاء مصر شابا في السادسة والثلاثين ، فقيرا حتى انه اضطر الى اقتراض عشرة آلاف دينار من صديق له حتى يغطي مصاريفه الاولى ، لكنه عندما مات بعد ستة عشر عاما حلف عشرة ملايين دينار في الخزانة العامة وحرسا من سبعة الى عشرة آلاف مملوك وأربعة وعشرين ألف عبد واصطبلا به ثلاثمائة جواد والوف البغال والحمير والجمال فضلا عن أسطول من مائة مركب بحري .

لقد كان قاسيا ، لكنه ، كان عادلا ، وعرف كيف يطلب الباب الناس ويكتسب احترامهم وتماثلهم . سأل أحد أتباعه يوما هل يجوز أن يمتنع صديقة لسائلة حسنة الهندام وتلبس في ألبسها حاتا من ذهب . فاجاب ابن طولون : أعط من يد لك يد . وفي عصر نفس هذا الأمير مات في السجن أو اقيم ثمانية عشر ألف نفس .



سرعان ما ضاقت دار الإمارة في مدينة الصكر بمجموع حاشيته وجيشه . ولم يكن هناك قصر مهيا عظم مساحته يكفي ابن طولون الذي كان يحتاج لمدينة كاملة شيدتها على جبل يشكر في عام ٨٧٠ م شرق القسطنطينية . وقد أمر ابن طولون بحرق الأرض التي ستقام عليها بمدينة اللطاع (أو الأوجيه) وسبب هذه التسمية أن كل طبقة أو حنسية عاشت في حي مستقل بها مثل (خيم القصر والروم والسودانيون) . وقد اختير هذا الموقع لأسباب عدة أولا : رغب ابن طولون في أن يحيا في مكان أقل رطوبة من الصكر وأكثر انماشا . فضلا عن أن هذا الموقع يسهل الدفاع عنه ضد أي عدو محتمل لقربه من جبل المقطم (ولا يجب أن ننسى أن النيل في هذا العهد كان قريبا من جبل يشكر مما أدى الى ظهور برك ومستنقعات بتلك المنطقة) . ثانيا يفسر أن ابن طولون قد تأثر بمادة الملوك الشرقيين في تجميعهم سكنى مساكن خلفاتهم وتضمينهم لبيد قصور جديدة أما ليبيروا رعاياهم ، وأما للمحافظة على جلال سلطنتهم بإبتعادهم عن رعاياهم المدنيين الذين غالبا ما تملأهم روح الثورة وبالتالي يعللوا خطرا عليهم وربما دفعه الى هذا أيضا مماثله من سكنى مساكن قوم قد أصابهم سوء الحظ . وهكذا فإن سقوط أسرة حاكمة في الشرق كان يعنى النهاية لمدينة وتأسيس أسرة حاكمة يؤدي الى بناء مدينة جديدة .



امتدت اللطاع من ميدان الرميطة في سطح المقطم حتى جامع زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلا مربعا واحدا ، على جبل المقطم بني

قصر بديع لابن طولون في الموقع الذي كانت تشغله فيه الهواء وكانت به حديقة كبيرة وحديقة للسباق (ميدان) . وأفراد فيه به مستقل للحريم . وبالمثل أقام الموطعون لهم مساكن في أماكن متفرقة وازدادت المدينة بمساكن جديدة مثل القصور والحمامات والأسواق التي تقطعها السكك والأزقة . وكان بها أسواقا عديدة سميت بأسماء لا علاقة لها في الغالب بالمنتجات التي كانت تباع فيها . فعلى سبيل المثال كان في سوق الحدادين تجار للأقمشة وضم « سوق القبايين » حرايت قصاين وفاكهيين وشواتين . وفي سوق الطماحي أقام الصرافون والخبازون والحلوانيون إلى جانب الطهاة .



كان لمدينة القطائع طابعا عسكريا شاركتها فيه مدينتي القسطنطينية والمسكر فحرائط الجامع الضخم الذي أقامه ابن طولون كانت مزودة بهرمات أضيفت عليه طابع القلعة . ويكشف تخطيط المدينة عن مشايات ابن طولون الضخمة التي كان يقطعها شارع تجاري ممتد بين الجامع والنهر والميدان . وعلى جانبي المدينة امتد طريقان كبيران متوازيان يبدأ من الميدان وسمحت الشوارع العرضية التي ربطت بينهما لرياح الشمال وللنهر بأن يدخلوا إلى كل مكان . وسرعان ما التحمت مبان القطائع بعدود القسطنطينية والمسكر واختفت حرايت البيوت القديمة التي كانت قائمة حول بركتي قارون والفيل . شيد ابن طولون جامع به هامي ٨٧٦ - ٨٧٧ م . وهو الأثر الذي وصلنا من مدينة القطائع الصغيرة ويعتبر من أهم آثار مصر الإسلامية ومعلما هاما وانشاؤه يعد بداية عصر جديد في فن العمارة . وهو يتميز بتمييزين عن الجوامع الأخرى التي كانت قد بنيت من قبل فقد بني كلية من مواد جديدة ولم يستعمل في بناء مواد جلبت من المبادئ أو الكنائس القديمة . وتظهر فيه لأول مرة المقود المدببة تدبيرا خفيا . وقد تحشت الزخارف على الجص بدلا من استعمال القوالب وتميزت بليونسة كبيرة . ويروى القريبي أن ابن طولون عثر على المال اللازم ، لبنائه في صورة كثر مخفى في جيبه المقلم وقد اعتزم ببنائه بحيث يتسع لكل أهل القطائع لأن جامع عمرو كان قد ضايق بالمصلين مدة وقت طويل . واختار موقعه على الضفة النيل الصخرى الوجود على قمة يشكر المسطحة لأنه موقع تجلب فيه القصور حيث اعتقد أن موسى النبي كان قد خاطب الله على ذلك التل .

وبجرد أن وضع الأساس صار العمل يخطولت سرية وتم البناء بعد عامين ولودى فيه الصلاة الجامعة بحصرة الأمير - وفي يادى الأمر واجهت ابن طولون مشكلة تقدير ٣٠٠ عمود من الرخام ضرورية لحمل عقود الجامع وكان لابن طولون مجلس مسيحي أو ربما قبطي (١) ، وكان قد سجن الأمر تافه . وأرسل هذا لابن طولون قائلا انه يستطيع بناء الجامع بالأعداد المطلوبة دون استخدام أعمدة على عمودى الخراب فاستدعا قورا وطلب منه أن يرسم تخطيطا للجامع الجديد ، ونسده المهندس وأعجب به ابن طولون فخلع عليه ثوب شرقي ومنحه ألف دينار لبناء الجامع . وبجرد أن اكتملت حوائطه منحه عشرة آلاف دينار أخرى وفي النهاية بلغت جملة تكلفة الجامع مائة وعشرون ألف دينار . وبدلا من الأعمدة شيدت دعائم من الحجر غطيت طبقة سميكة من الحجر شكلت بزواياها أعمدة ملتصقة .

فضل ابن طولون ألا يستخدم أعمدة في جامع له لسببين أولهما أنهم كانوا سيعلونها من كنائس قبطية مما يؤدي إلى تمسك صفو العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين ، وثانيهما أن المواد الحديدية التي اقترحها المصارى كانت أكثر مقاومة للحار إذا ما اشتعل حريق . وأخيرا يرجع بعض مؤرخي الفن الإسلامي أن ابن طولون قد قلد الأسلوب المصارى الذي كان مائلا في وطنه ، أي العراق ، حتى أنه اقتبس من الزاوية الأشورية شكل متدنته . لكن الأسطورة دائما أجمل من الحقيقة وهي تقص علينا أن ابن طولون كان دائم المباهاة بأنه لا يضح وقته أبدا فيما لا يفيد لكنه رأى في ذات يوم صمت بورقة وهو شارد الذهن وقد شكلها فاصانعه على هيئة قرطاس ، فسخر من هذا أسد أتباعه . قاله هذا ولكن ينقد ماء وجهه تظاهر بأنه كان يصنع نموذجاً للثنية الجامع الجديد وأرسل يستدعي مصاريه وأمره بأن يصنع المثنية طبقا للشكل الذي عمله بأصابه .

ولابد أن مظهر الجامع كان خلافا في لحظة افتتاحه . فلهذا كسيت الجدران بالسيفسما حتى الأفاديز . وبلطت أرضيته بالمرمر وغطيت بحجر بديمة من Samanah ومسجاجيد من الهندسة . وقد كتب الكثر أن كله يحورف ذهبية على أفرير يجرى أعلى البوائك يعلوه الفريز آخر برخارف مفرقة . قيل أنه كان مشغولا على نحو بديع بالخير :

(١) تستخدم هذه الكلمة اليوم للدلالة على مسيحي من أتباع الكنيسة المصرية .
وقد كانت في الأصل تعني مصري ويبدو أنها تترادف للكلمة دحون - كان يتاح *
لمصرية القديمة وكانت تسمى مدينة ممطس القديمة .

لها القبة التي كانت تغطي نافورة الرضوخ فقد كانت محمولة على أعمدة رخامية في وسطها تماماً توجد القبة المثبتة في حوض من الرمر الشرقي . وبين الأعمدة الصغيرة امتدت مشيكات ذهبية . وتدلّت من السقف المربع بحوم مصابيح ومباخر . أما المحراب الموجود في بيت الصلاة فقد تآلى من التدهيب وظل بروح الورد والصندل والزعفران . وكان المنبر وذلك المبلغ من الاحضاب الثمينة . وفي المساء حينما يحل ظلام الليل ترسل المصابيح البرونزية الصنعة (المتناير) حيوطاً من ضياء لا تندد الظلام تماماً الذي يمتدّش الى ظلال متناثرة على أرض الأروقة وينطلق كسحابات في فضاء الجامع متجرد المادة من أبعادها فلا يبق من الأشياء سوى ظلالها ولمعات من ألوان متفاخرة في جو تملقه رائحة البخور .

ويرى القلقسندى أن ابن طولون ، بعد أن خرج من بناء جامعهم حام ان غارا قد حبطت من السوء والتهبت الجامع الجديد دونها ان تفس ما حوله . وفسر له حكيم من الحكماء فقال « أبشر بقبول الجامع ، لأن النار كانت في الزمان الماضي اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء اخذته » ودليله قصة قابيل وهابيل .

استمر الجامع عامرا بالصلاة فترة طويلة لكنه لم ينهاية هجر . واحتترقت النافورة الرخامية وقبتها التي شجعت في قلب المسجد سنة ٩٨٦ م . وفي وقت من الأوقات اتخذ بيت الصلاة المهمل مأوى لنحجاج القادمين من أفريقيا الشمالية فاصدين مكة المكرمة ويزعم الرحالة الفارسي ناصري خسرو أن أجداد ابن طولون قد باعوا الجامع للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) بمبلغ ثلاثين ألف دينار وبعد فترة من الوقت شرعوا في حرم المئذنة ، وعندما علم الحاكم بذلك أرسل اليهم قائلاً : « ألم تبيعوني الجامع فكيف اذا تهتموه ؟ فرد الطولونيون : « نحن لم نبيع المئذنة » . فاشتراها منهم الخليفة بخمسة آلاف دينار . وهذه القصة سواء صدقت أم كذبت تظهر لنا ان هذا الجامع العظيم كان قد هجر .

لجأ الأمير لاجين الى الجامع في عام ١٢٩٦ م واختفى فيه عن عيون أعدائه . وهناك نذر أن ظل على قيد الحياة ليعمرن الجامع . وعندما صار سلطاناً وفي منبره ليتألى الجامع مرة أخرى قروناً عديدة مباحياً بفنونه .

والجامع الآن وإن حافظ على ضخامته إلا أن بهاءه قد ذبل وشاب بناؤه الهرم ولف الصمت جوانب الجامع العتيق فلا يسمع صوت الا صرخات الطيور تتردد في جساته من حين الى حين ، ساد الظلام رحابه وأروفته العديدة التي يخيل للناظر إليها ان عشرات المرايا تضاعفها .

وانقطعت فيه العبادة ولم يمهّد الصلوات تسبيح في رحاب بيت الصلاة
العتيق .



ذكرنا من قبل « الميدان » وهو ميدان واسع استخضع للتشوير
على المصارعة ودكوب الخيل وكساحة للاستعراضات العسكرية وكمان
يلهو فيه غلبة القوم بلعبة البولو وذكر المقرئ انه عندما كان يسأل
أمرئى الى أين هو ذاهب كان يجيب دائما بأنه ذاهب الى الميدان . وقد
أحاطه ابن طولون بسور فتحت فيه أبواب عدة حمل كل منها اسما خاصا
وأدى دورا محددًا . فمن « باب الميدان » كان الجيش يدخل ويخرج .
وحصن بابي « الصوالجة » و « الخاصة » للمقرئين من ابن طولون .
وقصر « باب الحريم » على النساء والخصيان . وعرف « باب الدرهم »
بهذا الاسم نسبة لاسم عبده اسود صمغ البنية كان يجلس بجواره وكان
مكلفا بتأديب من يخطئ من العبيد السود . أما « باب الساج » فقد كان
مصنوعا من خشب الساج . وسمى « باب الصلاة » بهذا الاسم لانه كان
مشيدا على الشوارع الأعظم (الطريق الرئيسي) التي كان يؤدي الى جامع
ابن طولون حيث كانت تقام الصلاة .

ولقد عرفه أيضا باسم « باب السباح » بسبب وجود أسدين من
الجبس عليه .

منه ابن طولون الطريق الواسع الذي كان يؤدي الى قصره بحائط
فتحت فيه ثلاثة أبواب متجاورة ، الأوسط منها كان مخصصا للأمير
ولم يكن لمخلوق أن يدخل منه الا يوم توزيع الصدقات اذ تفتح البوابات
الثلاث معا .

كان بالقصر قاعة « مجلس » يجلس فيها ابن طولون حينما
يستعرض جيشه أو توزع الصدقات ، حتى يشاهد من أعلى جموع الناس
التي تدخل من باب الصوالجة وتخرج من باب السباح وفوق هذا الباب
كانت توجد قاعة « مجلس » أخرى يشاهد منها ابن طولون تدريبات
وألعاب حروبه . فإن أعجبته مهارة أحدهم منحه هبة تسكنه من الميصر
والنيس طبقا لرتبته . كان هذا المرقب مكان جلوسه المفضل . وكتب
ما كان طولون يسرح بصره الى النيل والفسطاط وضواحيها التي كانت
تبدو بوضوح من هذا المكان .

كانت إحدى القاطنات مفضي قصر ابن طولون بالماء ، الذي كانت تجلبه من عين الصحراء ، بالقرب من عين الصبرة ، وكانت يوم ساء إلى علمه أن الناس يشكون من نوعية الماء فأرسل في استدعاء العالم والطبيب ابن عبد الحكيم ليحرف إذا ما كانت شكاوى الناس تستند إلى أساس صحيح أم لا - ويقول ابن عبد الحكيم : « كنت ليلة في حاري ، إذ طرقت بخادم من خدم أسعد بن طولون ، فقال لي : الأمير يسعوك ، فركبت مزرعورا مرعوبا ، فعدلت لي عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بي ؟

فقال : إلى الصحراء ، والأمير فيها .

فايقت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله في ، فاني شيخ ضعيف مسن ، فالتفتي ما يراد مني فأرجعني .

فقال : احذر أن يكون لك في الساقية قول . وسرت معه وإذا بالتنازل في الصحراء ، وأحمد بن طولون راكب على باب الساقية وبين يديه الشمع ، فركبت وسلمت عليه ، فلم يرد علي ،

فقلت : أيها الأمير إن الرسول احتني وكملني وقد عطشت . فليأذن لي الأمير في الشرب فأراد الفلماني أن يسقوني .

فقلت : أنا أخذ لنفسى . فاستقيت وهو يراني والزبدت في الشرب حتى كنت أشفق ، ثم قلت أيها الأمير ، سلاه الله من أنهار الجنة ، فلفظ أرويت وأغثيت ، لا أدرى ما أصف ، أطيب الماء في حلاته وبرده ، أم صفاه أو طيب ريح الساقية ، فنظر إلى وقال : تريدك لأمر وليس هنا وقت ، فاصرفوه .

فصرفت .

فقال لي الخادم : أصبحت .

الأم ابن طولون في المظائع مارستانا (مستشفى) في عام ٨٧٢ م أو ٨٧٤ م .



وصار محل رعاية كبيرة منه . وقد خصصه لملاج المديين وحرر على المسكرين والماليك أن يسألوا فيه . وكان موضعهم بين جامع ابن طولون وتل الجزة aljazra من ناحية وقنطرة الخليج والسور الذي يصل حانة القسطنطين من ناحية أخرى ، وأوقفت عليه هوائك دلو الديوان ومساكنه في حي الاسكافية والقيصرية وموق الصيد ، كما شيده

فيه حمامين أحدهما للرجال والآخر للسيدات ، وأوقف إيرادها على
البيمارستان أيضا .

كان على المرضى أن يخلعوا ملابسهم عند الفتحول ويسلبوها إلى
الخارج مع نقودهم ليحفظوها . ثم يلبسون ثيابا خاصة ويرقدون في أسرة
يتناولون فيها الطعام والعلاج .

ثم يقوم الأطباء بفحصهم والعناية لهم حتى يتم شفاؤهم أي تسمح
لهم حالتهم الصحية بتناول طعامه مؤلفا من حبر ودجاج - وعندئذ ترد
اليهم نقودهم وملابسهم التي كانوا قد أودعها .

اعتاد ابن طولون أن يزور المارستان يوم الجمعة من كل أسبوع
فيقلد المخازن والأطباء ويعود المرضى والمجانين . ويسمى كان يوما
يرود قسم المجانين حاطبه أسنم وكان مكينا بسلاميل ، قائلا :
« أيها الأمير اسمع كلامي ما أنا بمجنون ولكن عملت على حيلة . وفي
نفسى أن أكل وحانة عريضة أكبر ما يكون » فعل الفور أمر ابن طولون
بأن تعطى له واحدة فدخلها لجنون فرحا وإحدا يتسلى بقلعها من يد
تيد حتى أنسى لخله من ابن طولون فقلعه بها في صدره ، فانشأت
وفطخ ماؤها ثيابه فاشتد غضبه ولمس بحبس الخيل . وعند ذلك الوقت
المنتج الأمير عن زيارة المارستان .

وعطفا لرواية المقرئى فقد ثم يناؤه ، كالجامع ، من ألف دينار
وجلس الأمير في صورة كنز معها الله له مكافأة لأبطاله والتمونات ،
و « المرافق » (نوع من الضرائب) فعلمنا كان يملو ببواحه في الصحراء
تتمش جواد لحد اتباعه وانقرضت سبابة في أحد النقر ، وصمما وخسبت
الضجرة تبين أن بها مليون دينار . وفي الحقيقة يبدو أن ابن طولون قد
أحسن بقرته غامض عن إرسال الحرية السوية إلى بغداد عاصمة الخلافة
فتوفر له مالا اعترم اتفاقه في تسجيل القطاع) ويذكر المقرئى أيضا
أن ابن طولون شيد قلعة في الروضة سنة ٨٧٦ م لتكون مقبلا لرحيله
وكنوره إذا ما داهمه خطر . وأيضا للدفاع عن الممر المائي الذي فصل
البحيرة عن القسقاط ، لكن ميثابا غالبا دمرها . ويذكر الإدريسي أن
ابن طولون شيد جاسمين أحدهما في حي القرافة والآخر في البحيرة التي
شكلها فرع النيل (الروضة) ومسجد ثالث في البحيرة . وأخيرا فقد
شيد مسجد الفخور على المقطم وفي المسسكر بني « ديوان الخراج »
وضاعف من القنوات التي تمد المدينة بالماء أو تصرفه مما أدى إلى تحسين
الأحوال الصحية .

بعد وفاة ابن طولون اعتلى العرش حصارويه ثامى ابنائه اليالقم
عندهم ثلاثة وثلاثون . وكان الابن الأكبر عباس مسجوناً حينذاك علقياً
له على تمرده على أبيه ، وحتى يتجنب أى صراع فى المستقبل على العرش
قام الحاكم الجديد بخلق أخيه الذى رفض أن يبايعه . كان حصارويه
فى الحجازية والعشيرة من عمره وكان مولماً بالترف ، فبس الطيبى أن
يتوقع المرء أن يقع قرينة سهلة لشهوة السلطة فىسه استعمالها .
وبالرغم من فراه المشين أمام أحداثه اتباع الخليفة العباسى فى أول
معركة له معهم ، إلا أن حصارويه ثابت فى ثاب إلى رشده وصار ملكاً
نشطاً لم يحافظ على ملك أبيه وسبب بل استطاع فى يده سلطانه إلى
مناطق أبعد .

وفى أول سنة من عهده تعرضت مصر لزلزال دمر العديد من
المنازل وأصاب جامع عمرو والفسطاط بأضرار وراح ضحيته ألفاً من
الأرواح . وعندما تأكد من شدة قبضته على أمور البلاد انصرف إلى
تطوير القطاع ، منهم بعض منصات أبيه ليحمي بناها على نطاق أعظم
فراذ فى مساحة القصر وحول للسلطان إلى حديقة غرس فيها رهورا
والشجارات من أنواع شديدة الندرة منها سلة قصيرة يمكن لرجل واقف
إلى جوارها أن يجمع ثمارها . وعلى جدران بعض الخيل تمت أنابيب
من رصاص أحيطت بخلاف من الحساس الملعب ، وعندما كان الماء يخرج
من الأنابيب كان يغلي للمظهر أنه يخرج من بئير البخلة نفسه سقط
فى أحواض نظمت بحيث يمكن منها توزيع المياه على القنوات المهددة
التي كانت تروى الحديقة . وكان بها أحواض ريحان اعتنى البستانيون
بتسميتها عنابة فاخرة وشكلوا من الأبرار صورا من كل نوع من حروف .
ومن بين زهور الحديقة البديعة كانت الزنابق وزهر الخشخاش (١) . ومن
أجل حصارويه سميت بعض أشجار الخشخاش مع أشجار اللوز . وقد
شيد فى وسط الحديقة برج من خشب « الساج » اتخذ بيتاً لاهيور
وقد ديت جدرانه منقوش بأدلة ملونة بألوان عدة . كانت قنوات المياه
تخرق أرض الحديقة المبلطة وكانت تفتت دائماً بالماء من طريق سواق .
وفى تلك القنوات كانت الطيور تسمح وقد أسفت ماصواتها وألوانها
الحياة على تلك الحديقة الباسمة التي أخذت الطيور تجوس فى ربوعها
منها الطواويس والفجاج الفيني وطيور أخرى كثيرة الحجم .

وفى داخل القصر بنيت قاعة عرفت « بيت الذهب » كانت

جدرانها الزائفة تلمع ببريق الألوان التي اتخذت من الذهب . واللازورد ،
وعليها نقشت صورته نقشاً بارزاً مع صور لزوجاته وحوسيقى البلاط .
وقد هنت الرسوم بأناقة ومثلت الشخصيات ترتدى ثياباً من الذهب
الخالص أو عمام متقلبة بالأحجار الكريمة وفي أذانهم أقراط ثقيلة .

وأمام القصر كانت توجد بركة لامعة من الرقيق فقد شكى خماروية
لطبيبها من الارق فنصحته بالتدليك ، لكن خماروية لم يكن يحب أن يلمس
جسده ، فنصحته الطبيب بأن يحفر حوضاً ويملأه بالرقيق . فصنع حوضاً
مربعا طول ضلعه خمسون ذراعاً في كل زاوية منه حوضاً من الفضة
الخالصة . وضعت اليهم ستائر حريرية زائلة تتحرك بواسطة حلقات
من الفضة . وأمر خماروية بصناعة حاشية من الجلد ، فإذا ما دعت
وضعت على الرقيق وأطلق الستائر ونام على الحاشية التي كانت تتأرجح
مع حركات الرقيق فتساعدته تلك الهزات على النوم وصي الليلى القمرية
كان نور القمر المنعكس على سطح البركة الزئبقية ينعكس على المنظر ثوباً
سحرياً يبعده عن عالم الواقع .

وبنى في قصره بيتاً للاسود ، كان الحظيم يسمى ذريق لزيفة
هنيئة ، وكان شديد التعلق بخماروية . وكان يتمتع بحرية كاملة ، فكان
يجوز في القصر دون أن يؤذنه مغلوق وفي الليل كان يرتدى طوقاً ذهبياً
ويسهر بجوار الأمير الدائم ليعمره ، وقد ضمت بيوت الحيوانات الأخرى
سوراً وفهوداً وغيلة وذراف .



بنى خماروية حرمياً ليجمع فيه نساءه ونساء أبيه وقد خص كل
منهن مسكناً شامخاً الاتساع ، حتى أنه اتسع لايواء قائد وأتباعه عندما
سقطت الإمارة الطولونية ، وكان اللاتقي من طعام كل وجبة في القصر
عظيماً . واعتاد خدم القصر أن يبيعونه ، فإذا ما حل ضيف طابعه بمنزل
ولم يكن لدى صاحبه وقت كاف لإعداد الطعام كان يكتفي ببساطة أو
يلعب للقصر ليشترى بعضاً من بقايا المائدة .

وقد كون خمارويه حرساً عظيماً كان بعضه من رجال د الحوق ،
وهم قوم عرفوا بالشجاعة وإن اشتهوا قطع الطريق . أما باقي السراة
الحرس فكانوا آلف زنجي ، وقد تألفت زعمهم من درج جلدي ولباس
وعمامة سوداء . وكانوا إذا ما خرجوا للاستعراض مسلحين بسيفولهم
الكثير بقوا للرائي كمنهم أسود منساب تتناثر عليه لمسات بيضاء هي

حراف الكالونات (١) البيضاء التي تظهر من تحت عائلهم .

وأثناء المراكب كانوا يهرولون أولا ثم يأتي حصاروية محاطة باتباعه وكانت رعبته عظيمة حتى انه مخلوقا لم يكن ليبرز على ان يشير اليه بأصبعه أو ان يتحدث اليه أثناء سيره أو ان يحاول الاقتراب منه خشية العواقب . فاقا ما سار ساد الصمت جموع الناس فلا يسمح كلام ولا سعال أو عطس أو حتى أكل نفس . فكانهم واقفون وعلى رؤوسهم الطير .

كان صباق الخيل موصلة هنا الحصر وكان الاحتفال به عظيما كاحتفال بالميد . وقد أتى حصاروية « ميدانة » آخر أكبر من ميدان أبيه . وبين قبة في قصره تشبه قبة الهواء سماعا « الدكة » وقد زودت بأستار يمكن من طرفها التحكم في درجة حرارة الغرفة وكان من الممكن تحريكها الى أعلى أو الى أسفل . وفرضت لرمياتها بسجاجيد منقاة صنعت كل واحدة بنفس أبعاد الغرفة . وكثيرا ما كان يجلس في هذا المكان ليتأمل قصره وملبقاته وحديقته والنظر الرائع الذي يمتد أمامه .



قتل حصاروية أثناء يومه وعلى سريرته على يد بعض حطاياء وحداده ، كانت جنازته حشدا كبيرا فقد تسارعه ونساء خشمه وموظفيه في النواح والمويل ولطف بعض العبيد ملابسهم بالسواد ومزقوها . كان البكاء عظيما يرق ناطق القلوب واستمر حتى وري التراب .

أما الكتلة فكان عليهم أن يخالوا الأمم الشبرح لساعات قبل أن يموتوا على صليبهم .



وسرعان ما انكشف عجز أبناء حصاروية عن صيانة اوتهم ودخل الكائن المسمى محمد ابن سليمان القطائع غازيا على رمر جيش من جيوش خليفة بغداد في ١٠ يناير ٩٠٥ م . فذبح الحرس الاسود وأحرق أسيانهم ونهب المدينة تماما لكنه احترم جامع ابن طولون إلا انه لم يتورع عن نهب المنازل ومعاملة السكان معاملة الكفار .

وشبقة فشيء تهاوت بيوت القطائع للمائة ألف . وأجبرت القوضى

(١) نوع من الطير الراس .

والجماعة التي أصابت مصر في القرن الحادى عشر الميلادى على البقية
الباقية منها . وحتى يجسبوا الحليفة منظر تلك الأطلال المحزنة شديد
حائط من عام ١٠٧٠ م يصل بين القاهرة والقسطنطينية باب رويلة حتى
جامع عمرو . وصارت تلك الخرائب محجرا يقصده الناس بحثا عما
قد ينفعهم في تشييده بيوتهم .



عاشت الدولة الطولونية ٣٧ عاما تفتتحت خلالها القوائم بدرجة
من التواء والرفاهية ثم تشهدها مصر عند الفتح المبرى . وإذا ما كانت
المنهية التي شويها ابن طولون وجدها خساروية قد آلت وماذا فان ذكرها
عاشت طويلا في ذاكرة الأجيال التالية . وقد تبنى بضميتها الفسراء ويكوا
لهايتها المبكرة .

وقال في رثائهم الشاعر اسماعيل بن أبى حاتم .

كانوا مصايضا لدى ظلم الهوى
يسرى بها المصارعون في الادلاج
وكان لوجههم اذا ابصرتها
من نفسه يظنه لو من عاج
ويحتم رثاءه قائلا .

وعليهم ما قضيت لا ادع الجبا
مع كل في نظر وطرف عاج

القاهرة

حاصر انشاء القاهرة فترة هائل فيها العالم الاسلامي من اضطرابات عاصلة . فقد اعلنت شمس المباسيني في الخليفة بعد ان كانت قد وصلت الى ذروتها في ابان حكم هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٨ م) واستلمتها الامواج التي اثارها الصراعات المتوالية على العرش وثورات الأُمراء وأطباع الحرس التركي . وقد رأى العباسيون (أحفاد المباس عم النبي صليم) من مقدمهم في بغداد ظهور الإمرة الفاطمية المتنافسة (وهم أنسال ابنة الرسول صليم) في القيروان . ومنهجا صارت مصر محصورة وكان عليها الاجتياز بين الولاء لأسرة الماسيني الهرة والأجلة في الضيف وبين الولاء للأسرة الفاطمية المضمرة بالقوة والفتوة .

تولى المر لديم الله رابع الخلفاء الفاطميين العرش سنة ٩٥٣ م . وعلى النقيض من السلافه ثبوا مكانا في التاريخ . فلقد كان الخلفاء السابقون رجال حرب لم يدركوا لغير القوة معنى أما هو فكان رجل دولة ذا عقلية سياسية عرفت كيف ينتصر على عدوه في ميدان القتال ثم يتبع هذا بأعمال دبلوماسية تسكنه من استقلال النصر خير استقلال . وحلت بهذا الحركة الدبلوماسية المتأنية محل الصرامة الانفعالية . ولم يكن أجداده يتمتعون بمسقط كبير من الثقافة ، بل قليلا ما اهتموا بالثقافة أو بالعلوم . غير انه كان رجلا متعلما ينظم الشعر ويولج بالأدب العربي ويسرف

السلافية والافريقية واللهجة البربرية والسودانية . وجمع الى هذا فصاحة تأخذ بالآلآباب فهو قادر على أن يوقه المجلس في قلوب الناس تارة وتارة أخرى يفجر من عيونهم الدمع .

وكان شتيينا بالملك العام جوردا بماله . وأظهر حبه للعدالة ببل غايته . وكان شديدًا على قومه حتى يحفظ الأمن والاستقرار في أرضه بيد أنه أظهر ليبا ونساصًا مع المقاطعات البعيدة التي حافظت على ولائها له بذلك .

ولما كانت الرغبة تملأه في توسيع ملكه فقد كان من حسن طالعہ أن يجده شخص جوهر الذي كان عبدا من أصل صقل أو يوناني لم ارتقى الى مرتبة سكرتير الخليفة السابق وعندما اغتال المجر الأرض جعله وريثا وقائما لحيوته . ولنتوقف برهة أمام شخصية جوهر المرسس الصقلي للفاخرة .

ولد جوهر عام ٩٠٣ م في جزيرة صقلية لصلب يسمى عبد الله كليل قد اعتنق الاسلام ولا تعرف شيئا من جمه حتى اسمه . ولقي جوهر تلميذا جيدا أوربيا وعربيا معا جعله قادرا على فهم التباين الثقافي الذي سادا منطقة البحر المتوسط في هذا العهد . ونجح عن جدارة في اكتساب اعجاب المجر الذي قدر فيه مواهبه وعلمه . وعين وريثا في عام ٩٥٨ م لم قائدا للقواد . ونفذ برنامجا باهر العديد من المهام الصعبة . وبذلك أظهر جوهر نفسه كصاحب عظيم ودبلوماسي كفء وإداري ناجح وأخيرا كرئيس عادل ورحيم . وقد كلف في عام ٩٥٨ م بتهدئة شمال غرب إفريقيا فغادر القيروان وقاد جيشه المظفر حتى وصل الى ساحل الأطلسي وهناك حلا اناء بأسماء حجة وأرسلها الى الخليفة كدلالة على أن امبراطورته تمتد الى ساحل المحيط .

وكما ان أهم أعمال المجر لدين الله كان غزو مصر . كان تأسيس الفاخرة أهم أعمال جوهر الصقلي . كان الفارق شاسعا بين إفريقيا الشمالية بعضها الواسعة الجرداء وقبائلها المتخلفة دائما للتورة وبين سهول مصر الواسعة الغنية وشعبها الطيب المحب للسلام الذي لا ينجح لتطيط ملك قوى مقسم بالعيوية والطوح .

ويرى المجرى حكاية تصير عن الرأي السالح لاهل القيروان من المصريين حينذاك . أرسل أحد الفخارية جارية الى مصر لتباع بألف دينار . قامت سيده وسأومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشتريتها بستمائة دينار . وكانت السيدة ابنة الأسبند محمد بن طنج ملك مصر حينذاك .

وعندما عاد التاجر الى وطنه روى الحكاية للنمر الذي أرسل في استدعاء الشيوخ وأمر التاجر برواية الحكاية مرة أخرى . وعندئذ صاح : « يا اخواننا انهضوا الى مصر ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء . فإني أظن انهم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تفرج بنفسها وتشرب جريه لتتمتع بها وما هذا الا من تحبط نفوس رجائهم وذهب غريتهم فانهمضوا لسرقاتهم » . فاجاب الشيوخ : « سمعنا وطاعة » . واعدلوا على استعدادهم للانضمام الى جيوش الخليفة التي تقصد مصر لغزوها ولقد عامين اعد المر في تجهيز حملته . حضرت الآبار وشيدت استراحات للجيش على طول الطريق من القيروان الى الاسكندرية . وفي مصر مهتت الطريق للمحلة دهابة للقيصيين والملاويين . وقد جلت سياسة التسرب تمارها فقد وجدت نفود الثورة التي بذرها الفاطميون في ارض مصر التي اصلها الباسيون ارضا خصبة قوية وامتلئت فيها جنودها .

بعد وفاة كافور العظيم تولى العرش طفل . وقد كره رعاياه ، الذين كانوا دائما عرضة للاعتقال والمصادرة ، وذيرة ابن الفرات . وفي عام ٩٦٧ م كان فيضان النيل شديدا مما أدى الى مجاعة اعقمتها الوباء . ثم اضيف لكل تلك المصائب هجوم الفتران والجراد . قاتل في الفسطاط وضواحيها اكثر من ستمائة الف رجل . وبغلا عن هذا أخذ القرامطة في مهاجمة القوافل وعاث النوبيون فسادا في اسوان فهاجر الناس وقد ملأهم اليأس الى البلاد المجاورة .

وقد فر من مظالم ابن الفرات يهودى اعتنق الاسلام هو يعقوب ابن كلث الذي كان صاحب حظوة لدى كافور في السابق . وقد لجأ الى بلاط المر وأمنه بكتير من المعلومات النافعة عن مصر . جميع المر جيشا كبيرا ودعيت القبائل المبرية الى الانضمام تحت لواء المر . وقد حمل الجيش معه ٢٤ مليون دينار وقررت عطايا قيمة بين الجنود . غادر جوهر القيروان في فبراير عام ٩٦٩ م على رأس جيش بلغ تعداده مائة الف مقاتل مجهزين بخير عتد وصحبتهم الف رجل وعدد لا يحصى من الخيول التي حملت بالفضة والذئب والخنزير وقد استعز بهم الخليفة بنفسه وعندئذ قبل القائد يد الخليفة وجازى جواده ثم مر الاسراء والكادة وعليه القوم في صفوف سائرين على اقنابهم ايام جوهر الذي خلج عليه الخليفة يردته وحصلته تصيرا عن حظوة جوهر الفائقة لديه .

ولم ياق جيش المر سوى مناوشات بسيطة عندما وصل الى مصر ويروى لاصري خسرو اسطورة تحكى ان الفاتر كانوا يخشون عبور

الليل الذى كان يبعج بالتامسح . لكن المر طمانهم وتسا لهم بأنهم
سيرون كلبا أسودا سيقتودهم الى ضعة الليل وسيرهم الطريق الذى عليهم
اتباعه . وجرت الأمور كما تنبأ الخليفة وتمضى الاسطورة راعية ان
الجيش بأكمله قد عبر النيل دونما أن يفرق عارس واحد وان يلتهم
تمساح جنديا .

واستسلمت لمخليفة السكان حوى قتال ، أما مراكز المقاومة المدورة
فقد صفيت بسرعة وقد رغب أهل القسطنط في سحب لحوال القتال
ولذا قطعوا رؤوس بعض من قاوموا الفاطميين وارسلوها الى جوهر الذى
أرسلها بدوره الى المر ثم أرسل رسولا يحمل راية بيضاء وأحد الرسول
يطوف بشوارع القسطنط صاديا بالأمان ويمنع السلب . وفي اليوم التالى
الخامس من أغسطس ٩٦٩ م دخل الجيش الفاطمى القسطنط رافعا
رايته ودافا طبوله . وتوجه جوهر الصقلى مرتديا ثوبا من الحرير
مطرا بالنسب الى جامع عمرو على صهوة جواده النسي وقد غطى سرجه
بقماش مصرى . وهناك التقى الامام وهو متشح بالبياض حطبة في المسلم
باسم الخليفة الجديد المر لدين الله الفاطمى وترجم على أجداده قاطنة
وعلى . ثم خرجت هيئة شعبية ولها لفة العباسيون مصر الى الأبد وانتقلت
السيادة الى الفاطميين لفة قريبه من الزمان . وبعد ان مر جوهر بالقسطنط
استمر استمرارى القوات الافريقية لمدة سبعة ايام ثم استتب الهدوء
سرعا . وملاّت خيام الجند الأرض الرملية التى تحف بالمدينة وفتحت
الأسواق أبوابها وأخذ الفزاة في شراء البضائع المصرية الجيدة .



كان للفزوا الفاطمى عواقب هامة لمصر . فلفقه اعتبر السفيون
الفاطميون حواشقة وعصمت باقى اجراء المالم الاسلامى الى تجديهم .
لذا فلفقه اسرعت الكساهرة فكريا عن الفسك والأدب العربى اللذين
اردهرا في القرنين الحادى والثانى عشر . وتجنب العلماء الكبار والطلاب
جوامع القاهرة حيث تفرّد دعاوى الفاطميين . وخلال تلك الفترة لم يكن
لمصر أن تجتني قلما علميا من أوروبا التى لم يكن لديها في ذلك الوقت
ما تقامه مصر . واذا ما كانت تلك الفترة قد شيدت ضعفا ثقافيا الا أن
مصر ارتقت الى درجة من اثراء المادى لم تجاوزه أبدا في أى من القرون
التالية . واذا ما كانت المنازل والمساحد والتصور الفاطمية قليلة العدد
نمسيا الا أن ثراء وحارفا التى اسرف في استخدام الذهب والاحجار
الكريمة بها أن يلائى أبدا في الصور اللاحقة .

أدى قيام الدولة الفاطمية الى تغيير كبير في أوضاع المسيحيين في

عصر فقد حاول الحلفاء الفاطميون استيلاء الأقباط اليهم ، وعاملوهم
بمناية وتسامح كبير وهذا يعبر العدد الكبير من الكنائس التي شيدت
في ذلك العهد . فقد صرح المعز للطبريرك الفرائم (١) بتجديد كنيسة
القديس مرقوريوس (أبو السيفي) (٢) وإعادة بناء الكنيسة المحيطة .
وعندما أراد بعض غلاة المتعصبين إيقاف العمل ، ذهب المعز بنفسه إلى
المنطقة وأمر بوضع الأساس في حضرته وبعد هذا تم البناء في سلام .

ويظهر نص مسموح إلى الكاتب الأرماني أبي صالبح سبب اهتمام
المعزير (ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر) بأمر الأقباط : فهو يمزو هذا
إلى معجزة تست على يد البطريرك القبطي الذي أراد أن يظهر للتخليقة
عندى صديق العقيدة المسيحية فندعا الرب أن يصنع معجزة تثبت بها صحة
ما ورد في الإنجيل بأن الإيمان يمكن أن يحرك الجبال وتحقق المعجزة
بمحرك جرد من جبل المقطم بالقرب من تل الكباش .

وقد تزوج المعز من مسيحية وكان واحد من صهره بطبريركا
ملكانيا (الروم الأرثوذكس) وعين في منصب الوزارة يهودا ومسيحيين
اعتنقوا الاسلام . وأولع الكثير من الخلفاء الفاطميين بزيارة الكنائس
والأديرة القبطية .

كيف كانت تبدو المنطقة التي قدر للمقاهرة أن تشيد عليها ؟ كان
هناك طريق يمتدق المنطقة طولياً ويربط بين الفسطاط الواقعة في
الجنوب وعين شمس في الشمال وإلى الشرق كانت هناك قناة عرفت
باسم خليج « البحاميم » al-Bahamim (١) وقد ظهرت في تاريخ
لاحق . وإلى الغرب امتدت قناة خليج أمير المؤمنين . وإلى الشمال القرقي
بمنتصب الجبل الأحمر وبنيته من حجر الكوارتزيت ذي لون متفاوت
الدرجات من الحمار والصفار والأزرق .

وكان بتلك المنطقة بعض المنشآت : مثل الحديقة العلوية باسم
حديقة كافور التي شيدها الأمير محمد بن طنج الأشيد والعق بها
استبيلات وحلة للخيول وقد لاصمت أطراف الحديقة خليج أمير المؤمنين .

(١) يقال إن جدرانها على في الكنيسة لمصلحة تحت منبرها .

(٢) قديس مسيحي عاش في القرن الثالث الميلادي وكان شايخاً في الجيش الروماني
وقيل إن ملاك الرب تولى له قبل أن يغزو أسد طبرك وأصله سيافاً وأمره أن يلازم
الله لما من عليه بالنصر وقد كان . وعندما عاد وطنه أن يحرق السخور الآلة روما
لفرض عليه وحل ثم طغت رأسه .

(٣) خليج كان يفصل بين السهل الذي بنيت عليه القاهرة وقرية أم دنيا (القس
فيها بعد) .

وكان هناك أيضا « دير العظام » وهو دير قبلي مسمى بهذا الاسم لأنه كان يضم عظام بعض من تلاميذ المسيح . وكان بالمنطقة أيضا قلعة بدائية احتلتها قبيلة بنو عذرة وكانت تعرف باسم « قصر الشوك » .

وكان هناك أيضا مملكة مسيحية في عام ٧٦٢ م بين خليج أمير المؤمنين والجبل ، وقد أقيم على البقعة التي دفن فيها رأس « إبراهيم » حفيد « أبو طالب » زوج أخت رسول الله صلعم . وقد حبل هنا للمسيح الكثير من الأسماء آخرها « مسيحه كبر » نسبة إلى الأمير « نبر الأخشيده » الذي دفن فيه .

والى الغرب بين خليج أمير المؤمنين وبين النيل الفى لم يكن بعيدا عنه في ذلك الوقت امتدت مناطق يافطة . وقد مررت تلك المنطقة بالحراء كما ذكرنا من قبل . وانقسمت الى ثلاث مناطق من الجنوب الى الشمال . الحراء الدنية والوسطى والقصوى . والأخيرة تقع الى جوار جبل يسكر الذي شيده عليه جامع ابن طولون . ثم يواصل النيل مجراه حتى قرية أم دنس ويحاذي منطقة سميت اثناء حكم الخليفة المستنصر « بأرض الطبانة » تكريما لراقصة كانت قد تطلعت بعض الأبيات في تمجيد أحد الانتصارات على العباسيين ، وقد منحها الخليفة تلك الأرض كمكافأة على تلك الأبيات . ثم يتجه النهر الى « أرض البصل حيث امتدت عمليا للأصينغ حتى يصل الى « عمية السبرج » .



في الجزء الجنوبي لتلك المنطقة نصب الجيش المغربي خيامه في سنة ٩٦٩ م وعندئذ بدأ العمل بعباسية في تشييد عاصمة جديدة . وطبقا لتعليمات الخليفة الموحدة كان على جوهر الخياط بين ثلاث مناطق الأولى : أن يخطط ابن طولون ويشيد المدينة الجديدة على الأرض الرملية الجافة الواقعة الى الشمال . بين خليج أمير المؤمنين والعظم . والثانية شاطئ النيل الذي سيضمن للمدينة الحصول على الماء باستمرار فضلا عن استخدامه كطريق للنقل التجارى عليه ميناء مزدهم بالمراكب . والثالثة . جبل الرصه الفى يجمع الى الزايا المساق ذكرها ارتفاعه الذى يحوى المدينة من مياه الفيضان ، وقربه من النيل الذى يضمن إمدادات المياه فضلا عن الفوائد المادية التى ستجنيها مدينة مشيدة فوقه من النقل النهري . وبفضل جوهر الموقع الأول ، وطبقا للقنقشدى فقد رويته الخليفة المزم على هذه الاختيار لبعد الموقع عن النهر مصدر المياه .

وقد أوضح القرطبي أن جوهر كان يريد تشبيه قلعة تعصى المفسطاط من غارات القرامطة لا مدينة تومر حياطة هائلة لسكانها . وارتبطت ببهاء تلك المدينة أسطورة كما حدث للمفسطاط من قبل وقد قيل أن جوهر اختار موقع المدينة الجديدة على بعد ميل تقريبا من النهر في الليلة طسها إلى تعصب فيها معسكره قرب المفسطاط . ورسم على الموضع مربع طول ضلعه ٣٦٠ مترا وغرست على طول محيطه أعمدة متصلة ببعضها البعض لعلها أجراس . وكان على الفلكيين ، أن يجتسوا ليحددوا لحظة مناسبة لهذه العمل أي حينما يظهر في السماء كوكب ذو فال حسن . وفي تلك اللحظة كان على الفلكيين أن يهزوا الحبال حتى تدق الأجراس وبدأ تعطي إشارة لبدء العمل في كل أرجاء المدينة . وبينما هم ينتظرون إذا بفرابي يحط على أحد الحبال فتدق الأجراس ، فيظن الحبال أنها الإشارة فيشرعون في العمل بينما أخلت صرخت فرح تنطلق من الفلكيين فقد كان كوكب المريخ صاعدا في الفلك وظهوره في تلك اللحظة الخرجة كان يعني أن المدينة ستستعيد لأل المريخ كان قاهر الفلك . ولما كان مستحيل الرجوع فيما قد تم أو تغيير إرادة السماء فقد قرر أن تسمى المدينة بالنصورية حتى يتغير الفأل السيء لصالح المدينة . لكن المزعج غير هذا الاسم إلى قاهرة المزعج على اسم نفس الكوكب الذي ظهر في السماء لحظة بنائها .

وفي رواية أخرى كان المزعج قد اختار اسم المدينة الجديدة القاهرة وهو ما يزال في القيدوان قبل أن يرسل جيشه لغزو مصر .

وبما كان أصل الاسم فقد رأى الفلكيون أنه اسم على غير مسمى وأعلنوا أن المدينة ستسقط في يوم ما تحت ضربات شاذى من تركيا - الأرض التي يحكمها كوكب القاهرة (كوكب الحرب) . وبعد خمسة قرون من هذا التاريخ استولى السلطان سليم الثاني على المدينة في عام ١٥١٧ .



كان في ذهن ميمارى القاهرة حقيقتان سياسيتان . أن الفاطميين شعبيون يحيط بهم في مصر شعب سني . وأنهم أعداء للصليبيين سادة خراسان والعراق وأرض بلاد النهرين ولذا فلا بد أن تتنافس دامتهم بغداد العظيمة وأن تليق بقوة عظيمة من دول حوض البحر المتوسط ، لا أن تكون مجرد عاصمة لولاية . ولذا كان لابد للمدينة الجديدة من أن تكون محصنة تحصينا يكفل الحماية للخليقة المقيم بها ضد أي تسرد محتمل وأن تكون لافتة بتمكنك حاكم عظيم ، ولذا فلم يدخر وسعا في تجميلها .

لقد بنيت تلك المدينة ليكنها الغزاة المنتصرون لا وعيائهم ولذا
 فقد كانت القاهرة هي ذلك مصر مدينة اوستقراطية للمخاصمة تذكرنا
 بالمدينة الامبراطورية في بكين ثم الكرملين في موسكو . وشيئا فشيئا
 اتحدت مظهر مدينة مصرية : فقد كان على من يريد ان يدخلها ان يذكر
 سببا قويا وان يحصل تصريحاً ، ولنا عيسى من الغرب ان تدعى
 « القاهرة المجرومة » ويدون تصريح كان من المستحيل ان تسلمها شحنة
 من خشب او حتى من قش ، وكان على السفراء الاجانب ان يمروا بين
 صفوف الحرس اذا دخلوها ، كما كان على الفارس ان يترجل عن جواده
 عندما يستل من باب القسطنطين ، وعلى هذا الباب كان الورداء المفضوب
 عليهم يلقون منظرين ان يتخطى مولاهم يسمح لهم بالمرور امامه .
 وعند تنويع الخليفة كان النبلاء يسعون خلف الخليفة على اقدامهم حتى
 باب زويلة وباب الفتوح . وقد عاش هذا التقليد في احتفال المحفل
 عندما كانت مصر ترسل الى مكة المكرمة سفرا جديدة للكمية في كل عام
 محمولة على جمل ، وكانت المدينة كلها يمانها وأرضها الفضاء ملكا
 للخليفة يؤجر فيها الماني ويسج الأرض الفضاة حصصا لجنوده .
 وكان الخليفة ورجال بلاطه هم المستهلكون الوحيدون للبضائع التي
 تعرضها أسواق ومقابر المدينة .

ويقول ماصري خسرو القى دار مصر بين ١٠٤٦ - ١٠٤٩ م ان
 القاهرة واحدة من اكبر مدن العالم ، وبها مالا يقل من عشرين ألف متجرا
 مملوكة للخليفة ، وبها أيضا خانات وحمامات ومبان عامة أخرى ، كثيرة
 العدد حتى ان مؤرخنا يصح عن حصرها .

وقد شيدت القسطنطين والمسكر حول جامع كرسا لعبادة الله ،
 أما القاهرة فقد التفت حول قصر ، هو مقر للخليفة . وبينما كان نمو
 كلا من المسكر والقسطنطين اطراديا كقصص وضع في منجم لنمط فأنهت
 تكسوه تدريجيا بلورات لامعة فحولته في النهاية الى جوهرة يدعة ،
 كانت القاهرة تحفة فنية شكلها صائغ ماهر في أيام ثم وضعت كما لو
 كانت توضع في صينية ومط السهل الذي « ينحصر بين النيل والقلم » .



كانت للمدينة شخصية ميزتها عن المدن العربية الأخرى التي تتقاطع
 شوارعها الضيقة الكثيرة مكونة شبكة متعرجة ، فخلد بنيت القاهرة وفق
 تخطيط هندسي مابق لانشائها جعل لشوارعها انتظاما مقبولا وقد خطط
 منها جوهر ينقسمه سبع شوارع . وقد اخترقها من الشمال الى الجنوب

شارع كبير حتى لا يعجب انسام ربح الشمال المعشاة ، وقد اقيم بشكل هادئ
اتجاه الطريق التاريخي الذي سلكه الفزاة الذين هاجموا مصر بين حين
 وآخر . وقد حافظ شوارع النحاسين الحالي على خط هذا الشارع
القديم تقريبا .

وكان هذا الشارع (بين القصرين أو قسبة القاهرة) يفصل بين
قصرين كبيرين . وفي تلك المنطقة يزداد اتساعه الى ١٥ متر مكونا ميدانا
كبيرا مستطيل الشكل (رحبة بين القصرين) . وتصادم على هذا الشارع
أرقة صغيرة تمتد من الشرق الى الغرب وتؤدي الى قنطرة الخليج والناس .
وقد ذى الشارع الرئيسى مخصصا للنواكب الهامة وترك للطرق الأخرى
الوفاء بالاحتياجات المادية . وعبر قسبة القاهرة كان السلطان يمر محاطا
بالخصيان الذين يحملون في أيديهم سجارا يحترق فيها العنبر والصبر .
وكان البروتوكول يحتم على الناس ان يسجدوا على الأرض لحظة مرور
الخليفة داعين له الله بالخير . إما هي القوارع الجانبية فقد كانت تمر
فيها عربات محملة بالأحطاب أو الأحجار أو الماء أو البضائع المفرغة في
ميناء الناس .

وقد شيدت المنازل بمثابة نافذة حتى ليخال الى الرائي انها قد
شيدت من أحجار كريمة لا من ملاط وقرميد وأحجار عادية وكانت منازلها
منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى ان الأشجار المزروعة في واحدة منها
لا تلامس أغصانها المنزل الآخر وكل منها مرودة بحديقة أجملها يحيط
قصر الخليفة .

ومن كتاب ناصرى خسرو اقتبس الفقرة التالية التي تظهر مدى
أهمية الحدائق في مدينة القاهرة في ذلك الوقت . « من أهم خصائص
مصر ان من يريد ان يعمل حديقة يمكنه ان يحقق رفعتها في أى فصل من
فصول السنة . فمن اليسر هناك حل للزراعة ان يزرع أو يحصل على نبات
سواه كان أشجار للزينة أو أشجار فاكهة محملة بالثمار . فهناك اناس
يهاضون هذا النوع من التجارة وهم على استعداد دائم لتوريد أى صنف
ولديهم أشجار مزروعة في برميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم
التي تشبه الحدائق . وهي أشجار في الغالب مغطاة بالأكمام من البرتقال
السكرى أو الجلبى أو الرمان أو التفاح أو السفرجل ولديهم أيضا مشاتل
للورود الرياحين والنباتات العطرية . فإذا ما رغب انسان في شئ منها
أتى العاملون لنقل الصناديق الخشبية التي زودت فيها الأشجار ، وتربط
الصناديق الى قوائم خشبية يحملها العمالون الذين ينقلونها الى المكان

المطلوب • وبعد أن تفرغ المصداق من محتوياتها تزود الأشجار التي تم يلقح بها أدنى ضرر • ولم تشهد لهذا شيئا في أي بلد في العالم ولم أسمع بهذا في أي مكان آخر ولا بد أن أضيف أنها عادة لطيفة جدا •

وكانت السواقي ترخ الماء اللازم لتلك الحدائق • وعلى الأسطح زرعت الأشجار وبنت جواسق •

أما الماء اللازم للمدينة فقد كان يجلبه السقاؤون من النيل • وروى عاصري حسمو أنه قد كان ينقل على ظهر ٥٢ ألف جمل خصصت لهذا المرض • وبالطبع فقد يالغ كثيرا في هذا الرقم وإن كان على أية حال يدل على مدى ضخامة هذه المهمة في المصور الوسطي •

(وروعت المدينة أيضا آبار خرت بالقرب من النيل بلقاء الصب لتس ماؤها كان يتحول إلى ملح كلما بلغت المسافة عن شاطئ النهر) •

كان السقاء يحمل الماء على ظهره في إباء من الفخار المسامي وكان القادري يدفعون ثمتا مقابل أكواب الماء أما الفقراء فكانوا يشربون مجانا أو مقابل قطعة من الخبز يصفونها السقا في جراب معلق على جانبه • ولتشجيع هذا العمل النبيل سمح للسائقين بأخذ ثلثاء درهم مقابل من الأسيلة (وهي حرانات ماء شبيهة الأثرية وحرصوا على ترويضها دائما بأداء الملب) فضلا عن أنهم كفروا في دفع الضرائب • وفي المواسم كان الاتقياء يستأجرون السائقين لتوزيع الماء مجانا على الحجاج وعلى من يريد الشرب •

ولابد أن منازل القاهرة الفارقة في الخطة كانت تزلف مجموعة بمدينة منتفاه • وكان من الممكن للمدينة - لولا وجود الصارات العالية - أن يكون لها شكل من الحدائق المنتشرة في أوروبا الآن • وإلى الجنوب خارج الأسوار كانت توجد بركة القليل التي سميت على اسم واحد من اتباع ابن طولون • وعلى مياهها كان الخليفة مولع بالترفيه في قاربه ولا بد أن المشهد كان ساحرا حينما كانت الجواسق التي تعج بها تضاء وقد نظم فيها الشاعر ابن سميد المشرقي قصيدة يقول فيها -

انقصر إلى بركة الفيصل التي اكتنفت

بها للتأخر كالأهـدب للبحر

كأنما هي والأبصار تجمتها

كواكب قبل أنفروها على القصر

وقد بنى جوهر في شمال القاهرة ديرا للأقطاع مكان الدير الذي هدمه عندما شرع في بناء القاهرة . ويقع بالقرب من جامع الأقصر وكان يعرف بدير العظام وكان به بئرا ما زال موجودا جلب الناجع الى وقتنا هذا ، وقد نقل جوهر رفات القديسين التي كانت محفوظة في هذا الدير الى دير بني حنانيا هو دير الخنثى .



أحاط المدينة الجديدة سور من اللس يملؤه طريق دائري يتسع لمرور فارسيين ومن الصعب تتبع آثار هذا السور على وجه دقيق فلم يكن منظم البناء وكانت أصلاغة تقريبا موجهة الى الجهات الأصلية . وفي السور الذي كان يصل المدينة عن القطائع والمسك فتح بابين متقاربي هما « بابا رويلة » وكانا واقعين الى الشمال قليلا من الباب الحالى الذي يحمل نفس الاسم وهو اسم قديمة من البربر أتت مع جوهر وعندما جاء المعز من القيروان سنة ٩٧٢ م دخل المدينة من الباب الأيمن فتدافع الناس للدخول من الباب الأيسر ليلحقوا به . وقد أدى هذا الى اشاعة أن الباب الثانى مشغوم ويقسمه مشابيح من يعمره ، بينما أخذ الاعتقاد يرسخ في سمع طالع الباب الأول . وقد قيل أن مفصلات خشبتي الباب اتخذت من الزجاج وكان باب رويلة مسجحا لتنفيذ أحكام الإعدام المعنى مما ساعد على تدعيم السمعة السيئة للباب الأيسر . فضلا عن وجود سوق لألات الموسيقى كالعود والرياب ... الخ ، التي كرهها الدين .

قصار هذا المكان مخصصا للمقيمين وللرافضين وهم قوم سيئو السمعة . واشتد نظاير الناس من هذا الباب حتى انتهى الأمر الى سده تماما .

أما حائط المدينة الشمالى الموار للحائط السابق فكان به بابان هما « باب الفتوح » و « باب النصر » . وقد شيدتها مسماريون من « الرها » (وكان يقعا الى الجنوب من البابين الحاليين اللذين يحملان نفس الاسم) . وفتح في الحائط الغربى ثلاثة أبواب باب سمادة و « باب الفرج » و « باب المنطرة » ، وبالقرب منه كانت توجد قنطرة على الخليج تربط المدينة بصواحيها وبنينا المنس وأم دنيا (الأربكة الحالية) والمطقة الواقعة شمالها وكان بالحائط الشرقى بابين باب البرقية و « باب المحروق » وأقام جوهر قنطرة على النبل تربط البحيرة بالضفة الشرقية . وحفر حديقا في عام ٩٧١ الى الشمال من القاهرة قرب « منية الاصبح » عرضه عشرة أذرع ومثلها عمقه . وكان يمتد من الصحراء الى الأرض الزراعية وقد سخر لحماية المدينة من غارات القرامطة المتواصلة .

وقد تمت المساحة المربعة التي أحاطها السور بـ ١٤٠ هكتارا • وكان طول كل جانب من جوانبها يتراوح ما بين ١١٠٠ و ١٢٠٠ مترا وهي أبعاد القسطنطين والمعسكر لكن تخطيط القاهرة كان أعظم وأكثر تماثلا • وقد أحسن تخطيطها فأخرج تحفة فنية قبض لها أن تعيش أطول مما بلغت عمارات المباسين وابن طولون للمصنعة •

لكن أهم أحداث تلك الفترة كان إنشاء الجامع الأزهر الذي استغرق بناؤه سنتين وقد بدأ فيه العمل في ٢ إبريل سنة ٩٧٢ م في المنطقة المجاورة لقصر الخبز • ويرجع الفضل في إنشاءه إلى يعقوب بن كلس وكان في الأصل يهوديا ثم اعتنق للإسلام • وقد كان يدعى هذا الجامع أحيانا جامع القاهرة وقد حرف الرحالة الأوربيون اسمه إلى Gamalizer وترجموه « منزل لارار » وقد لعب جامع الأزهر في المدينة الجديدة نفس الدور الذي لعبه جامع عمرو في القسطنطين وجامع ابن طولون في الطائفة لكل منهم كان مركزا دينيا لمدينته • وفيهم كانت تؤدى صلاة الجمعة ويحلب فيهم الخليفة في جموع المصلين • وفي عام ٩٩٠ م بنى الجامع الأنور (فيما بعد الحاكم) على الطرف الشمالي لمدينة القاهرة وقد تمتع هذا الجامع بنفس امتيازات الجامع الأزهر •

ويرى الجامع الأزهر - أشهر جوامع العالم الإسلامي - ٣٨٠ عمودا تغطي عليه سموقا ترى أوصافاته في جامع ابن طولون • وقد احتفظ صحنه بالشكل المربع الذي رآه عليه الخبز عام ٩٧٣ م عندما دخله حاملا رفات أجداده • وصل فيه عليهم • ثم اتجه إلى قصره يسبله موكبا من حرسه وأربع من أبنائه وفيلس • وعلى من الزمان تغيرت هيئة الجامع حتى وصلت لما هي عليه الآن • لقد عهد الكثير من الملوك خاصة الفاطميون منهم إلى توسيعه وإثرائه بالهبات أو بالأصناف المصارفية • وحتى يجهل متى تمت عملية صفه المنخفض ، لكن يحتمل أن العزيز نزار (٩٧٦ - ٩٩٦) هو الذي أنشأ الأيوبيين الجائدين (الشمالي والجنوبي) الدنان خسا ثلاثة بوابك على كل جانب وأدخل الحاكم يأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) عليه تحسينات في هذا العهد اتخذ المصحف الأوسط شكله النهائي كلفاء تحيط به بوابك ذات عقود فارسية • وكان الأمر كذلك بالنسبة لبني الصلابة الذي تألف من خمس بلاطات موازية لحائط القلعة • وقد بنى الجامع من القرميد وجصعت جدرانها التي تركت في بعض المواضع حارية من الرخفة وفي مواضع أخرى حفر الزخارف على الجص • وتحمل عقود الجامع أعمدة رشيقة جلبت من عمار أخرى •

لعب الأزهر دورا هاما في السياسة والتمتاع الفاطمية بسبب

نشاطه التعليمي . ولذا قامى الأزهر أثناء حركة الردة الى المذهب السنى
اتساء حكم الأسرة الأيوبية التى حكمت مصر ابتداء من عام ١١٧١ -
١١٧٢ م فتعرضت للأعمال ميانيه وانتزع صلاح الدين بعض زخارفه مثل
الطوق الذى كان يربى محرابه ومنع فيه النطقة واقتصرمت صلاة
الجمعة فى القاهرة على جامع الحاكم .

لكن الحال تغيرت تحت حكم للماليك ، فقد ساء الأمير ايلمر الحل
الذى كان يسكن بالقرب منه ما آل اليه الجامع فقرر إصلاحه على نفقته
بمساعدة السلطان الظاهر بيبرس الذى سمح بإعادة الخطبة اليه .

وبين عامى ١٣٠٢ - ١٣٠٣ م أصيب الجامع بأضرار نتيجة لرزال
وأصلحه الأمير سلاز .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى أصلح الجامع واستخدم الرخام بغير
حصيل فى محراب ، لكن هذا الإصلاح لم يؤرخ على وجه التحديد . أما
محاريب المدارس الثلاث التى أضيفت فى العصر المملوكى خارجة ثم الحلت
به فقد جملت بالرخام على نحو رائع .

وأولها مدرسة الأمير طبرس ، وبنيت بين عامى ١٣٠٩ - ١٣١٠م
والثانية مدرسة الأمير ألبا عبد الواحد ، بين عامى ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م ،
وتنهضا على يمين وشمال الداخل من الباب البحرى . أما للمدرسة الرائعة
الثالثة فقد شيدها الحسى جوهر القليباي ودلفن بها (١٤٤٠ -
١٤٤١ م) . ثم حدث أن مالت إحدى المآذن على نحو خطير فهضمت وأعيد
بناؤها ثلاث مرات (١٣٩٧ - ١٤١٤ / ١٤١٥ - ١٤٢٣ / ١٤٢٤م)
وفى عام ١٤٢٣ - ١٤٢٤ م بنى صهرنج فى وسط الصحن به مئذنة
وقد فشلت محاولة لزور أريسة أشجار فيه . واهتم بساتنه السلطان
قايتباي فأعاد تشييد الباب البحرى على نحو بديع وأضاف اليه مئذنة
وأمر بإصلاحه أصلاحا شاملا . ثم أقام السلطان الفورى مئذنة من طراز
فريد فى عام ١٥١٠ م وازدادت مساحة الجامع مرة أخرى فى القرن
السابع عشر وأصبح الجامعة الوحيدة للدراسات الدينية فى مصر .

ونفذ عبد الرحمن ككتخلا أو ككتيا (الذى مات فى ١٧٧٦ م ودلفن
فى جامع الأزهر) أعمال عدة فيه مثل بناء محراب واقامة منبر جديد
وصهرنج ومدرسة للأطفال .

ونفذ مرة أخرى الشديوى توفيق وعباس حلى الثانى ترميمات
حامة فهضمت مئذنة عبد الرحمن ككتخلا وأقيم مكانها الرواق الساسى الذى
افتتح فى عام ١٨٩٨ م .

وفي عام ١٩٣٠ م تفرعت منه ثلاث كليات للتعليم العالي اتخذت لها مقارا منفصلة في القاهرة ، لكنها سرعان ما انتقلت الى مباني حديثة شيدت خلف الجامع الأزهر وصار الطلاب يجلسون على مقاعد وقماطير في صفوف ، وقد روجت أيضا تلك المنشآت بمعامل لاجراء التجارب العلمية . وبين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ م شيد مبني الخدمات العامة في ميدان الأزهر الى شمال الجامع أما في الساحة القبليّة للأزهر فقد أقيمت ثلاث صالٍ أخرى ذات أربع طوابق للتعليم الأزهرى الابتدائي والثانوي وللخدمات الصحية مرودة بمستشفى . وفي عام ١٩٥٠ وعلى الساحة القبليّة أيضا امتنعت جامعة ذات أربعة آلاف غرفة ومتدة عالية . وافتتحت أيضا كلية (الشريعة) . وبميت كلية اللغة العربية في عام ١٩٥١ م . وحفمت المنازل القديمة في الجانب الشرقي لبناى كلية أصول الدين .

وتوجد مكتبة الأزهر التى تضم بين كدبها عشرين ألف مخطوط في داخل المدرسة الاقباطية . وقد بنيت مدينة جامعية لايواء الطلبة الأجانب في ميدان « الفخير » سابقا في العباسية .



وكما كانت المسطحات مقدسة الى خطط ، قسمت القاهرة كذلك الى حارات . لكن تلك الأقسام لم تكن موزعة على القبائل العربية المختلفة بل على قبائل وأجناسي أحتيية متباعدة . ولذا نسمع من حارات الروم والكرد والبربر والتركة ، « حارة يرحوان » و « حارة الأمرا » .

ولم يسمح الا للجند الموثوق تماما بإحلاسهم بالإقامة داخل أسوار القاهرة أما الآخرين والعناصر المشاغبة فقد أقاموا خارج الأسوار - وكانوا كلهم أشبه بحرس امبراطوري وقد وطى جوهر عن عهد الروم بنى حلاته الأماكن المجرورة لأبواب المدينة وودعت باقي فرق الصيد في مناطق مختلفة . فقد وطى الجنود المرتوج (عرفوا احتصارا بالمعيد) الذين اشتهروا بعدم الاتصاف في المنطقة الواقعة الى شمال باب الفتوح ، خارج أسوار المدينة بالقرب من الخندق الذى سطره حور لوقاية المدينة من أى هجمة تأتي من سوريا . ولذا عرفت تلك المنطقة « بخندق الصيد » . وقد ثوت ضواحي القاهرة الجنود الجند الذين وصلوا بعد تقسيم أراضي المدينة . واسم أحد الضواحي يكشف عن أن حور كان يتمتع بروح النعامة ، حامد بعض الجند المتأخرين وطالبوه بقطعة أرض . ف أوضح لهم أن الأرض كلها قد وزعت فقالوا « رحبا لمن في الساطل » أى كان مجيشا

بلد قائمة • ولحق هذا الاسم « حى الباطنية » بالجزء الذى سكنوه بالقرب
من « الباب المحروق » -

وتعكس المساحات الواسعة من الأرض الفضاء التى تركت بين
المباني وغنى جواهر الأساسية من بناء القاهرة • فقد تحتم أن يكون حى
تلك المدينة عاصمة الخلافة • أماكن واسعة يمكن فيها تشياع رغبة الخليفة
فى الظهور بمواكب وإقامة فيها احتفالات باهرة • فالى جوار « باب العيد »
كانت بوحدة قطعة من الأرض مساحتها ٢٠ ألف متر مربع وأخرى عند
قصر الشوك ومساحتها ٧ آلاف متر مربع • أما ميدان الأزهر فله كان
يقدر بـ ٨ آلاف متر مربع •

وكمعظم حاصر يتدل ذيله فى الوصل • امتدت مدينة الخطفاء الرامة
الى الجنوب على جانبي الشارع الأعظم الذى كان يؤدى الى جامع ابن طولون
مكونة أحياء مريحة شوارعها صيقة يصعب الوصول إليها • وله
انقسمت المنطقة الى ثمانى حارات عسكرية أسكنها الجنود وأغلبهم من
السودانيين الذين كرموا الى الشمال والشرق من بركة الفيل حيا من
تحسين ألف نسمة •



وهذه المدينة (القاهرة) التى أمر بإنشائها المر وبناها جوهري ثم
أكملها المر وخلفائه تعرضت لتغيرات عدة فبعد أن تلاثى الخوف من ثورة
أو غزو • فقدت الأسوار معناها وبدأ طوفان من المنازل يفسرها ويهدمها
ويبدأ حتى أن تاصري حصوى الذى رار بالمدينة بعد حسمى عاما من
تشييدها عجز عن أن يميز أسوارها لكثرة المباني التى تكتنفه على
الجانبين • وله ذكر المقيزى فى القرن الخامس عشر الميلادى أن آخر أثر
لتلك الأسوار قد تلاثى تماما • ومن ناحية أخرى ضاقت المدينة بسكانها
بمرور الوقت مما اضطرهم للزحف خارج أسوارها • ولما كان الخلفاء
زاهدين فى التضيحية بقصورهم أو بميادينهم فقد اضطروا الى توسيع
نطاق المدينة حتى يحفظوا لها وحدتها • فتمتدأ بى الحاكم بأمر الله •
الخليفة المستنصر • جامع خارج أسوار المدينة • هضمت الأسوار وأعيد بنائها
سحب أدخل الجامع فى نطاق المدينة • وفيما بعد يعيد يدر الجمالى •
وزير الخليفة المستنصر • بناء الأسوار مرة أخرى لتوسيع المدينة •

بيد أن الحافظ الشمالى الشرقى للمدينة • الذى كان يفصله عن
الخليج منطقة بين السورين • لم يتعرض لتغيير • لكن الفيلاء والأشياء
شيدوا لهم هناك قصورا وقبيلات • أما الأرض الفضاء استغلها السلاطنة

لإقامة احتفالاتهم وللتزجعة • وبني المسنن من جديد أروصفة ببياء المقس
 بالواقع إلى شمال القسطنطينية والروضة • ولقد ظلت المقس المياء الرئيسى
 ودار لصناعة السفن حتى غير القيل مجراه بعد ظهور بولاق • وبالقرب
 من باب البحر شيد الحاكم بأمر الله مسجدا • ومما سبق يتبين لنا سبب
 اجتذاب السكان إلى تلك المنطقة • وبعد أن ظهر الخليج وصار صالحا
 للاستعمال بين القسطنطينية وعين شمس ازداد عمران المقس تدرجيا حتى
 أصبح جزءا من القاهرة •



كان قصر الخليفة مهيئا فى الرواية الشمالية الشرقية للمدينة •
 وعندما كان يرى من بعد ، كما يروي ناصرى خسرو فى عام ١٠٤٦ م •
 كان يبدو كالجبل طرا لصفحاته وارتفاع مبانيه • وقد بنى فى عام
 ٩٧٢ م على مكان « بستان كالنور » و « دير العظيم » وقصر الخوكة •
 وعرف « بالقصر الكبير » • وكان يضم حجرات واسعة للخليفة وأسركه
 ومخازن للآلات ومطابخ ومصالح حكومية ومخازن تصبى بالغلل والسكر
 والريث والصابون والشمع والمعادن • وبما بعد أقام العزيز ابن المعز
 قسرا (القصر الصغير الغربى) على الجانب الآخر « لقسبة القاهرة »
 وحصله لابنته بنت الملك وقد اكمله الخليفة المستنصر فى عام ١٠٥٨
 وكان ظهر البناء يطل على الخليج • وعلى جاسى الواحة الشرقية امتد
 جناحى للبناء مما جعل القصر يشبه فى مخططة حنة الحصان التى يشتهر
 فرعها تجاه القصر الكبير • وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا
 الاسم « رحبة بين القصرين » وكانت قسبة القاهرة تفتقره • وموقعه
 يمكن تحديده فى المنطقة المحصورة حاليا بين جامع الحسين وخان الخليل
 ومارسئان قلاوون •



كان مجيئ « المعز » إلى القاهرة فى عام ٩٧٢ م • وبعد أن دخل
 إلى قصره • حر له ساجدا وصل متبوعا بأعوانه • ثم أنزل أولاده وحريره
 وحشمه بالقصر • وفى منتصف شهر رمضان الذى لم يكن بيينا جلس
 المعز على عرش من الذهب نصبه له جوهر فى الإيوان الجديد •
 واستقبل الأشراف (أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم) والولاة
 والنبلاء • وفى حضرته كان الكل وقفا وقد قسموا إلى مجموعات صغيرة
 تقدمت الواحدة منهم بعد الأخرى إلى الخليفة بينما قائد الكواد جوهر
 يمرش عليه هداياها التى اشتملت على مائة وخمسين فرسا مطعمة بالحب
 من ذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة أو بالعتبر الرمادى • ثم دخل الختم

جاملين واحد وثلاثين هودجا مفروشا ومطرا بالقصب ثم قدم ثلاثة وثلاثين
 بفلا مسرحة ومائة وثلاثين بفلا منحصصة للحمل وتسمى جبلا ثم أربع
 صناديق مشبكة تلبس منها أواني ذهبية وفضية . ثم مائة سيف تحشى
 من الذهب والفضة وصناديق مكتنة بالقصبة ملبسة بالأحجار الكريمة ،
 وأخيرا تسعة مائة مملوئة بكل ما أمكن تديره له من كنوز مصر .



وتفريجيا أحدث العمال ترمع حول القصرين الأساسيين وشيد
 العرين « قصر الذهب » و « الديوان الكبير » و « مصر ديوار » وأضاف
 الخلفاء الآخرون والوزراء من أخرى كثيرة أو أصلها القديم منها حتى
 جعلوا منها في النهاية عشرة قصور عرف كل منها باسم خاص مثل
 « قصر الغزال » و « قصر الخنجر » الخ . . . ، اشتمل كل واحد منهم
 على قاعات كثيرة بالأضواء الى حوض ماء مقاومة أي حريق محتمل ،
 وشهدت تلك المجموعة الرائعة المتناسقة من القصور على ولع هائل
 بالترف . وعلى جانبي القصر الغربي امتد الملبان وحديقة كافور .

وأحدث القصور المراسرة ، كما كانت تعرف تلك المجموعة ، في
 الاستماع حتى أنها كانت تآوي في القرن الحادي عشر اثنى عشر ألفا من
 الخدم معظمهم من السود أو الروم أما حریم القصر فقد ضم ثلاثين ألفا
 من نساء ونصيان . ويروى للقريري أن صلاح الدين قد وجد في القصر
 عندما أخرج منه الماضد آخر خلفاء الفاطميين اثني عشر ألف امرأة من
 الجوارى . أما من الرجال فلم يكن هناك سوى الخليفة وأقربائه وأولاده .
 وقد خلعت لها نفس هذا المؤرج وصفا دقيقا للقصرين الرئيسيين . كان
 بالقصر الكبير الشرقي تسع بوابات ، تملأ أجناعها منظره يظهر الخليفة
 في شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة . أما أسماء الأبواب الأخرى
 فتذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة « باب الرمرد » و « باب السلام »
 و « باب الفتوح » الخ . . . وكان بالقرب من القصر بئر يدعى « بئر الصنم »
 تلقى فيه أجساد من يأمر الخليفة بأعدامهم . وقد قيل إن به كنز مخبئ .
 وعندما صار صلاح الدين سلطانا على مصر بعد قرن من الرمان ، أمر
 بحفر قاع البئر . لكن البئر كان ممتلئا بالجن . كما يروي القريري -
 الذين قتلوا الكثير من المال وفي النهاية أسروا بدم البئر . وربطت
 القصور سراديب مطوية تحت سطح الأرض ممتدة لانتقال الخليفة من
 قصر لآخر . ويقول القريري أن الخليفة كان يتمتع بالمال أو الحمير التي
 كانت الجوارى تقودهم في تنقلاتهم عبر تلك السرايدب .

ومضلا عن هذا كان القصر يضم « الإسطبل الدائري » ، وقد كان

مختصا أساسا للخيل التي يتطلبها الخليفة ، وجامع الأزهر الذي كان يؤدي فيه الخليفة صلاة الجمعة بنفسه ، و « ميدان العيد » حيث كانت تجتمع فرق الجيش أيام الأعياد الكبرى كعيد الفطر أو الأضحية . وهناك يداعب الهواء ريش عمامتها ويخطف يريق جواهرها الإصدار وتختال حيولها على وقع خطواتها . وهناك أيضا كان من الممكن رؤية باب تربة الرعمران « . وهي مقصورة جتية خصصت للخليفة وزوجاته وأطفاله ، والسبع أبواب الخليفة « للقصر التي كان الخليفة يخرج منها فاصدا الجامع الأزهر في ليلى الوقود . وعلى مقربة من هذا المكان كان يقع بيت العلم « و « خزانه السلاح » .

وعلى الجانب الآخر لميدان العيد شيد « بيت الضيافة » و « حان الوزراء » و « اصطبل الجمال » .

وأمام « باب الرهور » (روائح الطعام) بيت المطابخ التي كانت تمد عائلة الخليفة بالطعام . أما طوى الخليفة فكانت تستع في دار الفطرة (دار الحلوى) ، واحتضنت بالتوايل دار خاصة (دار التوايل) . وعند الانتهاء من إعداد الطعام للخليفة وحريمه والساملين بقصره كان يرسل عبر باب الرهومة ومن هذه اشتق الباب اسمه . وقد ذكر باصري حسمرو أن الباب كان يؤدي إلى مقر حفل يرتبط بين القصر والمطابخ (وهو أمر ليس ببصيد إذا ان من الصعب تخيل أن طعام الخليفة ينقل في الهواء الطلق معرضا للتراب) . وكان بالقصر ممرات مسفل أخرى تلود إلى الخارج وكما يعلم فقد عبرها جيش ثلاثة من الخلفاء . ويرى باصري حسمرو عن مطابخ القصر انه كان من المعتاد أن يرسل للخليفة أربعة عشر جبل جبل من الثلج في كل يوم . وكان معظم الموظفين الكبار والنبلاء يتسلمون أنصبة معينة من الطعام وكذا كل من يطلب من أهل المدينة من أهل مريض وكان القصر يفرق على كل رائج مشروبات وعراهم مثل زيت البلسم . ولم يكن يرد سائلا أبدا .



كان ثراء تلك القصور خرافيا ، ففي قصر الذهب كانت توجد قاعتين : قاعة الذهب ، و « قاعة الفضة » . الأولى كانت قاعة العرش ، والثانية قاعة المقابلات . وقد كسيت الجدران بالذهب أما العرش فقد طعم بالأشجار الكريمة ووضع على منصة منضدة ، وأحاطت به أجنات من تخيل من ذهب مثل بغواكه والأعوار من الأشجار الكريمة وبه طيور من ذهب ومزخرفة بمينا متنوعة الألوان يسمح لها تفريده .

وقد ترك لنا فاميرى خسرو وصفا للقصر « عندما دخلت من باب القصر رأيت حشدا من الصغار والفتيات لو وصفته كضخم كتابي . كان هناك اثني عشر جوسقا مربع الشكل متصلة ببعضها مساحة الواحد منها مائة ارش (اربعين مترا) مربعا علنا واحدا منها كانت مساحته غلط ٦٠ ارش مربعا . (٢٤ مترا) . وفي هذا الاخير وضع عرشا يمتد بعرض الجوسق وطوله ٤ فيز (الفيز يساوي ٢٤ شبرا) وارتفاعه مثله ، وثلاث من اوجيه كسيت بلذهب وعليها مثلث مناسخ عسيد وفوسان يرمعون ببيادهم ومواضع اخرى . وعليه نأثت كتابات بديمة ولد فرشت تلك القاعة يستاق رومي ويوكالون (وهو فعاث يتغير لونه حسب انكساعات الضوء) ويأنسجة صبت بماتريس تتوام مع المكان الذي ستوضع فيه . واحتاط العرش سياج مشعر من الذهب يعجز الببان عن وصله وكانت هناك درجات من اللبنة خلف العرش ملاصقة الجائط . ولما اراد للرء ان يوفي هذا العرش الرائع حقه من الوصف قلن يكفيه كتاب واحد . وقد قيل لي ان راتب مائة الفلينة من السكر كان خمسين ألف من (الفين يساوي ١٥٣٦٤ كجم) وقد رأيت هناك شجرة تحاكي شجر البرتقال لأكبتها والوراثا من السكر وكانت المائة تزين بالث كمثل صخر من السكر ايضا » .

ولدينا رواية لجويوم دوثير (طرابلس) Guillaume de Tyr من بعثة ارسلها اموري الأول ملك القدس للعلامة الماضد تطل لنا فكرة من الاطباع التي تركه القصر الكبير على الأوربيين وهي تفصيل روايات المؤرخين العرب التي كثيرا ما تكون مبالغة .

• وفي عام ١١٦٧ حصل الى مصر الفرنسيان أي دوجيزر Hugues de Guesire وجورج فوشيه Jeoffroi Fouchier رسالة من اموري الأول الى العلامة الماضد وفي السفارة اصطحبهم الى قصر يسميه العرب في لغتهم « قصرا » وهو بناء فخر شديد الثراء . واستقبلهم هناك حراس شاهري السيوف وقادوم عبر سراديب مظلمة وعبر ثلاثة ابواب يحرس كل منها سوداني ، ثم وصلوا الى فناء واسع مفروش برخام متعدد الألوان مزين بالوان ذهبية فنية . وكان له دوافير بأبابيب من ذهب وقضه . وبكل مكان كان للرء يرى مجموعات كبيرة من الطيور النادرة . وقسم لهم الحرس المسؤولين الى آخرين الدين اصطحبهم الى فناء آخر في مبنى آخر كان مثل المبنى السابق في

فخامته وثرائه الذى لم يروا له مثيلا من قبل . وراؤ هناك حيوانات من أنواع متعددة ومختلفة الى حد لا يحصى .

وبعد أن عبروا من جديد عندا من الأبواب والمنطقت دخلوا أخيرا القصر الكبير حيث استقبلهم عدد من الجنود جيئى التسليح ويبرقون بالذهب والفضة . ثم أدخلوا الى حجرة بها ستار صمغ ممتد من حائط الى حائط وقد خرق تماما بالحرر متصدد الألوان ويخيط الذهب وقد منحت عليه صور بشرية عدة وهيئات طيور وحيوانات ، تتألق نياها بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع وسجد الوزراء على الأرض ثلاثة مرات ثم فتح الستار ، فظهر الخليفة جالسا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمة ويحيط به نخاسة مستشاريه وقد كساهم الوقار . وتقدم أحد الوزراء من الخليفة وقبل قدميه ثم جلس على الأرض قرب العرش .

وكاد تعالى الخليفة أن يؤدى الى أزمة دبلوماسية الناء الحديث الذى دار بينه وبين السفيرين ، فقد طلب منه أى Huss أن يتصالحا كعلاية على موافقته على المقترحات التى قدمها المسؤولان . تردد الخليفة لحظة لاعتقاده أن هذا العمل لا يطق مع مكانته . وأخيرا مد يده ، لكنه كان يرتدى لذارا ، وأصر الأفرنجي على أن تكون يده عارية كالخليفة فخلع على مضطر لفاذه حتى يقسم ويده فى يد أى Huss على أن يرفعى المهادنة بأمانة .



عرف الباب الرئيسى للقصر الكبير بـ باب الذهب ، كما لو كان بابا يؤدى الى مملكة ساحرة ، وقد نسجت حوله أسطورة ، عندما عاد المس من المغرب فاصفعا مصر ، جمع كنوزه ومهرهم وصيهم فى هيئة أحجار طواحيه ثم حملها على مائة حمل وفى قول آخر مائة وحسين لينقلها الى مصر . وتميز المشهور وعلم الثمانيان المبرقش بالذهب يتلوى زاحلا عبر الصحراء . وعندما وصل مصر وضع السباتك الذهبية بجوار باب قصره الجديد . وعلمنا رأى الناس تلك الأكوام الذهبية دعوها بالحشرات ، وهو اسم يعكس إعجابهم الساذج بتلك الكنوز وأمل تلك التسمية قد آتت من لغة ذلك الزمن الثمين التى أوجت اليهم بنظر حشرات صغيرة تلمع أجنحتها تحت الأشعة كالذهب . وقد وضعت السباتك فوق بعضها البعض حتى كومت عراش الباب الذى سعى باب الذهب .

وبعد صبيحة عام ، لى فى عام ١٠٥٤ م ، تسبب فيضان شحيح للتيل فى حدوت جعابة . فارتفع سعر القمح الى ثمانى دنانير تقريبا للارصب الصغير مما ادى الى ندوة متزايدة فى التخيز . فاشفق الخليفة العزيز بالله على الفقراء فأن يستوتوا جوعا ، فصرح لهم بأن ينتزعوا بآزايهم خبثا من القمح الثمين الذى آلف عارضى باب القصر وكما يتوقع فقد اخفى الجزء الاكبر من المارشحين فى ملح البصر . فاضطر السلطان لنقل الباقي الى داخل القصر . ولا يعلم احد مصير هذا الجزء الباقي من الذهب .



ولن نعرف أبدا حقيقة هذه اللصبة لأن المؤرخون العرب اعتادوا أن ينفثوا من بطنهم البعض .

وقد أتت الفرصة لناصرى خسرو أكثر من مرة لرؤية باب الذهب ، ولندخل القصر نفسه ، لكنه لم يتحدث مطلبا عن أحجار طواحين البحر الذهبية . ولو كانت قد كوفت جزءا من بساب القصر ، لما لانه أن يذكر هذا .

كان يقوم على حراسة باب الذهب مائة من الفرسان فى كل ليلة وعندما كان مؤذن القصر يرفع صوته بأذن المشاه أمام أهل القصر الموجودين فى تلك اللحظة ، يسرع أحد الأمراء الى باب الذهب وبمجرد الانتهاء من الصلاة يعطى أمرا بنفخ البوق ثم تفرغ الطبول وتستمر الموسيقى لمدة ساعة . وعندئذ يخرج ضابط مكلف من القصر وينادى أمير المؤمنين يسلم على الأمير فلان ، فيتناول هذا رمحا ويفرسه بحركة قوية فى الأرض على فتية الباب ثم ينتزعه ، ثم يطلق الباب ويدور بالقصر صيغ مرات . وعندئذ تنتهى نوبة الحراسة ، فيضع حراسا لليل ، وينسحب الآخرون الى منازلهم المقيمة على مقربة من هذا المكان ، ثم تبه سلسلة بعرض ميدان باب القصرين ثقله فى وجه المارة ، حتى يعلن صوت التغير وتفرغ الطبول من جديد عن مجيء يوم آخر ، وعندئذ ترفع السلسلة وتعود حركة المرور .

وقد استخف باب الذهب ، لجعل أبواب القصر التسبح لمزور الأمراء والعلماء وكبار رجال الأسرة وجنود الحرس الى داخل القصر أيام الجمع والأرباء من كل أسبوع لحضور مجلس الخليفة فى لاعة العرش . وكانت تلك مشيئة فى الايوان الكبير داخل القصر حتى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) . وهذا من هذا العصر نقلت الى قصر الذهب

بحر واحد من عشرة قصور كانت تمتد بين « باب الذهب » و « باب
النهر » واستمر القصر الكبير الذي شيد المزم وأتمه ابنه العزيز وحلفاؤه
ثلاثة قرون قبل أن يؤزل تدريجيا إلى الخراب .

ومحاولة حصر الثروات التي ضمتها يوما تلك القصور أمر لا يثير
حيال المرء فحسب بل يملأ النفس بهشة شديدة . « ما الذي يمكن للمرء
أن يصنعه باثني عشر ألفا ودا (كما قيل) من مختلف الألوان وبشآت
الصناديق الملونة يكافور القصير ورشيد » . ولقد تركت ابنة المزم رشيدة
التي ماتت في عام ١٠٥٠م ؟ ثروة قلوت باثني مليون وسبعمائة ألف
دينار . ولقد ورث الأحمات التي وصفتها أختها عبدل على حجاتها
وصناديقها وصولويها بأربعين رطل . وقد أحصى منها بين كثير ثلاثمائة
وألف صيصا من الفضة المربنة بالميا ومرغرف يدقوش باردة وأربعمائة
سيف مفشق بالذهب وثلالين ألف شقة قماش صقل .



تمددت الأعياد التي أضحت البهجة على حياة أهل القاهرة في
المصور الوسطي . وكان كل منها فرصة لاستعراض الثراء البخاري .
ففي يوم عرفات على سبيل المثال كان المزم يجهر شمسية (كسوة)
للكعبة المرفة في مكة المكرمة . وكانت الشمسية مربعة طول كل جانب
منها اثنا عشر شبرا (القبر يساوي ٢٢٥ سم) وكانت تربتها خمسون
لؤلؤة كل منها بحجم بيضة الحمامة . وكانت الكتابات القرآنية عليها
من الدؤلؤ أيضا وقد شكلت بالزمرد . وقد قيل إنها حوت ثلاثين ألف
مثقالا من الذهب وعشرين ألف درهم من الفضة وستائة وثلاثة آلاف
جرهرة متنوعة الألوان وفي أول أيام عيد الفطر كان الغليلة يخرج على
صهوة جواده إلى مصلى في الهواء الطلق متبوعا بموكب . وبعد انتهاء
الصلاة يعود إلى قصره ويتوقف عند باب القاعة حتى يتطلع عنه الورير
عوب العبد ويلبسه ثوبا آخر . وفي هذا الوقت يكون قد تم نصب
العرش في قاعة المائدة . وتوضع أمامه مائدة من الفضة وعليها أواني
من نفس المعدن وأخرى من الذهب أو الصيني مبلوعة بأطعمة مختلفة .
وكانت تمتد بطول القاعة مائدة ضخمة من خشب مصقول لمشبه بمنصة
مستطبة تنطوي الأزهار ويطولها امتد صفان من أرغفة الخبز الدائري
الأبيض بين كل منها ثلاثة أظال صنعت من خبيرة شديدة النقاء . أما
القسم الأوسط من المائدة فقد امتدت على طوله واحد وعشرون طبقا
مستديرا ومستطيلا حوت خرافا محمرة ساخنة محاطة بمساجات وطيور
أخرى وعلى جانبي تلك الأكوام من الأطعمة امتد حائطان من المربي المنخفضة

قطعت الى شرايح عريضة تلتصق بالوان عديدة • وبين الأطاق وضبح
خسامة طبق صغير من الفانيش بكل منها صبيح دجاجات مشوية
بالخلطة فضلا عن اللحم المقروم جيد الإعداد • وعند الفراغ من تناول
الطعام ، يأتي بالحلى ، وكانت في هيئة قصيرين كل منهما يرن سبعة
عشر قطارا محبولة على محطات وكانت مقطعة بأوراق الذهب ومزينة
بنقوش بارزة •

وبمجرد أن يجلس الخليفة على العرش كان الوزير يتخذ مجلسه
على يمينه ، وعلى جانبيهما يقف أربعة من السياس وأربعة من الخدم
الخصوصيون • وعندئذ يجلس الأمراء وعلية القوم الى المائدة دوماً أي
ترتيبهم مسبق ثم تبدأ المائدة •

ولاضفاء لمسة من المرح على تلك المأدب كان يلقى إليها عادة
ضابطان يدعى كبا يذكر المقرري ، ابن العاير والآخر الديلى • وكان
الواحد منهما قادرا على النهام بحروف محمر وعشر دجاجات مشوية بفردته
فضلا عن رغيف من الحلى يرن عشرة أظال • وكان أحدهما قد سجن
فى عسقلان فى إحدى الحملات العربية على تلك المدينة • وكان الموطف
الذى سجنه يمتلك عجلا سمينا يرن بضعة قناطير • وقد قال لسجنه
ضاحكا « ن آكلت هذا السجل اعتقت » فقبل هذا الرهان • وحمر
الخروف ولجج السجين فى تناوله • فأطلق سراح الرجل ولما لهده •
ولمى كل هام كان الخليفة يدعو السجن السابق الى مائدته فى القاهرة •



ومن بين تلك الأعياد عيد « قطع الطليح » • وفى هذا اليوم تكون
فرق جيش الخليفة كلها على أتم استعداد وتوزع فى فرق وفصائل
منفصلة • ويمكن للمرء أن يميز بينهم عشرين ألفا من فرسان القطامية
الذين كانوا قد اتوا مع المر ، والباطلية وهم قوم من المغرب كانوا قد
اتوا إلى مصر قبل أن يفروها المر • « والمصرية » وهم من السود
جميعا ، أما الترك والفرس فكانوا يسمون بالمشارقة وهم حسنو الهيئة.
وحولهم يصطف عبدة الشراء (أى المشترون) • وبدو الحجاز وعدتهم
خمسون ألف رجل كلهم مسلحون بالرمح ثم يأتي البرايا (أو خدم
القصر) ثم المشاة وقد أتوا من مختلف البلاد ويخضعون لرئيس يتولى
رعايتهم وإعاشتهم وكل منهم يقاتل بالسلاح الذى اعتاد عليه فى بلاده
ثم يأتي العبيد السود أو البيض ، ثم الزوج وعددهم ثلاثون ألفا مسلحون
بالسيوف • وكانت هناك فرقة خاصة مستقلة عن الجيش تتألف من

أبناء الملوك والحكام الأتابك الذين أرسلوا إلى مصر . ويبلغ المرء منهم
أمره من اليمن أو من بلاد الروم أو السلاف أو النوبيين أو الألبانيين أو
أبناء أمراء جورجيا وخاقانات التركستان . وكانت طفة تلك العرة عظيمة
بينما انفجرت ولجبات أقرانها في الملوك في حضرة الوزير من وقت
آخر ، وكذلك في المناسبات التي يقدم فيها الولاء إلى الخليفة ووزرائه .



تولى عرش البلاد الخليفة العزيز في سنة ٩٧٥ م وكان في سن
الحادية والعشرين وقد وصف بالشجاعة وفراة الطول والوساعة
و بالرغم من زفة عينيه وحمة شعره وهي صفات كانت لا تروق
لنبي) كان صالدا ماعرا وصاربا صنديدا . وهو أكثر شخصيات
العلماء الفاطميين إثارة للحب . فقد كان ميالا للتسامح كلوا لسلك
الدماء فقد آناه يوما وزيره ابن كنس وشكر إليه أبنائنا تسخر منها
الأثنين غزال العرير « نحن شريكين في الإهانة ، ففاسمهي الصلح » (١)
و كثيرا ما عبر عن رغبته المتقدة في أسماء رعاياه لكن عيبه الوحيد كان
إيمانه في قدرته على التنبؤ بالمستقبل . وتولمه بالعرف فقد شيد عدة
عائل زادت في جمال القاهرة . وينسب إليه « قصر الذهب » و « قصر
الزؤل » السابق ذكرهما واللذان قد اعتبرا لثراء ربايهما ووفرة
استخدام الذهب في زخرفتهما وجمال موقعهما . أهدع قصور المدينة .
ومن أجل القصر كان البحر يمتد شرقا حتى حديقة كافور . أما في المغرب
فقد شيد حول الخليج في وسط المزارع والحقائق عمار بديمة كوت
حيا الطبالة واللو . أما في الجنوب فكان النيل يتلألا . وقد شيد
لأمة مسجدا في القرافة . وفي عام ٩٩١ م بدأ في بناء الجامع الذي أتمه
الحاكم بامر الله ابنه وحمل اسمه بالإضافة إلى طر العديد من القنوات
وبناء الكثير من القناطر والجسور وأوصلة المواني وحديقة Sordas
لم قصر في عين شمس .

وفي عهد تمت القاهرة بدرجة من الثراء يصعب تصديقه .
فقد كانت الصائم تشكل من أقبسة ثقيلة متعددة الألوان ومطرزة بالذهب
نمى « دابق » نسبة للمدينة التي كانت ممتلأ . وبعضها منها كان
يصل طولها إلى مائة ذراع . وفي هذا العصر أيضا شاع استخدام
السروج الذهبية المصنوعة بالأحجار الكريمة والمطرزة بالمعبر وكانت
الأسلحة أيضا تكتسى برفائق الذهب .

(١) رجمة للنبي يهرسي .

وإمتدت حالة الثراء التي أحاطت بقمة الهرم الاجتماعي الى قاعدته
أيضا . فخلال مرة تعرض في الأسواق أسماك طازجة من البحر أرسلت
الى القاهرة حية . وغرقت الأسواق بنبات الكبة Truffle التي
كان يجلب من القلم حتى صار يباع بدينهم لثمانية أروال . وروبيته
صلاة من الخبل في القاهرة سوداء ذات ارجل بيضاء كانت غير معروفة
من قبل في المدينة . ولأول مرة في هذا العصر استقدمت الى مصر اثاث
أفكار . وكان النوبيون حتى هذا العصر يسمون تصديرا الى مصر حتى
لا تفكأ وتستخدم كسلح في معركة مستقبلية ضلهم وضد أي بلد
مجاور . وشهد ذلك العصر محاولة لاستجلاب وحيد القرن الى القاهرة .
لكنه مات في الطريق وكان على أهل القاهرة الاكتفاء بمساعدة جلده
محشوا فقط .



نور وفاة الميرز في عام ١٩٦٦ م أخذ « برجوان » مؤدب ابنه
و الحاكم « يبحث عن تلميذ » فوجده مختبأ في شجرة تين « فالبسه
برجوان عمامة مريئة بجواهر وعرضه على الناس الذين أطوا في الركوع
أمام الامام الجديد » وفي اليوم التالي صار الامام الفتى البالغ من العمر
أحد عشر عاما خلف الجبل الذي كان يحمل جثمان ابيه « وكان يحمل
في يده رمحا وسيفا مطلقا في جرابه »

أثرت نزوات الحاكم الشخصية التي شابت تصرفاته منذ حداثة
على حكمه الذي دام ٢٥ عاما . وقد أدت الصعاب التي واجهها بعد
سنوات قليلة من ولايته عنفا قتل مؤدبه « برجوان » الذي كان قد
اتخذ وزيرا « الى تشويش عقل الخليفة الشاب تماما وصار عهد سلسلة
طويلة من الفظائع والمراجم الشاذة والقرارات الخيرة للحق التي فرضها
على رعاياه . وقد أثار خلوعه وغربة لموارده حيرتهم فلم يكن المرء قادرا
على أن يعرف ما يختبره له القد . فتارة حرم الملوخية ولعب للشرطي
وتارة أخرى منح النساء من التردد على الحمامات العامة . ثم أمر بأعدام
الكلاب في القاهرة . وقد أثرت طبيعته الشرقية العادة على مراجه التهم
الى المذات وأضيفت الى تلك شخصية لمسة من أهواء أهل الغرب .
لقد وصفه بعض المؤرخون بالجنون . لكن شخصيته كانت أقرب الى
الجناسية وعلم الاثزان . كان شخصية حساسة أمكنها أن تغد
نزواتها ، لكنها شخصية فنانة بالتأكيه مثلها مثل تيرون الذي شابهه
في أكثر من شيء . لقد أشعل النار في أركان القاهرة الأربع ليستمتع

يسطر السنة اللهم من نافذة متفردة قصره وهي تمتد في طريقها إلى الليل ، وليتمكن من إعادة بناء المدينة على حواء . كان وجهه بعيداً الروداوتيه الرهيبتين وصوته الجهوري يبعث إحساساً بالنفور في النفس . وقد طابقت شخصيته المراوغة الماكرة النصت التي وصمه به مؤدبه بروسون ، السحلية . فلقد كان يفضل الظلام على النور ، لذا كان يعتقد مجلسه في الليل . وفي الليل كان يطوف بالمدينة على حماره وقد أحفنه انظلمات . وكان يجلس على رعيته بحجة تفقد الموازين والمكاييل . ولأرضاء بروته فقد تحتم على المتاجر أن تفتح أبوابها طوال الليل وتعلقها في النهار .

امتزج في شخصه الذكاء والجنون والوحشية والتفري . وقد خلف مجموعة من العمار التي ساهمت في سحر القاهرة ومن أشهرها جامع الحاكم الذي عاش إلى يومنا هذا ليذكرنا بهذا الخليقة القداد . وقد بدى في بنائه في عام ٩٩٠م ومرغ من بئله ١٠٠٣م . لكنه امتنع للصلاة في عام ٩٩١م وفي تلك المناسبة ذهب إليه الحاكم (وكان حينئذ طفلاً) في مكتب كبير بصحبة أبيه ، تحية من وجه الشمس مظلة . بينما سار أبوه دون أن يحجب عنه الشمس شيء . وقد تولى الحاكم مهمة اتهام الجامع . وعلى سيق جامع ابن طولون بنى من القرميد عدا المثلثة التي بنيت من الحجر مثل مثذبة ابن طولون . وفي كلاهما يحيط بالصحن أربعة أولوين . ولقد قاسي الجامع مقاساة شديدة من زلزال في عام ١٣٠٢ لكنه رجم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

وهو الآن الجامع الخرب (١) الذي يلاصق سور القاهرة الفاطمي بالقرب من باب القنوج .



وبعد أن بلغ الحلم شيد الحاكم جامع رشيدة حيث كان كبيراً ما يؤدي فيه صلاة الجمعة . واشترى من أحفاد عمرو الجامع الذي يحمل اسم الفاتح العظيم (جامع عمرو) فقد آل هؤلاء إلى الفقر ومن ثم طلبوا من الحاكم أن يسمح لهم بهدم الجامع ليبعروا أنقاضه فأعطاهم الخليقة مائة أكر دينار وأصلح الجامع على طاقته الخاصة . ووضع فيه ثرياً من الفضة تون خمسة وعشرين قطاراً وكبر حجمها فقد اضطرأ إلى هدم

(١) أعيد ترميمه ترميماً شاملاً في السنوات الأخيرة على نفقة سلطان البحرين . ومن مائة من الشيعة تتخذ منها المنحوت من التابلين .

أحد أبواب الجامع لاحتفالها • ويأمر الخليفة أضيء بيت الصلاة بمئة مصباح في كل ليلة كانت ترتفع في أيام الأعياد إلى سبعة مائة •

وبنى قى بنفسه مسجدا آخر (وهو مكان يتدبر فيه المرء الآخرة) وإقام منطرة تشرف على ما حولها (وهو مكان للسمرات الدنيوية) • لكن أهم أعماله كان بناء « دار العلم » في عام ١٠٠٥ م وكان الهدف الأول من إنشائها نشر العقيدة الشيعية وإن عني أيضا بتدريس علوم أخرى عنه • كالنحو والشعر والشريعة والطب وكتابة المصوغات • وقد احتل هذا المعهد بماء فاترا مريدا بمكتبة عظيمة نقلت إليها كتب من مكتبة العصر • وسمح بالإطلاع فيها لكل راغب لى قرائتها أو الرجوع إليها • وكانت رتب المسلمين تدفع من مال الحاكم • وكان المعهد متكفلا بتوفير الجبر والوق والاقلام التي قد يحتاجها المرء • وبعد سبع سنوات من تأسيس هذا المعهد دعى الحاكم طوائف علماء كل طائفة على حدة إليه حيث خلق عليها أبوابا شرفية •



وعلى النقيض من نشاطه المصارى ، تسبب في خراب كثير من المنشآت • فقد هدم الكثير من الكنائس بالقرب من شوارع وشيد ولهب كنيسة القس • وذات يوم رأى دمية في لشوارع البست ثوبا ، فظنها للوهلة الأولى امرأة حقيقية فصمت أمره الذى منع خروج النساء من منازلهم وكان بيد الدمية رقعة من ورق تسخر من الخليفة • ففى جنونه وأرسل جنوده من السود ليحرقوا المخطوطات فحصل الناس أسلحتهم وخرجوا للدفاع عن بيوتهم • وعلى الرغم من مقاومتهم المستميتة فقد ذبح الرجال وفتحت النساء ومضى نصف المدينة تالفا •

وفى عام ١٠١١ م أمر بهدم « قصر النؤلوة » القائم بالقرب من مقياس النيل • ومنه كان المرء يرى منظرا جيلا للنيل وحديقة كافور • وترك للناسبي محتويات القصر بأكملها ناعها هؤلاء • وبعد أيام فلال لبس على كل من كان فى حوزته شئ منها وأودع السجن •

ومن بين منشآت الحاكم ، الذى كان مولما بعلم الفلك ومنه اهتم استقاء أحكام شذاعة وأحيانا قاسية طبقها على رعاياه • حرصه شديد على جبل المقطم ولم يتم بناؤه كما شيد أيضا فى المقطم بيتا صغيرا خصصه لدراسة النجوم •

ولا بد ان صورة الحياة فى القاهرة كانت شهيدة الفزاية تحت حكم الحاكم يأمر الله فخلال سبع سنوات لم يكن يسمح لامرأة بالخروج الى

الطريق وكانت مشيرواتهم تبعاً لهذا تتم عن طريق الثالثة . ورفض الحاكم على كل طوائف المسيحيين بلون استثناء وداًماً حاصلاً فكان المسيحي يرى في كل مكان مرتدياً ثوباً ذو عراوى صفراء معقود بزئار (حزام) ويتدل من عنقه صليبا خشبيا يزن خمسة أرطال وتحتم على المسيحيين ارتداء عمامات زرقاء وعلى اليهود ارتداء أخرى صفراء . وحتى الحيوانات لم تسلم من مزاجه الشاذ فقد حرم استخدام السروج المطرزة باللصيح والفضة التي شاعت فيما قبل واستبدلت بسروج من الجلد الأسود .

وأمر الحاكم بإلقاء مخلفات القاهرة حلف أسوارها حتى يحميها من السيول التي تهب من جبل المقطم ولما تكونت التلال المعروفة (بالرقية) وظل هذا الجانب حاوياً من الصائر حتى سقوط الأسرة الفاطمية .

لست ستين عاماً (١٠٣٦ - ١٠٩٦) حكم مصر « محمد » حفيد الحاكم بأمر الله ، وهو ابن ابنه الظاهر من جارية سودانية ، تحت اسم المستنصر بالله . ولما يكون عنده أطول عهود ملوك المسلمين . وقد رآه ناصري خسرو في احتفال « قطع الخليج » ووصفه بأنه شاب صغير حسن الوجه ، حليق اللحية . وكان أحد ضباطه يظل رأسه من الشمس بمظلة مرصعة بالؤلؤ والإحجار الكريمة . وكانت ملابس الخليفة البسيطة لا تتواءم مع فخامة مركبه فقد اكتفى بارتداء قفطاناً أبيضاً وعمامة . بيده مولماً بالملذات الحسية ولما يبعده عن شخصية المسلم الورع . وله أقام في قصره في عين شمس خيمة أمام حوض ملأ بالخضر . واعتاد أن يقيم فيها حفلات يشترك فيها موسيقيون ورقاصات . ولما أراد أن يسخر من الكعبة المشرفة وبشر زمزم . وقده كان من رأيه أنه من الأفضل للمرء أن يقضي هناك وقته على أن يلعب لزيارة حجر أسود حيث يسمع أصوات مؤذنين ليحبه تدعو إلى الصلاة ويشرب ماء غير مستساغ (كذا) .

وتميزت شخصيته بالضعف والتردد وسيطر عليها الطامعون والمتآمرين . فلا عجب أن توالى على منصب الوزارة أكثر من ثلاثين وزيراً حتى عام ١٠٦٠ م حيثما قلدها إلى صهر الدولة وكان انساناً مستبدلاً اعتمد في الاحتفاظ بمنصبه على الواقعية بين فرق الترك والسود التي ألقت حرس الخليفة . فبعد أن صار قائداً للفرقة التركية ، مزى أوصال فرقة السود وسيطر على الخليفة وترك الترك يتهبون كنور القاهرة وتقطعا القية ومكتبة المستنصر الثمينة . ولم يضع حداً للفوضى سوى وصول نصر الجبال إلى منصب الوزارة وهو شخصية اتسمت بالحيوية والعزم .

وبالرغم من هذا اتسمت سنوات عهد المستنصر الأول بالهدوء ، على الأقل بالنسبة للسلطان . فلم تكن المؤامرات التي تنطوئ في القصر تعنى في شيء أصحاب الحواشيت والصياع . وقد ركز ناصري خسرو على الاحساس بهدوء واستقرار الحياة الذي تبعته القاهرة ، فكانما كان هذا ديبعا ميسرا معترة من السعادة قادمة .

لكن سرعان ما أتى الصيف مصحوبا برياح ساخنة وشمساً قاسية وجفافاً مدمراً وصحوا لكل شيء حول الأرض إلى صحراء . وكان ندر الجبال بمنايا الخريف بفاكتة القطة وحصاده الوفير لتعود القاهرة إلى النماء والازدهار خلال المشرق سنة الأخيرة من عصر المستنصر .



وقد قدر (ناصري خسرو ، مساكن القاهرة في ذلك العهد مشيرين ألف كل منها مكون من خمس أو ست طوابق . وكان إيجار منزل من أربعة طوابق إحدى عشر دينار في الشهر وقد طالب صاحب المنزل الذي رول فيه الرحالة بخمسة دنانير كإيجار شهري للطابق الأخير من منزله . وروى « خسرو » أن إيجاراً رفع إلى سقف منزله المؤلف من سبع طوابق عيالا وبعد أن كبر استغنى عنه ليحرق ساقية ترفع الماء إلى السطح حتى يزرع هناك أشجار برقاله وموز وفواكه أخرى .

وامتدحت بواب القسطل رقعة من الأراضي تملؤها الخضرة ، طول كل جاسد من جوانبها حوالي ميل إلى موسم الفيضان كانت تتحول إلى بركة عرفت باسم « بركة الحيل » تحيط بها الحدائق من كل جانب تظلم بجمالها القصر .

وقامت هناك كنائس للمسيحيين جنباً إلى جنب مع مساجد المسلمين . لحوار البركة بني لإبراهيم بن يوسف بمسلكه البديعة التي أولع الخليفة بالحفاظ بالنزعة فيها . وبها كان بئر العرج الذي كان تظله شجرة حمير عذلاقة ونفضاً عن هذا كان بالقساط سبع مساجد عامرة وقبائل أخرى بالقاهرة . وفي شهر رمضان عام ١٤٠٦ م زاد المستنصر في سمة المقصورة الموحدة في جامع عمرو من جانبها الشرقي والغربي ، وبناء على أمره شتمت على وجه المحراب لوحة من القطة تحمل اسمه منقوشا ، وطوق عمودى المحراب بطوقين من نفس المعدن . وفي شهر شعبان من سنة ١٠٤٩ م ذهب حائط القطة في نفس المسجد حول المنبر . وبعد ثلاثة سنوات أضيفت إلى الجامع مئذنة جديدة .

وفي كل عام كانت تأتي قافلة بحمل المسافرين إلى القاهرة التي كان

يربطها بحزيرة الروضة جسر من القوارب ، ومنها يمكن عبود النهر بقارب الى الجزيرة .



وكان بالسفطان سوق يسمى « سوق القناديل » حيث كانت تباع تعب فنية لا توجد في مكان آخر ، ومنها أوان من الفاييس (فخار مطل بطينية وحاجية) شديدة الرقة حتى ان المرء يرى من خلالها يدها وضعت فيها ، وأكواب زجاجية خضراء اللون رائحة الصبغة . ويذكر ناصري حصر ان من بهيمة كان ما يباع هناك لشغال الصنف مثل الصناديق والامشاط ومقابض السمكاكين ، وايضا كريستال دقيق الصناعة استورد من المغرب وأنياب الفيل من دربار يرن الواحد منها مائتي من ثلاثمائة وأربعين كيلو جرام . ويذكر نفس المؤرخ ان كميات الخصر والعاكهة التي كانت معروضة للبيع كانت هائلة ، وقد عُد منها أربعة وعشرين نوعا وكان السعر محددًا فاذا ما حاول البائع خداع الشاري قبض عليه وشهر في المدينة باركابه حصارا على في عتقه جرمًا حتى يقر بذنبه . وكان بالمدينة خمسون ألف حمارا استخدمت لتنقلات الأهالي ، أما العسكريين فاهتادوا ركوب الخيل .

كان الأمن يسود البلاد الى درجة ان الصائغ أو الصياد كان لا يزال بإغلاق حانوته أثناء تغيبه عنه بل كان يكفي به حمل أو شبكة غير الباب إشارة الى علم وجوده . وكان هناك كقبلا بمنع الدخول .

٩



كانت مكتبة القاهرة واحدة من أعظم مكاتب العالم الاسلامي حينذاك حتى لقد ضمت من عجائب الدنيا . وكان تديرها في عصر المستنصر حسادة لا تموض لحر في هذا العهد . احتلت المكتبة ارسين حجرة من القصر الكبير (ذكر بعض المؤرخون انها كانت تشغل صالة من صالات المستشفى القديم) . وكان بها ستمانة ألف وعليون مجلد تمثل مائة ألف كتاب في مختلف فروع العلوم والآداب التي كانت معروفة للعرب حينذاك .

وكانت كلها محفوظة في صوابرين مثقفة مفتاح وعلبها قوائم بها تحويه من كتب . وعين للمكتبة أمين وناسخين للكتب وحادين . واشتملت المكتبة على ٢٤٠٠ نسخة ملونة من القرآن وعل مخطوطاتها كتبت بيد ابن مقل وغيره من مشاهير الخطاطين . وحت أيضا ثلاثين نسخة من قاموس

عربي شهير هو « كتاب العين » للغليل بن أحمد ، وعلى عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه هو ، وعلى مائة نسخة من « سمرة ابن دريد » ، وغيره من الأعمال النفيسة وأخيرا فقد كان بها ١٨٠٠ مجلدا عن علوم القضاة . وكان بها أيضا صناديق حشمت فيها السلام براها « ابن مقللا » « وابن البواب » وغيرهم من مشاهير الخطاطين .

وقد أنشأ القاضي الفاضل معهد في القاهرة حمل اسمه ، ونقل إليه مائة ألف مجلدا ، أمي بها من مكتبة القصر .

وعندما كان الخليفة يرغب في ريازتها ، كان يأتي إليها منتظيا صهوة جواده ثم يترجل عند الديوان الذي كان موضوعا في القاعة وعليه يجلس ، ويأتي إليه أمين المكتبة حاملا القرآن والكتب التي يطلبها الخليفة . وإذا ما أراد الخليفة مطالعة كتابا ، أحضه معه ، ثم رده فيها بعد . وقبل أن يفادحها كان الخليفة يتجول فيها بعض الوقت متأملا ذخائرها ثم يفادحها بعد أن يمنح القائم عليها عشرين دينارا .

وقد أخذ الجنود لتترك كل تلك الكتب وفاء لرواتبهم المتأخرة والتي كانت بلا شك أقل بكثير من قيمة الكتب . ولم تلجؤ من أيديهم سوى الكتب المحفوظة في القاعات الداخلية قرب مساكن الحريم حيث لم يكن يجرؤ أحد على الدخول هناك .

وفي هذا الوقت أيضا وبالتحديد في عام ١٠٦٩ هـ هب الفوغا « دار المعلم » التي أسسها الحاكم بأمر الله وذلك أيا من الاضطرابات التي صاحبت سقوط مصر الدولة . وقد انتزع العامة أغلفة الكتب ليصنعوا منها تماثلا للأحذية بينما استغصمت الأوراق وقودا . وقد نال حاكم الاسكندرية لسمما من هذه الكتب ، ونقله إلى مدينته وعند سقوط الاسكندرية في يد قبيلة من البربر ، أحرق البدو بعض الكتب واقتنوا من جلدتها أحذية .

أما القسم الآخر من الكتب فقد ترك أكواما مهملة في قلب الصحراء فخطاها الرمل تدريجيا مكونا تلالا صفيرة سميت تما لهذا « تل الكتب » .



في عام ١٠٧٣ م عين المنتصر بالله بدر الجبال حاكم دمشق الفاطمي السابق وزيرا . وكان الوزراء السابقون قد سيطروا تماما على المستنصر وبمساعدة المرتزقة من الترك هبوا البلاد بمعنى الكلمة . وفي صهوة من المستنصر قبض على قائد الحرس التركي وأرسل رسالة إلى بدر الجبال يستدعيه لإدارة البلاد . وقبل هذا على شرط أن يصطحب معه جنوده

السوريين ولم يرتاب الجنود الأتراك في بوابه عندما أتى إلى القاهرة لكنه كان ممرمة على التخلص من ماثليه . فامر كل جندي حر جوده بقبل أحد الصيقل الأتراك (١) وفي اليوم التالي أتى اليه الجنود السوريون وكل منهم يحمل رأسا من اذنيها أو من شعرها أو يحملها بأصبع أولجه في قم القائد التركي الذي كلف بقتله .

أجنت العشب القاصد وآل لليرة . لطيفة أن تنمو . كان بدر الجمالي حاكما كفا وعادلا ونعت قبضته الحازمة تمصت القاهرة بفترة طويلة من الرخاء وعاشت مرة أخرى ولأول مرة منذ عصر العزيز قبلة للمعماريين . في عام ١٠٨٧ م أعاد بدر الجمالي بناء سور القاهرة حتى يشمل فيه الأحياء التي تمت خارج إطار المدينة القديم في الشمال والجنوب ، وبني أو أعاد بناء بعضا من المستنق بوابه (٢) وقيل أن ثلاثة أشتاء قسوا إلى القاهرة لبناء ثلاث من بوابتها على الطراز البيزنطي وهم « باب الفتوح » و « باب النصر » و « باب زويلة » . والباب الأخير قد حل محل « بابي زويلة » القديمين . وأمامه أقيم ميدان واسع رصفت أرضيته بحجر مصقول حتى تشرق عليه منايك حبل أي عدد قد يهاجم المدينة . وقد سبقت ولاية بدر الجمالي لمنصب الوزارة لفترة أشبهت الوباء والمجاعة في مصر مما أدى إلى أفتار القاهرة . وقد اعتزم بدر على أن يعيد العمران إليها ولجأ إلى انتزاع مواد البناء من خرائب المعسكر والقطائع . وهدمت المنازل التي رفض أو أهمل أصحابها في إصلاحها وأستخضمت أسجارها في تشييد عماري جديدة مما أدى إلى اندثار جزء كبير من حائطي المنطقتين اللتين كانتا قد أفلرتا من السكان بفعل المجاعة والوباء وصارت أكواما خرابها أشبه ببراكين متناثرة خامسة انفصلت بذلك القسطل تماما عن القاهرة التي انصمجت فيها المناطق السكنية الملاصقة . . وحول جامع عمرو وأبن طولون ظهرت مدينتان صغيرتان وأضاف الأفضل بن بدر الجمالي جامعاً جديداً في عام ١١٠٤ م بالقرب من بركة الجيش سمى « جامع الفيل » لأن القنطرة القائمة أمامه يعقودها النسخ كمت توحى لمن يراها يوم العيد عندما يمر عليها موكب يمتظر قبل جعل رجلا مصليين .



تجلى ثراء 'خليفة في الواكب الاحتفالية التي كانت تتكرر على مدار

(١) يقول انه دعى الصيقل إلى مأدبة في القصر الكبير جعل خلف كل منهم جديدا من جنوده وبالشارة منه أطعموا مرتاب أعلاه لم أكن بجندهم في بحر في القصر .
(٢) بلاكك بوابات طرقت القاهرة .

العام فلم تكن تقل فيها عدة القوس في روعتها عن ملابس صاحبها وكانت مروج الحبل توشى بالذهب والفضة وتطعم بالأحجار الكريمة البراقة ولما اعتاقها الخيل فترين يسلاسل من ذهب وعنبر وحول اقتادها خيتم أجراس صغيرة من الذهب ترسل ريتنا في كل خطوة فلا عجب أن وصل ثمن الجواد أحيانا إلى ألف دينار . وفي أول أيام السنة كان يطرق بالمدينة موكبا ، في مقدمته يسير فولاد الأمراء واصنافهم ثم مجموعة من الجنود تمثل فرق الجيش المختلفة، يتبعهم الأمراء الأقل منزلة الأمراء ذوي السيوف المكشوفة بالفضة ، والأمراء ذوي الياقات الذهبية (١) ، « وشاهد العاج » (وهم الخدم المنوط بهم شد تاج العتيقة) ثم يأتي أهل بيت الوزير وعلى الحساب يسير حاملا لواء المعبد (٢) ، وأخيرا يأتي حامل انفاة (وهي مجرة من الذهب مغطاة بالؤلؤ) وحاملوا السيوف وكل منهم يسير محاطا بمشيرة إلى عشرين تابعا .

ثم يأتي الخليفة على صهوة جواد ديتت جبهته بياقوتة هلالية لشكل ويتبعه فرقة من الحياالة الخفيفة يقودهم ولي القاهرة وكانت مسئولية حفظ النظام في الطرقات ملقاة على عاتق كل صاحب الباب (رئيس الشرطة) - ووالي القاهرة والأسفهلدار (قائد الجيش) وكان كل يحمل دبوس قتال في أجل هذا لغرض .

وصارت خلف الخليفة كوكبة من الحياالة الخفيفة لحمايته . وجاء بعدهم حسب الترتيب التالي عشرة رجال كل منهم يحمل سييفا في صندوق يغطي بحميرا أحمر ثم انظر يعرف هذا السيف بأسم سيف الدم ثم يليهم حملة الأسلحة الخفيفة ، ومن بعدهم الوزير مراديا حلة فاخرة متبوعا بخصماسة رجل ثم فرقة حسيبان الزرد ويليهام الموسيقيون من قارعي الطبول ولاعبي نصح والصفاير التي تلف موسيقاهم الموكب . ثم يأتي حاملو الخراب ودروعهم مغطاة بالذهب وهم ينسبون إلى حمرة هم القيس ويليهام الملاحون ومن بعدهم الرعاة من الجزيرة العربية ويلهم عندهم بخصماسة قاربيا ثم المشاة من البربر ومن بعدهم الفرجة (وهم جنه من العرب لقوا بهذا الاسم لأنهم قهروا الفرجة) ومن خلفهم يأتي حوالي أربعة آلاف جندي من فرق مختلفة ويليهام أصحاب الرايات (وهم فرقة استجرت من الاصحار وقريش الخ ٠٠٠) وكانوا يحتفظون براية

(١) هذه ترجمة الكتاب في الأصل الفرنسي ، ولكن لفريري الذي اعتمد عليه المؤلف

على وصفه يذكر « أزياب القصب » ، « أزياب الخفاق » .

(٢) *Etalre* في الأصل ، ولكنها في النسخ العربية « الصه » .

تسلموها من عمرو بن العاص ومن هنا جاء أسمهم) ثم تليهم وحدات مختلفة من الجيش من الأتراك والكرد يبلع عندهم جميعا ثلاثة آلاف رجل . وكانت الموسيقى المنوعة بصمق الاعلام التي يصفعها الهواه مع سنابك الخيل تهر الأرض هرا بينما يشق المركب طريقه وسط هتاف أهل القاهرة البسطاء ، التي تقطعه شهبات الاعجاب المصومة لدى رؤية الخليفة وصفوة أهل البلاد .

كان المركب يبدأ من قصر الخليفة قاصدا صهريجا مشيئا عنه باب النصر ومن هناك يتجه نحو باب الفتوح ليحود إلى القصر عبر بين القصرين وهنا يتوقف الجند وينزل الأمراء عن جيادهم ويتوقف الخليفة أمام حاسم الأقاليم بالقرب من القصر الشرقي . ويتفصل الوزير عن المركب ويسرع بجواده نحو الخليفة حيث يقدم له فروش الولاء والطاعة فيرد عليها الخليفة بحركة خفيفة من يده وهي تعبر عن أسى شرف يمكن لمخلوق أن يناله من الخلفة . ولا كان الوزير يلقب وحده برب السيف فقد كان أحيانا يحظى بهذا الشرف وعندئذ يعود الوزير مسبوقا بالأمراء وأهلين إلى القصر ويفتحون إلى صالة الأعيان التي كانوا قد خرجوا منها وعندئذ يتبرجل عن جواده ويصطف مع الأمراء في انتظار لقوم الخليفة .

وعندما يصل هذا إلى القصر ينزل أتباعه عن جيادهم ويقفون الخليفة المتطفي صهوة حصانه إلى القصر . ويأتي الوزير للآفاته ويحييه ثم ينصرف مع الأمراء بينما يذهب الخليفة إلى مخدعه ، وعندئذ ينصرف كل إلى حاله سائرا على قدمه أو راكبا حواده أو تابعا لفرقة .

وكتب الفيلسوف عن هذه المراكب « كان الناس يستمتعون بتلك المراكب ومحبون بها ثم يعودون إلى منازلهم » (١) . وعند عودتهم كان الناس الذين اشتركوا في هذا المركب يحملون عندهم هدايا مرسلية من الخليفة : مثل دبابير مربعة ودرهم منقورة ضربت خصيصا في الأيام الأخيرة لشهر ذو الحجة لتوديعها في بداية السنة الجديدة على البلاد . وكانت احبار تلك المراكب ترسل إلى كل من ممن مصر .



وفي مقابل ثراء تلك الطبقة عاش البسطاء من تصنع والماملين حياة خشنة . تجسدت فئات الصناع والتجار في أسواق كانت تقطن ابوابها ليلا ويحرسها حراس يدفع روايتهم أصحاب الحوانيت في كل

(١) ترجمة عن النص الفرنسي .

منطقة • وكان على من تضطروا الظروف الى التاجر ليلا معرفة كلية السر
ليتمكن من المرور •

وكان لكل مهنة تقريبا سوق خاص بها ، الا ان الحجارين والسوائين
وباعة المشروبات وأصحاب المطاعم انتشروا في كل مكان • ففي سوق
الحدادين كان المرء يرى الصنائع متكفتين على اصنامهم وقد غطاهم سواد
الفحم والسناج ، وقد أخذ بعضهم يثبت حدوات لحيوانات البحر • وكان
يوجد عند قليل من البياطرة احتسوا بمعالجة الكسور والجروح وتوليد
الحيوانات المستأنسة ومعالجة ٣٢٠ مرضا من أمراض الحصان • أما
الآخرون فخصصوا في المسبوكات البرونزية والحديدية كالاسلحة
والاجراس ومقارن الأبواب والمصابيح • الخ • وقد فرض عليهم السلطان
كتابة عيار السبيكة المستخدمة على مصنوعاتهم سواء كانت قطعة كاملة
أو أجزاء • وعلى هذا كان نم المصالح يحصل عيار سبيكة مختلفة عن
جسمه • وكان من يصده منهم الى غش السبيكة باضافة الرصاص أو يعل
كتابة العيار • يعاقب • أما صناع الخناجير فكان عليهم ان يمسوا عينا
لذا ما ضبطوا يصنعون مقاييس مختلفة صنعوا من مبارسة صناعتهم •

وعلى يد منهم اقام مبيضو النحاس والمرايا حوانيتهم ؛ وفي سوق
الصاغة كانت تباع حل حقيفة الى جانب أخرى مغلدة وقد ظهرت تلك
الأميرة منذ القرن الحادي عشر الميلادي وهنا كان الصانع يضع الى جوار
اللائه والأحجار الكريمة لمالية الشمس حل من نحاس مذهب ورجاج مصقول
حلون •

وكان الحائكون يصنعون الملابس اما بالجملة أو حسب الطلب
وهؤلاء الآخرون كان يوزون القماش الحرير الذي يضطروا الربون ثم
يتمهون بتسليسه ثوبا يمثل هذا الوزن في طرف مسجوع • وقد تمتع
الاسكافيون بقدر كبير من الأهمية حيث لم يرته القباقيب الخشبية سوى
الفقراء • أما الآخرون فكانوا يرتدون أهدية الرخيص منها صنع من جلد
الحمار ، أما الأهدية الفاتية فكانت تصنع من جلد الزراف • أما جدد
الخنزير السرى فله كان محرم الاستخدام في تلك الصناعة • وعلى عكس
الحاكيين اشتهر عن الاسكافيين علم الأمانة والفقة فقد كان بعضهم يحضر
بين طبقات الجلد المكونة لتمل الحذاء الورق ومزق من قماش • وأحيانا
كانت تصنع نعال القباقيب تماما من القماش • فقد كانت تصيحات
القماش الطويلة المستطيلة تجمع بعضها فوق بعض ثم تثني في طبقات
صغيرة منتظمة كالكورديون ثم تضغط في مكبس • أو عندئذ تخبث

بواسطة مسيور رفيعة من جلده البقر تنفذ خلال ثقب طولية أحدثت
بواسطة مترارز رقيق سخن الى درجة البياض .

واعتاد تجار السجاد على بسط بضائعهم في قلب السوق وتحت
أقدام المارة لانيات حودتها وقد تخصص بعض الصانع في اصلاح الألوان
الخزغيفة والصينية المكسورة وكانت عدتهم عبارة عن مقاطع من النحاس
يمسكون القطعة المكسورة بها حيث يضمنونها في مكانها ثم يسطونها بلمصق
من بياض البيض المخروط مع الجير .

ومن بين المهن التي اشتهرها البسطاء كان الحواد التي يصنع آلة
العود والقانون والجار الذي يصنع للفرقيات وقطع الآلات الصغيرة
المطعمة والصناديق من الخشب الفاحر المطعم بالصفى والماج والفضة .
والى جوارهم كان هناك تجارون مختصون بصناعة المقاعد والاسرة من
خلوع الخيل ومن زعمها كانت تصنع السلالات والكتانس والمذبات .

وفي أسفل السلم الاجتماعي عانى شظف العيش تجار السكسوليا
الذين كانوا يطوفون بالأسواق والشوارع يجمعون الخرق والملايس القديمة
وهم منظمي البنية ، وكان المرء يرى هؤلاء في الشوارع حاملين عمل
آلاتهم انابيب من الصفيح وقصبة مجوفة تخرج منها أسلاك وحقيبة
من جلد تحوي على نسالة خرق يلقونها حول احد طرفي السلك ويولجونها
في ثوب القليون .



وقبل أن نترك المستنصر لا بد لنا من كلمة عن الكسور التي كان
ينص بها قصره . فوصلها سيطيتا لحة عن الفن الإسلامي في هذا العهد
وهن أوجه انطاق الخليفة . ولتبدأ بطاوس مطعم بأغص الأجار الكريمة:
هيناء كانتا من الياقوت وريشه من الينا الملحية ، التي تعددت ألوانها
بألوان طاوس طبيعي . وننتقل الى ديك شكل عرفه من الياقوت وكسي
تماما بالآلء وبأجبار كريمة عالية الثمن . أما صدره الأبيض فكان من
أجود أنواع الآلء . ثم بطيخة من الكافور وزن سبعين مثقالا . حوالى
٣٢٠ كجم ، نظها متارة مذهبة ومرصعة بالأجار النفيسة ، ومائة من
الياقوت تسع عنة لمخضاض ، ثم تفضة من ذهب مرصعة بالآلء الرائعة
والأجار الكريمة موضوعة في صندوق من ذهب وبلها مشكل من
النواحر التي تشبه في مختلف درجات نقشه . ويذكر الميرزى أيضا
أربعمائة قصص كبير مغطى بالذهب مملوءة بجواهر من كل صنف وقبيلة
مرصعة بالأجار الكريمة تسلاوى ١٣٠٠٠٠٠ ديتار وزورق بالنجم
الطبيعى يهرشه وقمرته صنع في عام ١٠٢٥ م بأمر أحمد الجرجاوى وقد

استخدم فيه ١٦٧٧٠٠ درهم من الفضة ودفع لصانقيه ٢٩٠٠ دينار
كأجر عن عملهم . ويذكر أيضا حوض وأبريق من الكريستال ، وأناقيل
من كريستال شديد الشفافية وصناعة رائعة وحل كل منها نقش اسم
الخليفة العزيز بالله . و ١٠٠٠٠ إله من الكريستال أيضا يساوي الواحد
منهم ألف دينار . وحديقة أرضها من فضة منقوشة ومنحبة وترتبا من
عنبر أصفر ، وكان بها أشجار من الفضة تمثل منها فاكهة من العنبر
وكثير من المواد النفيسة .

لن نحاول هنا أن نقتبص تفصيل حكم كل خليفة فاطمي أو ملك
آخر على حدة فليس العرض من هذا الكتاب تقديم تاريخ لمصر بل تاريخ
لمدينة القاهرة . ولنا لى نتوقف الا عند هؤلاء الذين أحدثوا أثرا في
المدينة أو غيروا من مظهرها . ولم نعهد فترة القرنين التي شغلتهما
الأسرة الفاطمية مولد أعمال أدبية عظيمة . فمناخ انعدام الأمن الذي ساد
البلاد لم يسمح على العمل الذهني الهادئ . وقد كان انعدام الخليفة
الحاكم بأمر الله للشاعر عبد الطاهر عبدة لكل من يراوده شيطان الكتابة
ويريد أن يحفظ في نفس الوقت رأسه على كتفيه . ومن ناحية أخرى
تجنب الكتاب السنيون الخلفاء الفاطميين لاختلافهم عنهم في المذهب لكن
هذا النشاط الذي انعدم في الأوساط العليا من المجتمع وجد مثقلسا في
أوساط الشباب من الطلاب وموسى الجامع الأزهر .

وان افقر الفاطميون الى الثقافة الأدبية فقد كاسوا فنانين عظماء
سحروا لروثهم الطائلة في خلق تحف فنية وكاسوا بلا استثناء وكادوا
وزرائهم مولعين بالمسافة . وتنهض الجوارح المختلفة من هذا العهد دليلا
على ولعهم بالرخامة والذهب .

صلاح الدين والقلعة

في عام ١١٦٩م تولى صلاح الدين والدین يوسف بن أيوب المعروف في الغرب باسم صلاح الدين Sa'adin إمارة جيوش مصر ، وقد عبه في هذا المنصب الخليفة العاضد الذي مات في عام ١١٧١م وبعد ثلاث سنوات من توليه المنصب تقلد سلطنة مصر معترفا بالولاء لخليفة بغداد الذي لم يكن أكثر من صورة دون أي سلطة حقيقية مما جعل من صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر .

كان صلاح الدين رجلا رقيق الحاشية الى حد التحمل أحيانا ، وقليل ما كن يتخذ زمام المبادرة لكنه كان سياسيا مكنكا ذو رأي صائب . وتمتع بمقدرة على انتقاد مستشاريه والإصفاء اليهم وهي مقدره هامة لأي ملك ، كما تسير بالصلق في وسط كانت تسميه الحديمة ، وبالتسامح الا قريبا يتعلق بسلامة المقيدة . وقد خاص غمار الحروب طيلة حياته رغم رقة بيته . وانصبت أخلاقه بالثبته والفروسية وكانت تملؤه روح المظف والحب مما أثر في أفكاره وأفعاله . كان دعوا على عمله ، بسيطا في حياته ، عميقا في إيمانه حتى مثل بحق الصورة المثالية لعارس عربي .

لقد شارك في حملات عدة وصم الى ملكه أرض تهر القرات ودمشق وانتصر على الصليبيين في حطين انتصارا حاسما ثم استطرد منهم القدس

ومعظم الأرض المقدسة ثم مات في عام ١١٩٣م في دمشق - وكان من بين الستة وحسين عابدا التي عاشها ثمان فقط قضاهما في مصر .

ومع ذلك قديمة القاهرة تدعى له بالكثير ، فليد كاي نثاره لقلمه
الجيل بمثابة عود ففري لذلك التجمع السكتي في سطح جبل المقطم ،
ومعد ان تم بناء القلعة كان للمدينة ان تتميز بالعزة والزهو وقد امتدت
هيئة وقورة كرجل وضع قبضته على رأسه ، وكان لمصعد على بعد ستة
قرون من هذا التاريخ ان يتم ما بناه صلاح الدين بتفصيل جامعة السامق
في سماء قلعة الجيل وكانها كان به وضع ريشة في قلعة القاهرة .

بعد سقوط العاطميين ورع صلاح الدين القصور العاطمية على اقاربه ووقوده أما فهو فقد حكم مؤقنا في حار الورقة الواقعة شمال المدينة . أما ميدان باب القصرين والميدان الواسل الى قصر الشموك والبستان الكافوري وباب العيد فقد تركت للامة .

وفي عام ١١٦٧م أمر صلاح الدين ببناء قلعة على شرف صخري في
 سفح المقطم . وقد تمت تلك القلعة ببناء صخري عظيم فقد قيل أن
 اللحم المحفوظ فيها لا يفسد الا بعد أربعة وعشرين ساعة من مثيله المحفوظ
 في القاهرة . وقد استغل الطولونيون في بناء للترغية عرف
 بقبة الوداد . ولكن الفاطميون قدوا بتصريح الحصن الشديد في السهل
 بيد أن صلاح الدين لاحظ على التو خضع هذا الموقع الشديد من الناحية
 الحربية فأى علو يتمتع بكثرة في الرجال والعتاد الحربي وعاقده الصرم على
 النصر يمكنه بسهولة احتلال القاهرة بل ان ثورة بسيطة شعبية يمكنها ان
 تشكل خطرا على المدينة نظرا لملاصقتها لسطوحها يسكنها العامة ومن ناحية
 اخرى لابد أن صلاح الدين السني المذهب ظهر من مكنتي قصرى الخلفاء
 النسميين . فضلا عن أنه كان قد رأى المنى في سوريا مرودة بقلع تحميها
 وقد علمته التجربة أن المدينة كثرة المستطع يمتلئ بقلعة صامدة فتشكل
 ملجأ للأمان وقاعدة للمقاومة يمكن منها استعادة المدينة مرة أخرى . وأجيرا
 فقد رأينا فيما سبق حرص كل أسرة حاكمة على أن توسع العاصمة باضافة
 قصور وأحياء اليها وبنا كتبت المدينة في الاتساع في الاتجاه الشمالي
 الشرقي كمسجدة ضخمة تفرد شيئا فشيئا . قلنا اعترم صلاح الدين على
 ضم المنى الأربع المتواليه وهي القسطنط والمسكر والتقطاط والقاهرة في
 مدينة واحدة ، وهو شرط أساسى لمدى المدينة سواء متحاسبا منطعا .
 وبدو أن السلطان قد تنبأ بمستقبل واهل للقاهرة بالامتداد الذى يتصل

و يسلو أن السلطان قد تنبأ بمستقبل راهر للقاهرة بالامتداد الذي ستصا

اليه وامكانية دمج القسطنطين فيها يوما ما مما يمكنها من ان تستعيد الحياة مرة أخرى بفضل هذا الاندماج .



وكان اختيار هذا الموقع لبناء القلعة اختيارا بديها يمكن تلخيصه في الأمر والمهانة . ولما كان صلاح الدين عارما على احاطة القسطنطين والقاهرة بسور واحد كانت تلمحه نقطة يشيده عليه قلعة يسيطر منها على المدينة ويسهل عليه الدفاع عنها وتكون على بعد كاف من المدينة حتى يستحيل عليها بهجوم غير متوقع . وفي الوقت نفسه كان الهدف منها أن تكون مقرا ملكيا مثل فرساي في فرنسا يليق بالأسرة الجديدة .

أما قلعة الضنبل الوحيدة في البناء فكانت في وجود منحدرات صخرية تعلوه في الجانب الغربي منه . ومما كان يمكن السيطرة على القلعة التي تشرف على القاهرة بيد أن هذا الأمر كان مستبعدا في هذا العصر الذي كان السلاح فيه لا يعتمد المنجنيق والقلاع والسهم .

بدأ العمل في القلعة في عام ١١٧٦م لكنه لم ينته الا بعد ثلاثين عاما في عهد الملك الكامل ابن آخر صلاح الدين ومنذ ذلك الوقت جدد سورها مرات ومرات حتى صار من المتعذر علينا تمييز البناء الأصلي . ومع هذا فقد وصل اليها النص التأسيسي الذي يحمل اسم مشييدها وهو موجود على « باب الفرنج » وهو عبارة عن لوحة رخامية تحمل نسمة سطور من الخط النسخي الأيوبي .

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا قَاتَلْنَا لَكَ قَتْلًا مَبِينًا ، لِيُظْهَرَ لَكَ أَنَّ مَا (١) تَقْدِمُ مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأْخُرُ وَتَمَّ نَحْمَتُهُ عَلَيْكَ وَبِعِيدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيُصْرِكُ اللَّهُ لَصْرًا عَزِيزًا . قَرَأَ بِأَنشَاءِ هَذِهِ اللَّقَائَةِ الْبَاهِرَةِ الْجَوَارِ (الجوار) المعروسة (٤) القاهرة بالعمرة ؟ (تعني الجسر أو الجاهز الذي يمر على السيل) التي جعلت قلعا وتحصينا وسعة على من التجو (هكذا في النص) إلى قل (٥) ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو (٦) نللك الظفر يوسف بن أيوب مهدي دولة هب الزمان (٧) على يد أمير مملكته ومعين دولته قرطوش بن عبد الله الملك (٨) الناصري في سنة تسع وسبعين وخمس مائة . »

اشرف على العمل النص « طواشي » قراقوش الذي اتخذ المصريون لسوء حظه العربي من سيرته مادة للضحك والعت ووصفه المؤرخ السيوطي بأنه كان رجلا صالحا رقيقا لكنه سادج . وتصوره الكثير من نوادر عهده بصورة مضحكة ، فقد روى أن امرأة مات زوجها ذهبت اليه ترجوه أن

يمنحها بعض المال لفراء كقن له فأجابها « إن مال الزكاة لهذا العلم قد
نفد ، فتعالى العلم القديم إن شاء الله وستعطيك كفتنا » -

انفتح البحر اللام لبياء القلعة من الأهرام الصغيرة بمنطقة الجيزة
وقد ذكره ابن جبير ، أن البناء قد تم في عام ١١٨٢م وقد استحدث في
إنشائه أسرى الحرب من الفريجة وعدد غير محدد من الفلاحين الذين سخروا
لهذا الغرض كما كان الأمر شائعا في الماضي للحصول على أيدي عاملة
مجانبة . وبمرق وآلام الفلاحين المصريين وأبناء فرنسا أصبحت ترتفع
الأسوار المزودة بأبراج حصينة من على الأرض الملتحية بالنخس ومن بين
سجانات القبار الذي ملأ المتاجر . وحجر يثر في الصخر هو « يثر يوسف »
وان ذكر بعض المؤرخون أنه كان موجودا منذ زمن بعيد بيد أنه كان
مطلوبا بالرمال ويبلغ عمق البئر ٨٤ مترا وهو منقسم الى جزئين كان في
العلوي منهما ساقية ترفع الماء الى القلعة .

ويبدو أن الملك الكامل أضاف الى أبنية القلعة ، لكننا لم نعث لهذا
على أثر ومع هذا يذكر المؤرخون جامعا وبوابات وحظائر وأبراج حمام
حصنت لتربية الحمام الواجل الذي كان السلطان يفضل على اتصال
دائم بمسوريا .

وبنيت السلطنة الشهيرة شجرة الدر ، صالة الأعمدة ، التي كانت
تسبق حجرات السلطان وكان بها عرشا من الذهب وعدد من الأواني
الذهبية والفضية . وأسمت فرقة موسيقية عسكرية « نوبة الأميرة »
التي كانت موسيقاها كل مساء في القلعة . وفي إحدى حمامات هذا البناء
لقيت شجرة الدر مصرها عام ١٢٥٧ صريا بالقباقيب على يد حفنة من
الجواري . وقذف بجثتها شبه المارية في خندق حيث لبثت أياما نهشتها
فيها الكلاب . وفي القلعة أيضا استقبل السلطان بيبرس البندقداري في
عام ١٢٦١ الخليفة الصامى المحتشم (١) الذي فر من بغداد أمام المنول
وهناك قلده الخليفة عبادة سوداء مفضاة بالذهب وعبادة أرجوانية والسلسلة
وخاتم العرش من الذهب ما جعل منه حاكما فرعيا لمسلمي مسوريا
والجزيرة العربية ومصر .

تحت حكم المنصور قلاوون الذي شغف بالمصاراة ازدادت القلعة
بالعمائر ولم يحدد هذا السلطان في عهد جميع منشآت سابقيه تقريبا .

(١) هذا ما ذكره للأول - أما خليفة الأمر فإن آخر المنفاه السياسي كان الخليفة
للمستعصم بالله الذي قتل على يد المنول . أما الخليفة الذي استقبله الظاهر بيبرس فكان
للمستعصم بالله اسمه .

حتى يصبح الجبال لمشاته التي أنزل بها حلماؤه بعد موته على المصير .
 في عام ١٩١٨ هدم ابنه الباصر محمد مسجدا وشيّد في موضعه مسجدا
 آخر يحمل اسمه الى يومنا هذا . ويرى عنه المقيري انه كان مريضا
 بالرحام بربه لوحات مرصوفة بالذهب . وفي وسطه قبة منتخفة الجوانب
 يسما قسمت الدوافد الذهبية مصبغات الى مربعات صغيرة . وتظهر ذات
 القمم البصلية المكسوة بالقيشاني تائيرا فارميا يحتا ويرى هنا المتخصصون
 دليلا على تأثير معماري هذا العهد بالممارسة الماغولية . وقد شيّد الباصر أيضا
 الايوان الذي عرف فيما بعد « بدوان يومئذ » . وقد حملت قبته الهائلة
 أعمدة جلست من الصعيد وفي وسط القاعة نصب العرش وكان من الحاج
 والأبنوس . كما يسمى « القصر الأبلق » ، الذي عرف بهذا الاسم لآل واجهته
 كانت ملصيك صفراء وسوداء متناقه . زينت الجدران والأرضيات بالرحام
 والفسيفساء الذهبية وتملأت ألوان جدرانه الى ألف لون وامتزج اللارورد
 مع الذهب على سقفه . توجت الجميع قبة حصراء يغد عن حلال نوافدها
 المزينة بالحراج الملون القبرصي الضوء الذي تمكسه الجدران على القيواب
 فكأما هو جوهر منثور - واحتفل السلطان بافتتاحه احتفالا عظيما ورج
 فيه خمسين ألف دينار على الفقراء وحلج على الصغار والعمال ألفي
 وخمسمائة ثوب . كما حول الميدان الى حديقة ، فقد حفر فيه آبارا لترويه
 بالماء الدائم . ثم رجع فيه أشجار فاكهة ونخلا كما شيّدت قناطر لنقل
 الماء من النيل الى القلعة .

كانت أعمال محمد بن قلاوون نقطة الفروغ في تاريخ القلعة فقليل
 حنها ما تغير خلال الخمس قرون التالية ويرى المقيري حادثة غريبة حدثت
 في عام ١٣١٨م فقد ذكر أنه في أثناء إحدى الفتن دمّرت كنيسة كانت قد
 بنيت سرا في القلعة في تكتات (طباق) المباليك انتثار ، ويبدو أن بعض
 هؤلاء كانوا مسيحيين .

وفي عام ١٣٥٩م شيّد السلطان حسن مؤسس المدرسة العلية التي
 تحمل اسمه والموجودة أمام القلعة قاعة في القلعة قاعة عرفت باسم
 « النيسرية » التي تؤلف جزءا من الحرم ، وكانت تضم فيها أربعمائة
 ثرية (١) تحمل الشموع . وكان ارتفاعها اثني وثلاثين مترا وعمل فيها
 برجا من الحاج والأبنوس ، واستخدم في تزئينا الذهب بأصناف حق
 أن المقيري قال « يكاد يذهل الباصر اليه (بريق الذهب) » .

كان أهم مزايا القلعة ملا شبك المنظر الرائع الذي يسيطر أمامها
 والذي وجد الكثير من السلاطين قمارا كبيرا من المتعة في قاطعه . وقد روى

(١) ٤٩ ثرية حسب المقيري .

المؤرخ ابن اياس في أحداث عام ١٢٩٥م أن السلطان برقوق كان يتأمل هذا المنظر حسبا لمح حمية منصوبة على جزيرة الروضة فأرسل أحد أتباعه ليتقصى أمرها فعاد اليه وأحبره أنها تخص « الصاحب كريم الدين » وأصدقائه وأنهم يلهون هناك ويشربون الخمر التي يصرعها الاسلام . فاستدعاه فوراً السلطان وأمر بتزيمه خمسين ألف دينار وبجلده وختم ابن اياس روايته متعجباً « فكان هذا من الأمور الغريبة » .

وعندما احتل الأتراك القلعة في عام ١٥١٧ انزعوا قدراً كبيراً من الصمغيساء واللواح الرخام والأحشاش وغيرها ونقلت جميعاً بالماركب وأرسلت الى استنبول . وفي الطريق غرقت إحدى السفن فطوى البحر ما كانت تحمله من كنوز . وفي مقابل ما انزعوه من تحف شيد الأتراك في القلعة مسجدًا في عام ١٥٢٨ هو أول المساجد العثمانية في مصر وسمي مسجد سليمان لكنه عرف لدى العامة باسم « سيد سارية » نسبة الى أحد الصحابة المدفون هناك وقد قيل ان بعض المماليك الذين قتلوا في مذبحة القلعة سنة ١٨١١م دفنوا هناك أيضا .

ومعد الغزو التركي لم تعد القلعة مقراً للحكام بأمر من السلطان سليم العثماني وقد علل الانفصال امرئسي مايه *Melike* القرار الى خشية السلطان من تفسد عليه كبار موظفيه فآلوا الى الذي سيقطع قصراً أغخم بكثير من ديوان السلطان في القسطنطينية قد يشكر في الاستقلال عن الامبراطورية وصارت القلعة تكات للغرب (جنود المقاتلة) واستخدم القصر الأبلق كمسجل تصنع فيه كسوة الكعبة الحزينة .

وقد أجرى محمد علي في عام ١٨٣٠م تزييناً جديداً في القلعة حتى لم يبق من البناء الأصلي سوى السور والبئر ، وبنى فيها جامعة الذي اكسبته مئذنتاه المدينتان ولبنته الساحة منظرًا رائعاً وسط القلعة المشيدة غير أن الإضافات أخرى بيئت فوق سقيف أفسدت هذا الإطار الرائع ومنها الساحة التي أهداها « لويس فيليب » ملك فرنسا الى محمد علي والتي وضعها في برج صغير مربع . وفي الركن الجنوبي الشرقي أضاف « قصر الجوهرة » الذي تشرف نوافذه على القاهرة ووادي النيل وهو منظر من أبدع مناظر الدنيا .



تغطي القلعة بثقلها وقوتها انطباعاً بقوة متوعدة شريفة . فبعد أول أيامها أخذت الشاحات تروج بين الناس عنها . وكما ذكرنا في قبل اترعت الأحياء اللازمة لسائرها من أهرامات صغيرة ولذا تهاوس الناس بأن شحها هائلاً يظهر ليلاً حلف جدران القلعة التي تنصساعد تدريجياً على جبل

الملك - وهو شيخ فرعون الذي انتهك قبره جاء ييكى حطام قبره الأبدى .
 وكان الناس يسمون إلى تحية الأوبئة والفس والجذاعات التي تصيبهم
 والمصائب التي تحمل على أودية القلعة . وعزوا إليه أيضا مصرع الملكة
 شجرة الدر المنجى الذي ذكرناه آنفا .

وأرجع الناس أيضا كثرة الفتن والحرائق في عصر الناصر ابن قلاوون
 إلى لعنة حلت بالقلعة - فلقد تسلم السلطان الناصر من حبه وهو ملك
 ماغولى هدية من القاضى من ألوان متعددة ليكسوا القبة الصلبية للقدسى
 جامع الجديد في القلعة . ولما كانت تلك الهدية صحت بيد وولق ذوق
 ونسى فقد جلب وضعها على مسجد اسلامي للعبة على القاهرة .

وصاحب حجر يثر يوسف التقيار شالعات مخيفة ، فقد قيل ان
 قراقوش كان يقذف فيه بس يتردد من عباله المسخرين وامسحت تلك
 الشالعات الى المرات السعوية المنقورة في ارض القلعة . وكانت قد حُفرت
 لتستخدم كمخازن وملاجئ وطرق المواصلات لكنها تحولت في خيال
 العامة الى سجون كان قراقوش يقذف فيها بس يصابقه من العمال ويسد
 عليهم بالبناء .

وعلى الحائط الغربي للقلعة نحت لسرا باشر جناحيه ومخاليه تبص
 بتشجيع على الحائط . ورأسه التي اختفت حاليا كانت نلتفت الى اليمين
 بكبرياء وكانها هو حامي المدينة التي تمتد تحت أقدام القلعة . لكن
 البسطاء أمبوا منذ عهد بعيد أن لهذا الطائر الجارح قدرة على التمسك
 بالفيص : فإذا ما صفق بجناحيه وتلفح حوصلته فيعني هذا خيرا يصيبه
 المدينة . أما ان أطلق صرخة فهو قال سوء للموت أو بكارثة وشيكة .



كان لبناء القلعة آثارا قوية على الأحياء المجاورة . فقد توقف رصف
 المدينة الفاطمية نحو الشمال وبدأت في الاتساع المرمى ، ثم اريد الامتداد
 إلى الخلف تماما . وأحدث في الامتداد نحو الجنوب الشرقي مبتلة الجبال
 والصواحي والمنازل المنقورة في الطريق نحو القلعة حيث توقفت أمام الحماز
 الصخرى للجبل . وبدأت تلك المنطقة التي كانت صحراء قفص بالحياة
 في كل صورها الانسانية والحيوانية والنباتية . وصار ميدان الرميعة
 الواقع في سق القلعة موقفا للخيل وللحمير وللجمال - تحولت المساحات
 الخاوية التي تحت عن خراب حارات الزموج ، التي كانت قد شيلت على
 حاليى الشوارع الأعظم جنوب القاهرة ، بعد أن استأصل صلاح الدين
 شققهم ، عندما ثاروا عليه ، إلى حدائق غناء تزينها البرك المائية .

فصار من الممكن رؤية باب زويلة للوقوف عند جامع ابن طولون وإلى الغرب غرست حدائق أخرى (النوق) اودعرت تحت حكم المماليك . ويصفها لنا جان ثور Jean Thénard الذي جاء الى مصر في سعادة من الملك لويس الثاني عشر . « حدائق عظيمة غناء مليئة بأشجار اللاتيفات مثل الليمون والبرتقال والتشمش وتفتح آدم وقد سمى بهذا الاسم لأن آدم عصى ربه بأكله وتروى تلك الحدائق ليلا ونهارا بملء النيل الذي تعبليه اليها الخيل والثيران ومازالت هناك بقايا لتلك الحدائق حتى يومنا هذا بفضل القلعة » .



وبسبب أن وضع أساس القلعة وجه صلاح الدين اهتمامه ببناء أسوار لحماية المدينة . كان سور القاهرة الثاني الذي بناه بلال الجسار يبدأ بالقرب من مبنى « معونة الفقراء » الحالي ويحيط الجانب الغربي لحديقة الأربكية . وكان من الممكن رؤية هذه الجزء حتى عام ١٨٤٢م . ثم وصل إلى البقعة المسيدة عليها الآن قصر عابدين ثم يتجه إلى « باب زويلة » ثم يتصل بالحائط الشرقي . وكان سور صلاح الدين تجديدًا لهذا الجزء أضيف له حرم يصعب تتبع آثاره ، مد في الحائط الشمالي حتى السيل . أما الحائط الشرقي فامتد حتى القلعة . وفي النقطة الشمالية الشرقية شيد بناء منفصلا هو برج الظفر قصد منه تقديم المراقبة على المدينة . وقد حفظت كثير من الأبواب القديمة « باب البحر » و « باب الشمسية » و « باب الفروج » و « باب النصر » وأزيلت أخرى . وبهذه في تفسيره حائط جديد من القسطنطين في اتجاه القلعة لكنه لم يتم . ونحن لا ندرى لهذا سبب هل إلى المشروع الأساسي أم لفضل أن يترك ناقصا حتى يجلب أي مهاجم محتمل إلى أسفل حوائط القلعة التي كانت تسمى في هذا الوقت « وديا رأى خلفاء صلاح الدين أن منطقة نصف غربية كالقسطنطين لا تستحق بناء سور طويل يمتد لكيلومترات ويحتاج للكثير من النفقات » .



كان آخر أعمال صلاح الدين الدفاعية إنشاء قناطر ضخمة في الجزيرة على الضفة النهرية للنيل . التي كانت مفتوحة الطريق لأي مهاجم من الغرب ولهذا فقد قرر السلطان أن يضع عقبة في طريق أي غزوات من تلك الناحية . وكانت القناطر المسيدة على النيل قد صارت عابرة عن التحكم في حياة الفيضان ظفروا لاحتوائها لفترة طويلة ولذا كانت المياه تفيض دون عائق وتدمر الطرق وتغرق امتداد مساحة كبيرة من الأرض وأهتم بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين اهتماما كبيرا بإصلاح الطرق

والقنوات مستخدمة الأحرام الصغيرة في منطقة الجيزة محجرا وقد كسى القناطر المتأكله وسواف القنوات الهامة بالاجبار . ثم شيد على طول النيل جسرا واسما متينا يحوى حواف النهر من التآكل بفعل المياه ، كما سهل المواصلات بين العاصمة والوجه البحرى وبين الصعيد . وقد وصف ابن جبير الرحالة الأندلسي هذا الجسر قائلا

وصيف ابتلى به من حيز النيل بقاء مصر كانه جبل مملود على الأرض ، تسع فيه مئذنة ستة أميال حتى يتمل بالقنطرة المذكورة وهي نحو الأوبين قوسا . . والقنطرة متصلة بالصحرى التى يفضى منها الى الاسكندرية . . وكان هذا الطريق محبولا على أرمن عقالا عاش بعضها قرونا عدة .



والى جانب تلك المآثر المظيمة يبيت منشآت اقل أهمية فى القاهرة وقد بنى صلاح الدين ماوستانا قبل المارستان الشهير الذى شيده قلاوون كما روى لى ابن جبير « ومعا شاهدناه أيضا ، من مظاهر السلطان ، المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من التصور الرائقة حسنا والسما ، أبرزه لهذه الفضية أجرا واحتمابا ، وعين (فيه) قيعا من أهل المعرفة ، وضع ليه خزائن الطالع . ومكنه من استعمال الأثرية والتمتاع على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخلها الرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتلقه أحوال الرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الإنمذية والإثربة بما يليق بهم .

وبلذه هذا الموضع مقطع للنساء الرضى ، ولهن أيضا من يتكلمن ، ويتصل بالوضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصر عليها شبائيك الحديد ، انطلت معابى للمجانين ، ولهن أيضا من يتلقن فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الإحتناء بها والتأبوة عليها عنابة التاكيد .

وبمصر ماوستان آخر على مثل ذلك الترميم : ومع هذا لم تكن ظاهرة ذلك اليوم تضارح القاهرة التى سمحت يوما الرحالة . وقد ذكر ابن سميذ أن معظم ضوارع المدينة خيفة ومملوءة بالتراب والقمأة ، ومانيها من الطين والبوس ، وتكاد تحجب الهواء والنور لارتفاعها . « لقد كنت افا مشيت فيها يضيق صدرى ، ويتركى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة انها في ارض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشه
بعدها من مجرى النيل لتلا يصلدها ويأكل ديارها .

وردى نفس هذا المؤرخ أن وزير كان يمر بأحد القسوارع وحلفه
اتساعه وإذا معرفة محصلة بالأحجار سبب الشوارع فتوقف الورير وصار
الرحام شديدا . وكان بهذا الموضع حوايت شوائب يتصاعد منها دخان
يجتسه شيق الشارع خلف الورير بسحابة سمكة كادت تخفه هو ومن
معه .

وقال نفس المؤرخ عن الخليج : « وفيها الطليح لا يزال يغضب بين
ظفرتها حتى يصير كما يقول الرصافي :

ما زالت الأنحال تاحله حتى غدا كلوابة النجم »

وفضلا عن القصور أثارت الحمامات إعجاب الرحالة ، ومعلم
عند اللطيف الذي رار عصر سنة ١٢٠٣ م بعد سنوات قليلة من وفاة
صلاح الدين وقد ترك لنا وصفا يدل على إعجابه الشديد بحمامات القاهرة
التي يقول عنها انه لا يوجد مثلها في الدنيا في حسن بنائها ولا في مهارة
إدارتها . فكل حوض بها يسمح أربع قرب من الماء . ويسدها بالماء
الساخن والبارد صلبوران ويمكن للاستحم أن يمرحما في طست صغير
بالدرجة التي تروق له . وفي حجرة خلع الملابس توجد كائن خاصة
يفتح فيها كبار القوم ملابسهم بمنى عن أعين العامة .

كان الحوض الذي يستحم الناس فيه مغطى بقبة من الرحام وتحيط
به أعمدة ، كما كانت تزين السقف صور حلوة . و « بالاختصار فمن
يدخله لا يرغب أبدا في الخروج منه » ويسكن الله تدرجيا بواسطة أربعة
مراحل تتمثل بالخوض عن طريق أنابيب وتعد كل هذه بسرعة ويسر
ودون أدنى لنحو من العناء .



كان الشيعة من أهل القاهرة شوكة في طهر مسلم متى ورع
كصلاح الدين . وعلى الرغم من شهادته ورفته كان في وسعه أن يكون
قاسيا إذا ما تعلق الأمر بسلامة العقيدة والمآزق منها أو الكفار .

وقد قرر أن يسل عن استخدام القوة مع الشيعة وإن يلجأ
لأسلوب آخر . قبله من الجلاء استعان بالعلم وبدلا من السوط استخدم
الكتاب . ولكن كيف يعلم أهل القاهرة العقيدة الصحيحة سيما لم يكن
يوجد في القاهرة عند توليه السلطة معهد واحد يعلم الملحد السني .
وعلاجا لهذا اضطلع بأشبه المتهدي من المدارس الدينية التي مستصح
بمرور الوقت عنصرا معاصريا مثيرا في القاهرة .

وافتححت أولى مدارسه في عام ١١٧٦م وكانت ملاصقة لغير الامام الشافعي الموجود حتى الآن على الرغم من ان المدرسة طسها احتفت . وقد وسعت هذه القبة في عام ١١٨٣ على لسان الرحالة ابن جبير « مشهد الامام الشافعي رضي الله عنه وهو عن المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبني بأزائه مخرصة لم يتم بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا احل بنفا ، يفيل لمن يتكوف عليها انها بلد مستقل ببلاته ، بزائنها التمام الى غير ذلك من مواظها ، والبنه فيها حتى الساحة ، والنقطة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم ، المعروف بنجم الدين الغبوشاني ، وسنطان هذه الجهات صلاح الدين يسمج له بذلك كله ، ويقول : « زد احتفالا وثاقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله » .

احقت نظام المدرسة التي ادخله صلاح الدين تغيرا كبير في العمارة القاهرية . فحتى ذلك المصير كانت للمساجد تبنى جميعا وفق رسم واحد ، يحدد اتساعه عدد المصلين الذين سيستقبلهم « وعلى جانبه القبيل يسمى بيت الصلاة المنطى » الايوان القبل « الذي يسمى جموع المصلين من وهج الشمس ، وكان به صحن واسع مفتوح يتجمع فيه الداس أثناء الاعياد » .

في بداية عهد صلاح الدين كان في القاهرة اربع جوامع من هذا الطراز : الازهر والحاكم وابن طولون وحمرو . اما الجوامع الأخرى كالأكبر والصالح طلائع فقد انقطع الناس عنها عقب موت مؤسسها فاهملت مما أدى الى خرابها . وفضلا عن هذه الجوامع كان يوجد في المدينة مساجد (المسجد وهو مكان للصلاة اليومية عما صلاة الجمعة والعيد) ، مساجد اقل من مساحة الجوامع . وقد ادخل صلاح الدين المدرسة الى مصر وهي منشأة تدرس فيها المذاهب السنية الأربع . وكانت تلك المدارس ، بوابة للمسجد ذو التخطيط المثلث ٩٩ ، وعليه بنيت أشهر الجوامع مثل السلطان حسن وبرقوق والناصر قلاوون وقلاوون . ولما كانت تلك العمار مخصصة للتدريس أساسا لا للندوات الثقافية فقد احتلف تخطيطها عن تخطيط الجامع العادى ، فقد استبدل الصحن المكشوف الواسع الذى اعتاد الناس على التجمع فيه أيام الجمعة بصحن مربع صغير ، فلى أحيانا بسقف خشبي طون ، وكثيرا ما وصعت في قلبه قبة صغيرة . واستبدلت الأروقة المعادة الجائنية بأربع ايوانات تحمها الايوان القبل حيث توجد القبة . وكان كل ايوان مخصصا لتدريس المذهب الشافعي والمالكي والحنفلي والنبلى . وفى كل منهم كان يجلس الشيخ الملم يسمج به تلاميذه في حلقة وكأوا جميعا يقيمون في داخل المنشأة التي زودت بمكتبة مساهل وصالات استدكار .

أثرت سياسة صلاح الدين الدينية تأثيراً هاماً على القاهرة ، فأنشأ
 ضيافته الطويل عن قاعة ملكه كانت السلطة في يد أخوه أو ابنه اللذين
 أصبحا باستمرار لمشورة « القاضي الفاضل » وهو عربي من مدينة
 عسقلان ، وكان غرير العلم صائب البصيرة . وبفضله عاد الطلاب
 الأجانب للدراسة في جوامع القاهرة . وقلقى علماء المشرق الإسلاميين
 بالمغرب الإسلامي في القاهرة . وكان صلاح الدين من هؤلاء المحايدين
 الذين وجدوا لذة في محادثة الفلاسفة والعلماء ، وبفضله وبفضل نظام
 الدراسة في تلك المدارس عادت القاهرة مرة أخرى للمركز الروحي للعالم
 الإسلامي .



أدى إنشاء صلاح الدين لسور جديد للقاهرة الى تغييرات واضحة
 بالنسبة لأطراف المدينة الشمالية الشرقية ، وكان الفاطميون قد بنوا
 في هذا الجزء قصر اللؤلؤة وترسانة وأرصفت ميماء وحفروا بركة ، وبدأت
 الخفس في الاتساع نحو الشرق لتلتحم بالقاهرة ، وكانت في السابق
 على بعد فرسح (أربعة كيلومترات) وكان اتجاه اتساعها في الغرب على
 الأرض التي يتراجع عنها النيل . وكانت تلك الأرض قد استعملت في
 مبدأ الأمر كملاعب وأرض لتدريب الجيش ثم تحولت الى حدائق وأحراج
 بدأ الناس في البناء عليها في المساحات التي تركها النيل ، حاوية ، واحتل
 الناس في تلك القيمة « ميدان قرافوش » و « الملك العزيز » ثمريجيا .
 ولقد جذب السكان الى تلك المنطقة سهولة إمدادها بالغذاء والماء والاردياد
 المستمر في حركة النقل المائي بميناء الخفس فضلاً عن حسن جو المنطقة
 ووجود مساحات واسعة من الأرض الخضراء وفي الوقت نفسه أخذت بعض
 المناطق الأخرى من العمران مثل المنطقة التي بها حديقة الأربكية الحالية
 والتي بها ميدان باب اللوق وظهر حي الحسينية أمام السور الشمالي .
 وبهذا مزقت أسوارها كما يشرق حشد الطفل النامي ملاعبه .

وحتى القسطنطين ، تلك الجارة الفقيرة ، استفادت من الرخاء والازدهار
 الذي تمتعت بهما مدينة القاهرة . كانت تكاليف الميمنة في القسطنطين
 أقل منها في القاهرة ، وقد شيد فيها معامل للسكر ومصانع للحديد ،
 ومن ثم فقد فضل عمالها الإقامة فيها حتى يكونوا على مقربة من أعمالهم
 وكان بالمدينة سوق كما أصلح صلاح الدين جامعها « جامع عمرو » وشيد
 السلطان الصالح نجم الدين أيوب قلعة وثكنات في الطريق الجنوبي لجزيرة
 الروضة وفي الحقيقة كان هذا البناء قصراً أكثر منه قلعة حربية حيث كان
 سحر شاطئ النيل في تلك البقعة يجلب الأثرياء ويضربهم ببهاء فيلات
 هناك . ولكن ذلك الازدهار لم يدم طويلاً كما أوضحنا فيما سبق .

ولتكتحل لنا صورة القاهرة في عصر صلاح الدين مستنظر من القسم
الذي خصصه ابن جبير في كتابه عن أحد أمراء المدينة الهامة وهو بهيمة
القرافة ، التي قيل عنها انها صمم رفات عدد من الاعلام كالذي صانع
ودوييل ابن يعقوب والسيدة آسيا لمرأة فرعون رضى الله عنهم جميعا ،
وقد ذكر الرحالة أربعة عشر مشهدا لأحد ذكور نعلي بن أبي طالب .
كرم الله وجهه . ولم يحاول ابن جبير التأكيد من صحة سببه تلك المشاهد
واكتفى بالتعقيب بمباراة « وبالحجلة فالصحة غالبية لا شك فيها »
ان شاء الله عز وجل . « ومن بين المقابر كان هناك مشاهد أولاد أبو بكر
الصديق رضى الله عنه ومشهد لاس الزبير بن العوام رضى الله عنه
« وبهجة القرافة المذكورة بسيط متسع ، يعرف بموضع قبور الشهداء ،
وهم الذين استشهدوا مع سائرة رضى الله عنه » . وهناك ابن جبير
« ومن العجب ان القرافة للمذكورة كلها مساجد مبنية ، ومشاهد معمورة ،
ياوى اليها الفرياء والعلماء والصلحاء والفقراء والأجود على كل عودج .
منها متصل من قبل السلطان في كل شهر والمكرس التي بمصر والقاهرة .
كل ذلك » .



كان عصر صلاح الدين حلقة الصلة بين القاهرة الفاطمية والقاهرة .
الملوكية لقد كان هو الذي وضع حدودا للمدينة الجديدة وترك للمماليك
همة تجميلها .

المماليك

حكم المماليك مصرًا ثلاثة قرون (من ١٢٥٠ الى ١٥١٧) وهم عبيد
نصروا تيمشًا عسكريًا واعتقوا *

كان حلفاء بغداد أول من اتخذ فرقًا عسكرية من العبيد الأجانب ،
فلقد اشتروا عبيدًا من الجنس الأصفر من وسط آسيا ليكونوا منهم حرسًا
يحميهم من جيوشهم من القبائل العربية ذات النزعة الحربية ولم يرحب الحند
الكردي في الجيوش الأيوبي يتولى الملك الصالح كرمي السلطنة على عكس
الجنك الترك الذين عضدوه ، ولذا امتنكر صهم حتى يكوبوا عودًا له في
الحفاظ على سلطته ، وأمكنهم جريرة الروضة في النيل (الذي يسميه
العامة البحر) ولذا أطلق عليهم المؤرخون « المماليك البحرية » لتمييزهم
عن مماليك الأمراء التي ستختلفهم « المماليك البرجية » الذين كانوا
يسكنون القلعة اعتبارًا من ١٣٨٢ م *

تألفت فرق المماليك أساسًا من أتراك « كيبشاك » الذين عرفوا
بالإخلاص والوفاء والشجاعة واعتدال القامة وحسن الصورة ، وقد صبت
صعوقهم أيضًا الشركس واليونانيين والكردي والتركماني ، وقد غمرهم
سادتهم السلاطين بالرعاية والهبات والخلع من الأقمشة والاقطاعات ،
وبدا صار جزء كبير من أرض مصر مملوكًا للأمراء المماليك وأتباعهم *

ضممت صفوف للماليك مجموعات من المماريين الذين اتوا اما حيا، في الممارسة أو هربا من المعاملة أو ليصلوا حرما ألم بهم . وكانت فرقهم بذلك أشبه بمرجل على بصوف مختلفة من الحضرات واللحم ذات الفلبان ، يتراقص غطاؤه بفعل البختار المتنازع ويوشك على التفرق في الهواء . فقد كان كل مملوك كبير منهم يترك ان أمامه طريقا الأول يؤدي الى العرش والثاني الى السجن - فيقتل من الجرامة والحظ يمكنه ان يصير سبطا . اما اذا تقاعس والجلاد أو حنجر قابل في انتظاره غير ان بعض الماليك الذين لم يتطعموا الى العرش ارتقوا الى مرتبة عالية في الجيش وفي المحتج واحتلوا مناصب مهيبة واعتفهم السلطان وكان لهم هم أنفسهم ماليا .

ولا كان الجيش مؤلفا من اجاب فقد كان على الضابط للملوكي ان يدفع لمجنوده رواتب عالية أو ان يسمح فرصة لاثراء عن طريق السلب والنهب . وأقرب الغنائم لهم كانت القاهرة ، وبمطى دقيق ببوت مناسيهم وأعدائهم .

وقد تناقل هؤلاء الماليك من رئيس لآخر كلما تغير السلطان وكان الضابط منهم من رتبة أمير الف شخصية هامة أشبه بسطان صغير . لالسلطين أنفسهم كانوا ماليا ناجحين في مناصبهم بوافقة الممالك الآخرين وكان السلطان يدا يدا الأول بين أسوياء ولم يسمح له رفاهه أبدا بأن يسي أنه مساو لهم وان كان هو الرئيس .

وبالرغم من تباين أصولهم الا أنهم جميعا اشتركوا في أمر واحد هو تقلب الشخصية فالضحية الياسمة تتناوب مع الضحية المتجسدة . والخاسر يتناوب مع الفخور وأخط الشرور تتواجد في نفس الوقت مع الروحانية الشفافة . فقد يقضى المملوك ليلة في النهب ثم يملاء النهب بالندم فيودع في الفقرة غنيمته وقد بهم بالقتل فتراجعه نفسه بما ينتظره في العالم الآخر من جراء لقد التسم السلطين أنفسهم بهذا المزاج اقمع . بالتقلب . بل وتنادوا فيه بفرجة وحشية كان يشغلوا من فرض الضرائب التي تتصاعد باستمرار الى مصادرة الأموال بصورة مفاجئة وتسخير الموظفين بأبخس الأجر . وقد سمح هذا النظام للموظف بأن يبتز أموال داهي القرائب ، تحت حجة استعادة تلك الأموال غير المشروعة صادرة الحكومة أموال هؤلاء الموظفين . فكان كل واحد ينهب في انتظار أن ينهب هو في حوزة .

لما كان هؤلاء المبيد الذين تحولوا الى محاربين قد قدموا من مختلف نقاع العالم فقد تمتدحت عاداتهم وتقاليدهم وعيوبهم . لكن كل تلك

القوارق ذابت واحتضت سرعيا أمام عاصفة واحدة ربطتهم جميعا ، هي انتمائهم الى الاسلام . وقد سعى المماليك مصر « للبطيخة الاسلامية » وسعوا الى ميل الصدورة في العالم الاسلامي . ولما كانوا قد استقبلوا الخليفة الباسي ، فقد اعتبروا أنفسهم ورثته الروحيين ، وبذا اكتسب حكمهم صيغة شرعية . واحتفظوا بسيطرتهم على المدن المقدسة في الجزيرة العربية وطردوا الصليبيين وصعدوا الرجب القسوى ، واستمضوا بذلك القاهرة والمجد الدين اكتسبوهما . وتبدو لنا هنا الصورة غريبة وبالرغم من أن مصر تمتعت بمكانة روحية كبيرة في الخارج ، إلا أنها كانت ممرقة بالصراعات في الداخل . فالقتال في انشوارع يتفجر بين كل عظة وأخرى . فبعضنا عن أعمال السلب والنهب التي مارسها المماليك في أحياء أهدالهم كانت غارلت البسوة على الرجب وعلى الطرق المؤدية الى العاصمة ، مما أدى الى تدفب مفادات السواء ومثل هذا عقبه أمام التجارة . وانتشرت الأريثة والمجاعات وتضرعت المشي حينما كانوا يحسبون بضعب السلطان الحاكم وأضيفت الى كل هذا الحرائق والزلازل التي أصابت المدينة فبدت كما وضعها أحد المؤرخين العرب كما لو أنها قد أحدثت بجيش غار . وإن كان هذا لا يؤثر اطلاقا على اشاعات القاهرة الملوكية الروحية والثقافية . فقد ظلت الواحة على روعتها رغم القلاقل والصراعات الداخلية .

كان متوسط حكم كل سلطان خمسة أعوام ونصف . ولذا فالمرء يدهش لعدم الآثار الرائعة والتمتع الفنية التي خلفها المماليك . لقد امتزجت في كل منهم شخصية منكرة وحشية الى جانب أخرى مولية بالعمارة وبالترف ، فاليد التي كانت تقبض على السيف كانت تحب أن تداعب سطح ابريق يدب . وقد اضموا في المنع ، لشعورهم بمسند الاطمئنان لا يحبه لهم المستقبل ، وكمثل يسادر الى شراء لعبة اذا ما وقعت في يده قطعة نفوذ ، كان الملوك شخصيته البربرية والمولمة بالمغامرة ، يمد الى الاستمتاع الفوري بثروته . وكانت القاهرة لمسته يهلم فيها القصور والجوامع ويمد ينائها ويشير باستمرار في الطرق والميادين . وقد أنت ثروات المماليك الى تمييز أساسي في أحياء القاهرة :



لم يند على الرحالة الذين زاروا القاهرة واصبحوا بها في هذا العهد أنهم قد لاحظوا أمارات اللوضى والاضطراب التي آلت بسكانها . وهو تناقض يسهل تمييزه كان الكثير من سلاطينهم كبيريرس وقلاوون وابنه الناصر والمزيد وقايتباي والغوري رجالا موحقين ، جنوا الى جانب

رحابة الحبس الفس روجا عملية حادة - فالى جانب تشييدهم للمساكن
امتدوا بحل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية - وبذا تمكن البعض منهم
فى ان يستقل موعا من الاستقرار الى النظام ، مثل الناصر محمد بن قلاوون
الذى خلص عن العرش مرتان ، وفى كل مرة كان يتمكن من استرداده
واسميا استقر عليه لقب ثلاثي عاما .

والسبب الآخر للرخاء الذى تمتعت به القاهرة ايام المماليك كان
يرجع الى مجامعهم فى جنب تجارة شرق حوض البحر المتوسط الى القاهرة
التي صارت مركزا للنقل التجاري . وقد استفادوا من التجارة بين الهند
وأوروبا مما أدى الى ثراء أهل القاهرة في الصور الوسطى وثرأه
المدينة وقتوتها كانت قادة دائما على أن تضمه جراحها بعد أي فتنة .
كانت مدينة عامرة بالحياة والحركة لم تؤثر فيها الأوبئة المهلكة ولا الكوارث
الطبيعية - وقد قال عنها مرسكو بالدي Freschobaldo الذى زارها
فى عام ١٣٨٤م أن مبيائها عدد ضخم من المراكب الراسية يفوق كل
ما رآه فى موانئ جنوة والبندقية والكوني Anconi معا . وقد ذكر
أن عدد سكانها أكثر من سكان توسكانا . وقد قال بعض الرحالة الآخرين
أن المدينة أكبر من باريس سبع مرات . واكد بود جيوسى Poggibonsi
أن مركبة تحتاج الى يومين كي تطوف بها . وكتب الراهب جاك دي فرون
Jacque de verone فى عام ١٣٢٥ « أن أهل الاساهرة يتمتعون
بثراء كبير نتيجة التجارة الهندية ، فالراكب تجلب كميات هائلة من
التوابل والأحجار الكريمة عن طريق البحر الأحمر . وعن طريق البحر
المتوسط (. . .) تجلب السفن من كل أنحاء العالم كل ما يمكن أن
يروق للإنسان » . وقد قدر جوتشى دي دينو Guic di Dino أن القاهرة
تمتد مسافة عشرة أميال طولاً وخمسة أميال عرضاً وأن عدد سكانها يصل
الى ثلاثة ملايين نسمة . وقد حلل هذا العدد الضخم بأن المصريين على
حسب قوله يعيشون ألف عام . وذكر الرحالة توماس فوسستر أن الأرض
المصرية شديدة الخصب حتى أن النساء والمخلوقات الأخرى تنجب فى الأعم
توأمين وثلاثة توأمين .

وبعد قرن من الزمان وفى عام ١٤٥٨ قال روبرتو سانسفيرينا
Roberto Sansseverina « من الأفضل ألا أتحدث عن مدينة القاهرة
لأن كلامي سيأخذ على أنه استعلاء » . أنها عظمة الاتساع الى حد لا يصدق ،
ففى أكبر من ميلانو بأربع مرات . وقد قال عنها أحد الرحالة كان قد
شاهد ميلانو أن القاهرة أكبر منها ست مرات » .

شهدت القاهرة خلال القرنين الرابع والخامس عشر ازدهارا واتساعا عظيما حدد بصلها « وحشا مختل التناسق مع باقي أنحاء البلاد » (كلرجة Clerget) كان من الممكن أن يلحق للمء في عاصمة البلاد في ذلك المءر ثلاث مدن أولها القلعة وثانيها القاهرة الأصلية وأخيرا القسطنط . كما عبر عن ذلك بيت شعري شهير للفسودواكريتسيلا .

«Mira Alcazro que incluye tres ciudades»

ظلت القلعة قاعدة الحكم في البلاد ، بالرغم من أن بعض السلاطين قد تملكهم نزوات طارئة لسكنى جزيرة الروضة . كانت الحدائق تغطي القلعة ، وكان بها إيوان ياهر منتصب بين قصورها . وقد شمت القلعة مجموعة من المنشآت الادارية ، فصلا عن الحوائط التي حفت بلغائها وامتدت على طول امتدادها الغربي .

ولمضت القاهرة الفاطمية الى تحولات عميقة ، فهدمت الصائر القديمة واستبدلت بأخرى جديدة ، فقد تناقص السلاطين في المباشرة بالقرء فكان كل منهم يبنى أن يتحير من الآخرين . أو أن يخلق ديماء جديدة لنفسه . أو أن يكفر من الم ارتكبه وبذا ارتفعت في المدينة قصور عديدة ومساجد ومدارس وأسبل . وتحولت القاهرة من مدينة ملكية الى حي تجارى ومركز للنقل التجارى العالمى . وعلى طول شارع بين القصرين قامت الأسواق الرئيسية وامتدت الى السوارع المجاورة . وتسابق الناس فى البناء فى تلك المنطقة حتى عرت ومرت أرض البناء .

أخذ الملى الجنوبى الممتد الى القسطنط فى الممران ، فقد كان أهل القسطنط يستخدمون باستمرار المسارع الأعظم الذى كان يربط القاهرة بالقسطنط . وأدت الحركة الدائمة بهذا المسارع الى أن أقام التجار حوائطهم على طول الطريق ، الذى كانت قضيبه لبيلا أنوار المطاعم والمتاجر . وعاد الممران الى منطقة جبل بشكر بعد أن مكنتها الخلاء العباسيون الذى كان يبرزى قد دعاهم الى سكنى القاهرة بعد سقوط بغداد فى يد المفل . واتسم هذا الملى بسمة أرمستراطية حيث شيد به السلاء قصورهم . ومما شجع على سكنى تلك المنطقة المجاورة للجامع ابن طولون وجلب إليها التجار ، أن رجلا صالحا كان قد حلم أن النبى صلى الله عليه وسلم يارك تلك المنطقة .

وغطت ضفاف بركة الفيل الواقعة الى الجنوب الفيلات والقصور . ويحدثنا المقربرى عن قصر بناء والى حلب دخلت فيه مساحة أربعة وعشرين ذراعاً مربعة من أرض البركة وفى الليل كانت أصبله المرح الصاحب تتردد على جوانبها وعلى سطحها تنلق القلوب المردانة بالصبايح

كانها الهجوم . أما في موسم العيشان فقد كانت المنطقة تبدو كمدينة البدوية بمأزلهما التي يحيط بها الماء وتغني الشجره تلك البركة بوصفها بالهدر المستدير تحيط به القصور كالهجوم (١) .



طرات تغيرات ملحوظة على المنطقة الشمالية الغربية المعاصرة . ولما كان غم الخليج آخذاً في الانطمار بالرمال فقد قرر الباسر بن قلاوون أن يحفر قناة أخرى تحمل اسمه في عام ١٣٢٤ . وكانت تلك القناة تنفرع من النيل على بعد خمسة متر تقريبا من غم الخليج القديم ، ثم توجه شرقا ثم شمالا حتى تلتقي بالخليج في منطقة الطبالة . وعلى ضفاف تلك القناة شيدت قصورا وأسواق ومنازل وبدا عمرت تلك المنطقة .

لم بدأت جزيرة بولاق في الاندماج التدريجي في شاطئه النيل عند حكم المؤيد عام ١٤١٥ . وقد بنيت فيها الأسوار والمخارن والحمامات حتى صارت في القرن الخامس عشر ميناء للقاهرة . وتأثرت الأحياء الشمالية للمعاصرة من ظهور تلك الضاحية الجديدة وبدأت في الرحب التدريجي نحو شاطئه النيل .

والى شمال باب الفتوح كانت توجد قرية الخلق ، حيث كان أهل القاهرة مولعون بالترعة في الربيع وفي موسم العيشان . وكان بها مزارع صفروات وحدائق نخيل وفاكهة أخرى وأسواقا ومسجدا . لكن الكوارث حلت بالمعاصرة في عام ١٤٠٣ أدت الى حروب البلدة ، وظل جامعا مغلقا حتى عام ١٤١٢ حيث علمه الأمير طوغان .

وعلى الجانب الآخر في المنطقة الشمالية الشرقية امتدت الجبانات مثلما امتدت الأحياء الشمالية الغربية . وظهرت في صفح القلعة مدينة فعلية للموتى . فبعد أن شيدت قرية بدر الجمالى امتلا الوادى بالقابر ، التي ماثلت قبائها حوزات القتال . فهدت المنطقة لتظهر كما لو كانت ميدان معركة هائلة تأثرت عليه الدروع ووصلت الجبانة الى منطقة باب النصر حيث لامت مدينة الأحياء . وتكونت جبانة في المنطقة التي يشغلها الآن حي الميمنية .

ولا تشبه تلك الجبانات الجبانات الأوروبية ، فلم تكن الأسوار تحيط

لدى ق بركة النيل التي اكتسبت
كانها من والأصل ترميها
بها لظفر كالصعب للبر
تحوكب عند أمروما على القصر

بجيات المسكنين لتعزلها عن العالم المحيط ، فليس ثلوث هما الا اعتمادا
 للحياة والميت لا يصادر أرض الأحياء ، لكنه يقر فقط من سكنه ، ونهدا
 تمضي الحياة بين القبور فيعبر بينها المارة ويلعب حولها الأطفال وتتصاعد
 فيها الضوضاء كأحد أحياء المدينة المزدهرة . وهذا يفسر لنا سبب
 ضخامة مقابر المالكين . وقد احتاجت المنشآت الخيرية الملحقه لطاقم عمال
 كبير فبنى السلطان برقوق على سبيل المثال منازل للمعقره وللعامل
 وعائلاتهم حول مقبرته كما بنى قايماي بالقرب من مدرسته منازل لطلاب
 الأزهر وللعملاء . وقد حاكى الأمراء مسلاطينهم ، فحصل تربة الأمير
 قرقاس شيدت متاجر ومطابخ واصطبلات ومدراس وحفرت آبار وأقيمت
 سواقي لجلب الماء .

ومن هذا يمكن أن نتصور العدد الكبير من العمال التي تطلبت
 صيانة تلك المنشآت والذي جعل منها مناطق جذب للتجار ، فاذا أضفنا
 الى ذلك ما اعتاده المصريون ، كما يقص علينا ابن بطوطة ، من قضاء ليلة
 الحبس والجمعة ، خصوصا يومي ١٤ ، ١٥ فشان بالقرب من مقابر
 ذويهم فيمكننا أن نتخيل بسهولة طوفان الباعة الجوالين الذي كان
 يتبعهم .



كان افتقار القاهرة لتخطيط منظم ومنسق نقطة الضعف الوحيدة
 بها . لقد كانت أشبه بخريطة متناثر الوحدات ، كما لو كانت ثوبا مبرقش
 الألوان وكانت القاعدة هي عدم النظام . وقد انصرف جهد السلاطين على
 بعض النواحي الفرعية مثل اجبار أصحاب المتاجر والمنازل على تعليق
 مصابيح على اجوارها واحتفاظهم بأوان مملوءة بالماء لاطفاء أى حريق
 محتمل . وكان قصارى جهدهم . فلم يدر بيال السلطان أو أى من
 رعاياه فكرة التنظيم العام فلقد كان السكان في قرارة أنفسهم مايرثون
 بدوا ثم يرتقوا بعد الى مرتبة أهل المدن بالتهوم الحديث . كان أهل المدينة
 يهيمون أو يقيمون منشآتهم حسبما يترامى لهم فقد يستغل أحدهم قطعة
 أرض قضاء في إقامة منسأة قد لا يكون من ورائها منفعة ثم يتركها تتآكل
 تدريجيا الى الخراب ومن ثم يرداد عدم الانتظام . وقد يعمد أحد أصحاب
 المنازل الى شراء أرض مقابلة عبر الشارع . وبينها ثم يقوم في مرحلة
 لاحقة بوصل المنشأتين فيقطع على الناس طريقهم . وكان كل قاهري
 شديد الالتصاق بمعرفته وهي مجموعة الشوارع التي يقضي فيها معاملاته
 ويلتقي فيها بأصدقائه ففي الليل تملق الأبواب التي ظلت حتى القرن
 التاسع عشر تعزل كل حارة عن الأخرى .

ويمكن تصنيف تلك الحارات على النحو التالي :

١ - الحارة تحيط بمرکز والى المدينة أو السلطان وتعرف تلك المنطقة بالميدان وتخصص للخاصة . وللسوقها يلزم المرء نصريها من الشرطة . والى جانب السلطان وعائلته وعدد من العظماء سمح بسكنائها لعدد من العمال والحرفيين لخدمة قصر السلطان .

٢ - قلب المدينة ، وهو يتألف من الحارات الشعبية ، وبها توجد منازل متعددة الطوابق وتحتل الحارات الطابق الأرضي منها .

٣ - إذا ما ابتعدنا عن قلب المدينة وجدنا نوعا من الضواحي مثل البساتين وباب اللوق . ومنازلها أقل ارتفاعا وإيجاراتها أكثر انخفاضاً ، ويقطعها العمال والصناع وبعض التجار الذين يمارسون أعمالهم بها وسكان تلك المنطقة يعملون في المدينة صباحا ويقادرونها ليلا لبيوتهم في الضواحي .

٤ - أما على أطراف البرك فقد شيعت فيلات وأحياء للمتنع مثل بركة الفيل والخميس وجزيرة الروضة .

ويضاف الى ذلك في النهاية الحارات التي سكنها أناس من ملة أو قومية واحدة مثل حارات الفرنج والروم والقيط واليهود .



تؤلف شوارع القاهرة وأزقتها شبكة شديدة التعقيد لبطونها كان يمر من تحت منازل أو ينتهي بسد . وأقل المشاوير يحتاج فيه المرء الى كثير من الانعطافات . وقد سبقت تلك الطرق بالوحد خشبية أو بحصر أو شلق من قماش أو سقائف من قش لحماية المارة من وهج الشمس . وقد ضاعفت الشرفات البارزة من سميت اللواجهات (المشربيات) من الظلال حتى كان المرء يحتاج أحيانا الى أن يضيء مصباحا في وهج النهار . ومن ناحية أخرى تمتعت تلك الطرقات بطراوة كبيرة حتى في ايام كيف الصيف وقد اقتطعت المصاطب التي كانت تبني أمام المتاجر للجولوس عليها ونصبها المتعاقب والمواثيق جزءا من أرض الشارع .

كانت حياة القاهرة خارج المنزل آنذاك متمتعة الألوان وإن اغتقت الى الراحة أما داخل المنزل فقد تمتعت بقدر كبير من الرقابة .

كانت المنازل تكسى بالجلص وتزين بالرسوم ونخرق بالفسيفساء ستولها وحوائطها . وتفيض أرجائها الستائر والأرائل والسماق والأبسطة . وفي كل مكان فرشاة أبسطة مخملية أصفى يريقها على

أسفل الأركان جوا من الثراء . وقد ذكر القريرى أن المرء يراها حتى في أبسط الأماكن ، أما فقره قد استخرجوا الحصر للثروة بدلا منها . وكان يكن الحجرات تقريبا كرات مديبة المقد محدثة في الجدران تحف فيها أشياء عدة مثل الأواني الفضية أو النحاسية أو النحاسية أو البورق المخرقة أو الأواني الصينية كما كان بها مصابيح من نحاس أو قصة مشغولة وضعت أمام مرآة حتى تضاعف من لجان برقتها .

وعلى السريز توجد مرتبة خشبية قطنا وقد وعسعت على سجادة ولطيت بملام من لماش والخطبة من صوف أو قطن كما استخدمت صناديق خشبية كصناديق وأحيانا تكون تلك فاحرة الصناعة ومطعمة بالمساج المنضطر أو المالحمة .

وقبل أن يقوم لويس التاسع بحملته على مصر زار القاهرة طبيب من بغداد ، وقد وجد فندقه مزودا بوسائل حديثة للراحة من قهوة لطيفة وجهاز للتقشير لتطهير الماء وحمام به صناديق للماء الساخن والبارد . وقد قال مشولام بن مناهم *Mishulam ben Menahem* في عام ١٤٨١ م « لا يوجد في مكان آخر حمامات خشبية تفوق حمامة القاهرة » والفاسف : « هي مزودة بكتاف » . وقد وصف كل من أبي حنيفة وجوس دوستل *Joue de Ghistele* قصر السلطان فقالا : « أنه كان مفروشا ببلات وخام وهو له منظر كما لو كان مشعرا بالنفس ، وسقفه عالية ، وكل شيء يعطي إحساسا بالراحة ليتنقلى المرء لذلك حية جنة عدن قبل أن يذهب إليها » . ويصف الرحلة قائلا : « أن ما رآه داخل القصر هو الخلف شيء يمكن للمرء أن يتخيله فقد كسيت الجدران بالواح حجرية مصقولة متعددة الأنواع من حمر أبيض وأسود وأحمر إلى حجر التيمبان *Serpentine* والبرقيز والعتيق الأحمر وغير ذلك من الأحجار النفيسة مختلفة الألوان » .

لذا ما تركنا قصور السلطان إلى بيوت الطبقة الوسطى لوجدناها تضم أنماطا متعددة من الوحدات شديدة الاختلاف : أحيانا كانت تلفت حول فناء متمسح مركزه « حوش » وحمامات سكنية تستطيع استيعاب ثلاثين أو أربعين أسرة وللحوش مبطل واحد وبه بئر للمياه .

وأحيانا أخرى تبني حول المصنل حجرات سقف الوسطى منها أعلى من الأخرى وأكثر إشاعة أيضا وتخصص كغرفة استقبال و « سلامك » ، وغرفها تبني حجرات أخرى ، وحول تلك الغرفة ينفذ فناء يلبس دورا

قريبا من دور « الحوش » ويسمى الحوش فى أقصى جزء من المنزل محاذيا
للسلامك وغالبا ما يكون هنا النوع من المنازل مخصص لأسرة واحدة .

والطراز الثالث من المنازل يمثل حلقة وسطى بين الطرازين
الأولين . فهو يضم قاعة مثل النوع الأول لكن الغرف منظمه على مسق
اثنائى ويوجد المراء فيه المخادع على جانبي القاعة وهنا النوع من المنازل
صغير يقتصر الى سلامك فيتحتم على الرجل الذى يملكه ان يصفق بيديه
قائلا « يا صاتم » حتى تتوارى النساء عن طريقه .

وتوجد أيضا منازل متصلة الطوايق أو ذات وحدات متصلة
« ربوع » وقد يضم الربع منها من عشرة الى خمس عشرة وحدة .

وعلى اختلاف تخطيط تلك المنازل فقد كانت تفتترك فى مستين .
مراعاة فصل الجنسين . والكسار دهلز المسهل (الفركاة) حتى تمنع
الخارة من استراق النظر الى داخل المنزل .

وكان بالكثير من المنازل غرفة استقبال للرجال « ممدودة » تبنى فى
الدور الأرضى . وكثيرا ما كانت تزود بمقعدة (قاعة مربعة مقفود ترفها
أعمدة وتفتح على القاعة) وبهذا يكون جيد التهوية ولذا يستخدم فى
فصل الصيف وأيام الأعياد أو الاستقبالات . وتوجد أيضا نوافذ مغطاة
بمصبعات خشبية لتجيب النظار تسمح لنساء الحريم بمشاوكة الرجال
وهن مستورات فى اختلافاتهم .

وأخيرا تأخر الى الخان (يطلق عليه أحيانا وكالة) والفندق .
والنوع الأول بناء قد يكون مربعا أو مستطيلا يستخدم لايواء التجار .
وبه حوانيت مقفودة تفتح على القاعة المزود بمدخل واحد وبه مخازن وورش
الصناع . وبالصور الأول دهليز يلتف حول القاعة يؤدى الى مخازن
مخادع ويمارس المراء البيع والشراء أو تحويل العملة فى القاعة وأشهر
تلك الخانات خان الخليلى الذى وصف بأنه يشعبه قصرا كبيرا لأحد
النبلاء يضم ثلاث طوابق .

أما الفندق فيتميز عن الخان بجنسية من يقطنه ، فالخان مخصص
للمصريين أما الفندق فللأجانب . ويمكن للجالية التى تقطنه ان تستخدم
خيه تقودها أو موازيتها ومكاديلها .

وكانت أسطح المنازل القاهرية مزودة « بملقب هوا » وصفه ليون
الأتريقى قائلا :

• تشتهد الحرافة في فصل الصيف لدرجة أن من المعتاد بناء نوع من الأبراج الملتوحة على سطح المنزل ولقاعتها تكون مفتوحة بمستوى الفرفرات فيدخل الهواء من أعلى ويخرج من أسفل • • وفيف يروسيو البان Prospero Angeli « أنه نوع من الأتابيب في قلب المنزل يجتلب الهواء ويعلو السطح مسافة عشرة أذرع في المتوسط . ويوجه الملقف نحو الشمال ولا غنة عنه لأي منزل حتى لا يقر منها . فهو يستقبل ريح المصبا العلية وينقلها إلى داخل المنزل » • وتلك الطريقة مستخدمة في السفن الحديثة .

كانت الحدائق كثيرة وربما كان هذا تأثيرا عراقيا ، وما شجع عليه وفرة المياه سواء من النيل أو الخليج أو الآبار أو البرك الجديدة فضلا عن سهولة العناية بالنباتات المخررة •



كانت التجارة تمارس في الأسواق والسوق هو صلمان من الحوانيت على جانبي طريق قد يكون مسقوفا أو مكشوبا • وكانت تلك الحوانيت • دكاكين صغيرة تنظر إلى التهوية والضوء الجيد • ويجلس صاحبها على مصطبة مفروشة بالسجاد أو الصبر خارج الدكان ويجلس إلى جواره العميل • وبالرغم من تواضع تلك الحوانيت في حيثتها إلا أن بعضها كان يطوي كلوزا كبيرة • ويطلق الحانوت بباب ذو مصراعين للفلين يستخدم العلوى منها وقت النهار كمظلة للحنوت والسفل كنضد للبيع والشراء • وقد يشترك أكثر من تاجر في حانوت واحد يتداولون فيه العمل على ورديات • فيحدثنا أبو المحاسن عن حانوت صغير ملاصق لجامع ابن طولون كان يمارس فيه ثلاث من التجار عملهم بالتعاقب الأول كان يبيع غزل القطن من الفجر حتى الظهر • والثاني يستخدم الحانوت كمتبر حتى صلاة العصر أما الثالث فيبيع فيه الحصص والقول •

وفي الليل كان هناك حرس موكلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية وكانت تلك الأسواق تضم جميعا اثني عشر ألفا حانوتا اصطفا على جانبي الطريق الذي يبدأ من عند جامع الحاكم بأمر الله حتى تربة السيدة نفيسة مارا بجامع ابن طولون • ولابد أن أصحاب الحوانيت كانوا يضيئون ذراعا بنشاط الماعة الجائلين ويتشاجرون مهم • فالراجه منهم يفرش بضاعته على منصة صغيرة على الطريق ويحاول أن يجذب إليه المشتريين ويجمع في ذلك لكن هؤلاء الباعة كانوا يسبقون حركة السير

فيطاردهم رجال الشرطة مدفوعين بشكاوى أصحاب الحوانيت المستورين
لكنهم لم يتجهون أبداً في استأصال شأفتهم .

وكذا هو الحال في المرق فقد كان التجار يتجهون حسب
تخصصاتهم ، فعند باب الفتوح وجه الجزائريون وباعة الحبوب والخبز
المجفف وعلى مقربة كان السروجيون يمارسون نشاطهم فإذا ما قصدوا
إلى الجامع الأقصر لعاثت أنولها ووالج متباينة في آثارها للشبهة
تتصاعد من المطابخ والفاكهين والشواطين وبوجه عام من باعة الأطعمة
الذين تحف حولهم سماعة من الذباب . وحول الجامع الأقصر تراكت
مئات القوايس الشعبية التي تستخدم بكثرة في شهر رمضان وهي على
درجة كبيرة من الرقة تسبب في بريق معدنها الأبيض .

عندما ما اتجهنا إلى باب النصر فسنلقى أنفسنا وسط شلال دائم
من الأقمشة المسبوطة يمرحها كل من كانت حرفته تتعلق بلباس أهل
القاهرة من حائكين وصياغين وغيرهم . وعلى مقربة منهم هكتات شباشب
أزواجاً في صفوف ملت على حبال . وفي البقعة الواقعة بين جامع الأقصر
والخزنفش يحسب المرء نفسه في معرض هائل للطيور يتداحل فيه
صوت الساج مع أوجاع البلابل وهديل الحمام فقد كانت الطيور تعرض
في هذا المكان بألوانها أما أرضها لسهوة البطون أو تشيقاً للأذان .

ويقصد البقعة الواقعة أمام تربة السلطان قلاوون هؤلاء من نوع
آخر انهم الضباط والجنود من المماليك الذين يسعون إلى شراء سيوف
وحارب ودروع وزرود من باعة السلاح . ويردد في نفس تلك البقعة
رنين القطع النقدية التي يتناولها الصيارفة وغيرهم وينافس بريق
الجواهر في حوانيت الصافة أشبه الشمس . وإلى الجنوب من
« مدرسة الملك الصالح أيوب » حيث يتجاور ماعة الحلوى يطعمهم اللذيد
مع الوراثين (المكاتب) باعة الخذية الروح . وعلى الجانب المقابل من
الطريق قرب يمارستان (مستشفى) قلاوون تصادف من جديد الجند
وهم يتفقون المهاميز وقد أغلوا يتقلبون بين تلك الرخيصة المصنوعة من
الحديد ، وهذه الفالية المتخلة من الفضة أو الذهب الخالص . وبالقرب
من تلك البقعة ألتد باعة الأقمشة في عرض بضاعتهم من القروشيات
والطنافس وإلى جوارهم ماعة القرفة المتخذ من السمور أو القاقوم
(حيوان من فصيلة بنت عرس) أو الستجاب . أما عند أبراج باب ذويلة
الهائلة فقد اتخذ باعة الحلوى حوانيتاً لهم ومن بينهم من تخصص في
صناعة تماثيل حيوانية أو إنسانية من الصكر .

لسب التجار الأجانب دورا حاما في الحياة التجارية القاهرية . فمن كانوا ؟ يأتى اليهود في المرتبة الأولى الذين استطاعوا بهارتهم النفاذ في كل مكان ، في أوروبا حيث لم يكن يسمح للحرب دائما بالدفن وفي العالم الاسلامي حيث لم يكن يلقى التجار الأوروبيون ترحيبا كبيرا . ومن معه هؤلاء يأتى الفرس وكثير من الأوروبيون وخصوصا الإيطاليون من البندقية ومن نيرا وصقلية وأيضا اقليم الأرجون ومن فرنسا .

لماذا كان يشتري هؤلاء أو يبيعون في عصر ؟ منذ القرن الثامن الميلادي سارت مصر مركزا حاما لتجارة الصبب فكان بعض التجار يسافرون حتى متقونيا في آسيا الوسطى لجلب الإزقة . وقد حظى الفركس والسلاف وجورجيون والأتراك على اقبال كبير . فكان ليس الواحد منهم على من مثيله من الزوج . فعلى سبيل المثال اشترى السلطان علاون في صفاته ببلغ ألف قطعة ذهبية .



والسلعة الثانية كانت التوابل . وكان تجارها يبيعون من وادها أرباحا هائلة حتى انه قيل عنها انها سقطت في يده الخليفة من الجنة فحتمها مياه النيل وقدفت بها الى أرض مصر . وأهم أنواع التوابل التي كانت ترد هي القرفة والقرنفل والمستكة والفلفل والزعفران وحتى القرن الخامس عشر كان البلس شديد التنوع في القاهرة . فقد كان يورد في المطرية وعندما كان الثبات يتقل بالصارة ، كان يخلص ، فيسول البلس منه ، ويجمع ويترك لفترة ، ثم يسوى على النار . ثم يوزع السلطان بعضا منه على أصحابه وعلى المستشفيات ويرسل الباقي منه الى إيطاليا .

ومن بين السلع التي اشته عليها الطلب كانت المياوات (وهي الأجساد التي حطتها قدماء المصريين) فكان يستخلص منها عطار . وقد اعتقد انها تتألف من مادة اللطران التي خلطت اللحم البشري وقد خلطت مع مجموعة من المواد المطهرة . وكان منها نوعان المياه البيضاء وهي الأقل جودة ، والمياه السوداء وهي الأفضل وخصوصا اذا كانت ليست عندها وقد صاد الاعتقاد قديما في قيمتها العلاجية . فصدر منها في عام ١٤٢٤ م الى فرنسا كمية قدرت بـ ١٢٥ كفي ذهبي ecos (الواحد منها يساوي ٣ فرنكات) للكوبنتال quintal (مائة كيلو جرام) .

ولن نطيل في سرد بقية قائمة السلع التي كانت تباع في القاهرة

حيثما خشي الاملاك ولكن لندكر باقتصاب بعض المنتجات الحيوانية مثل درقات السلاح وريش النعام والسياط من جلد فرس النهر والجلد المراكشي كانت الثخامات المعدنية تجلب من أوروبا عدا الذهب الذي كان يأتي من السودان ، والأحجار الكريمة من سيلان والهند وإيران . ونذكر أيضا السكر المستوع في القسطنطينية والسجاد المسجود في مصر وإن كان يسمى « سجادا تركيا » الخ . فاذا ما أردنا الاختصار قلنا كان المرء يجد كل شيء في القاهرة ، ومن كل أنحاء العالم من بغداد والجزيرة العربية والقسطنطينية وسوريا والمغرب كان يأتي الناحسون إلى القاهرة ليرودوها بالصبيد .



ترك لنا المصورون الذين زاروا القاهرة في المصور الوسطى لوحات لها طعنة بالحياة مثل شوارعها وهي مكتظة بالناس نهارا ، أو أبواب حاراتها الخشبية وقد انفلقت ليلا وحسبنا يذكر لنا فرسكو بالملي Friedebald وقد سبقت الإشارة إليه ، أن أكثر من مائة ألف من سكانها كانوا ينامون في الحلقائق أو على قارعة الطريق . وإن هذا من الطبايح كانوا يمارسون مهنتهم في الطرقات ليلا ونهارا ويطيحون في قنود يدوية من النحاس الملبىض وطعامهم فائق الجودة إلى الحد الذي يفضل الناس معه إلا يطبخوا في منازلهم ويكتفون بشراة من الأسواق « ويتناول القوة قطعا من لحم الخبيل (١) والسمي (٢) » (١) والجمال في طبق نصاية ويأكلونها جالسين القرفصة وبمعدا يملأون أصابعهم . (خوري) ويخبرنا القريزي بطعام المائة فيقول : « ماكل أهل القاهرة الخسيس (الفول المنس) والسمي (صفار السمك) والصحنه ولبطارخ . ولا تصنع النيلة (وهي حلالة القمح) إلا بها وبقرها من الديار المصرية . وفيها (القاهرة) جوار طبابخات ، أصل تعليمهم من قصود الخلفاء المملوكيين ، لهم في الطبخ صناعة عجينة ورياسة متقدمة » ، وكان زيت بذرة الكتان يستخدم في طهي الطعام ويتم الحصول عليه بسحقها بالتمام الصابرين الطافية أما في الأحياء الرافية فكان المستهلكون يصرون على أن يتلف الصابرون إلامهم بحجر الخفاف وإن يرتكوا كدمات على أرواحهم (مزهرى) . وكان هذا الزيت غال الثمن ، لذا كان يتم في كثير من الأحيان خلطه بزيت الزيتون ونحس الثمن . أما عن القربا فيقول القريزي « وعامتها يشربون القرد الأبيض المتخذ من القمح ، حتى إن القمح يطلع عندهم سهرا بسببه ، فينتلئ القنادي من قبل الوقت يقطعه وكسر لوانيه ، ولكن كان المرء يكتفى عادة بشرب الله . وكان يوجد بالمدينة

مخرجون يسألون أهلها : « كانوا يرتدون القرون ويكسبون أجسادهم بالريش ويكسبون وجوههم تعبيرات غامضة ويحصلون في أيديهم مصابيح كميوجين » ويقولون بحركات غائبة وفقرات مجنونة كالمبتدئين في الطلح ، « حوى » *

« كان رجل الشارع يتسم بالمرح والتسامح ويهتم بعودة طعامة وحسن شرايه وكان يميل الى الضحك لما تراسى القول فلا يفضيه . لكن رجلا جدا كالرحالة بن سميد يعبر عن مسخه فيقول : « ولا يتكر فيها الظاهر ، أو لنرى الظاهر ، ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولا تبرج النساء العواصر ، ولا غير ذلك ، وما يتكر في غيرها من بلاد المغرب » *



وقد آثار حسن بنية أهل القاهرة حينذاك إعجاب الرحالة فيقول عنهم صيحوون *Sans Scènes* « أنهم قوم تسليفي الحسن ، أجسادهم تفوق أجسادنا ، وكلهم يعرض على أن تكون له لعبة شديدة طويلة . وبها عدد كبير من اللاعبين الذين تمنوا الله أن ومن الممتع حقا أن نتأمل جمال هؤلاء وما هم عليه من مهابة » . أما عن نسائهم فيقول الرحالة الإنجليزي جون ليو *John Lio* « أنهم جيلات .. وشيرات الى حد ما ولا يظهرون عنه من يريه للرجح - وتعلمن بطيوس العبارة . وينهبن الى الاستكبرية ودميات مثل استعجار الكبار . ويركبن للانتقال خيلا وحيدا حسنة الزينة كما يركبها فرسان » . ويتحدث عن محمد أبو حامد بحماس كبير ويذكر حديث الامام الشافعي : « من لم يتزوج حسنة لم يعرف الزواج الحق » (١) *

ويصف جيل الرابع *Gilès le Bovvier* الذي زار مصر عام ١٤٥٠ م أهل القاهرة فيقول :

« يرتدي أهلها ثيابا تشبه تلك التي يرتديها الشمامسة في فرنسا عندما ينشدون في القلنس . وهي منتفخة الاستماع . وه في أهل لم في أسفل ولبابهم مشغوفة في النصف وهم لا يرتدون أحذية ولكن يلبسون ثعلا صغرة وعندما يذهبون الى المدينة وعندما يكونوا في ابلان يخلعونها حتى يرتدوا القلنس . ويرتدوا على ثيابهم عبايات من نسج أبيض كما يفعل القساوسة الفرنسيون . ويلفون حول رؤوسهم قماشيا يبلغ طوله

(*) فيلسوف يوناني يدعى أنه كان يسبح في وضع النهار ويبدو حبيبا دائما
 أنه يفتخر من الحقيقة .
 (١) ترجمة من النص الفرنسي .

من ثلاثين الى اربعين ذراعا ويسمونها toques ويقتلون لها القشة
ثمينة حسب قدراتهم ولا يتنكر هؤلاء بالنس ابدا فحيتاتهم دائما واحدة .
وعندما تخرج نسائهم ترتدى الوحدة عبلة من قماش وطرحه ترخيها على
راسها وتلقاها خليفا على وجهها وترتدى ثوبا اصفرا ويمكن لمن بهذا رؤية
الناس لكن الناس لا يستطيعوا رؤية وجههم .

ولا يمكن للمرء ان يغفل دينته في القاهرة حيث يرتدى المسيحيون
عمامة سوداء او زرقاء ، اما المسلمون فيرتدونها بيضاء واليهود صفراء .

ويرى المرء احيانا في الطريق ثلاثة او اربعة رجال مقبدين بسلسلة
حديدية «سوداء الى ولى يحرسهم » وهم لصوص يستجنون الناس ولقد
فرض عليهم السلطان ان يذهبوا اليه مدينين او ثلاث كل ليلة فان لم
يذهبوها ضربوا . وبينما هم يستجنون الناس لا يتودعون عن مرقتهم
اذا ايجعت لهم فرصة حتى ينجوا من القلاب الذى يتوعدهم بالليل .



يعيش كلا من الرجال والنساء فى انفصال فلا يحق للمرأة ان تبصر
فى مجتمعات الرجال خلا الرافصات منهن والمفتيات . لكن مجتمع
النساء ، لا يخفى من مرح ونشاط . فهن يتنزهن فى الحدائق ويعتبن
بمنزلهن ويعتبن بتربية اطفالهن . وكثيرا ما يستقبلن اصديقاتهن فى
الحريم فيتشغلن بالحديث عن الآلية والزينة ويطنفن فى ذكر الطيور
او يتبادلن الاشاعات ويتحدثن عن الزواج ووصفات الجمال او اعداد
الطعام . (مراعى) وغدا يردن الظهر يجتمعن ويحضر لمن الخدم
البحرى ولديهم الطعام على صوان كبار . وتأتى مفتيات ورافصات يرتدن
على انعام موسيقى مكشوفة البصر ، وهم من يسمح لهم بالدخول الى الحريم
من الرجال .

« كان الذهاب الى الحمامات العامة من اكبر متع نساء ذلك العصر
فال جانب الاستحمام كن يتجملن فيها . وبعد ان تترك اجسادهن بقلادة
من صوف خشن كن يتناولن طعام يأتى به خدمهن من منزلهن ، ثم
يسترحن ساعة او ساعتين وتعتنى بتجميلهن امرأة تعرف « بالبلانة » ،
وهى تتولى صبغ شعورهن بالحناء فى عناية لائقة حتى لا تطفخ جباهه
او اغناق زبانتها بتلك الآلة . وتكسب الحناء الشعر درجة جميلة من
الاحمرار . وكانت الشقراوات يصبغن شعورهن بالسواد لان الاحمرين
لم يكونوا مؤلفين بهذا النوع الا اذا كان فى حريم السلطان اميرة شائرة-
تعهد النساء الى محاسنهن . وكانت النسوة تنظفن اجسادهن من الشعر

• بعضينة كبريت الزرنيخ الأصفر والكلس تترك الجبلد أبيض وناغم
الجلد - ويتبع هذا صبغ الأظفار والمساج - ثم يأخذن حماما لائرا لراحة
الجسد وبعد يستمتعن بالحلوى والفاكهة (مزهرى) .

ولم تكن كل امرأة فى القاهرة تضع الحجاب - فقد كان هذا العرف
قاصرا على المنصات منهن وكانت المسيحيات يرتدين النقاب أيضا - فهو
إشارة على ارتفاع المكانة الاجتماعية على الدين - والنسوة المحترفات
يرتديه للحفاظ على بضاعة الوجه وتقاء بشرتهن - أما العائلات والناسبات
وصابغات الملابس فلم يكن فى وسعهن ان يتمتعن بهذا الترف .

• والاحتفاظ بالنسوة فى لسيهن بالمتزل (التحريم) حيث تطهين
الجوارى ترف لم يكن يحد عليه البسطة - فكان على نسائهم ان يخرجن
الى الطرقات مكتوفات الوجوه ليمنجن بشؤونهن .

ولم يكن من الجائز للرجال دخول التحريم الا ان للتصميم والاطمئنة
والنجاح ورواة القصص كانوا يدخلون اليه على ان تتعجب النسوة كما
يلعبن لو اردن الطسروج - ولا يقل وجود التحريم بالضرورة على تعدد
الزواج - فمثل هذا التعدد لم يكن الا بملوكور الأغنياء - فحريم أهل
الطبقة الوسطى والصغرى والعمال لم يكن يضم الا زوجة واحدة .
(مزهرى)

• كان الرجال يطلقون اللحن فى العادة - وطول الخصلة وشكلها
ولونها يحدد مكانة صاحبها : فهي طويلة عند أهل الطبقة الوسطى ،
وقصيرة عند العمال والخدم (مزهرى) - ويحلق شعر الرأس تماما
عدا خصلة واحدة (شوفة) بيد ان رجال الدين والعلم كانوا ينظرون
الى تلك العادة بازدراء - وكان لكل رجل ذو مكانة ختم يجعل اسمه وتلقب
هائلته وعلامة صانع الختم وتاريخ صناعته - وكان على صالحي الأختام
الاحتفاظ بسجلات تحفظ طبعات من الأختام التى يصنعونها - وكانت
تصنع من البرنز أو الفضة أو اليشب أو الذهب - اما أختام الحكام فمن
اللبق تتخذ أو الزمرد أو الماس - وتلك الأختام تقوم مقام التوقيع -
وأحيانا تكون تلك الأختام على خواتم تليس فى خنصر اليد اليمنى وكان
المرء يسمى بحمل الشبك (غليون ذو بلسم شديد الطول) معه فى كل
مكان ولذا كان الثراء يكلفون أحد الخدم بحمله والسير به خلف سيده .
• وكان مستثم الرجال يحملون مسابح تتخذ من خشب البقس أو اللبغون
أو الأبانوس أو خشب الورد أو العنبر أو حجر اليشب أو الصندل -
ويستخدمها أهل الودع فى التسييج بينما يستعملها الكيون كمهدبات .

ويحمد بعض الكثرلون إلى سقايا حلتها حبه بعد الأخرى بهركات وشيعة
تظهر جمال أبدعهم « (مزاهري) »



كان الدين يلعب دورا هاما في حياة القاهرة . فمن على قمم المآذن
يسادى المؤذنون على الصلوات الخمس التي شرعها الاسلام . ويختار لاداء
تلك المهمة في الغالب المكفوفين حتى لا يجرحوا حرمة المسطح المنازل
المجاورة . وعند أدان العشاء يضيء المؤذن مصباحا في أهل سارية من
الخشيب حتى يبه قاطبي الدور البعيدة الذين لا يصل إليهم صوته .
ويساعد رجال درسوا علم الفلك كي يتمكنوا من تحديد مواعيت الصلاة
نادا ما عاينتهم لسحب عن رؤية السماء . لحاوا إلى ساعة مائية مظلطة
في المسجد . وهي تعلن عن الساعات وانصافها وأحيانا أرباعها بأصوات
موسيقية ميكانيكية في النهار . أما في الليل فتستخدم مصابيح مختلفة
الالوان .



ولتزويد المدينة وبلادة بالماء شيدت العديد من الاسيلة . وقد بناها
الأثرياء ليكفروا عن أنامهم في الماضي . وبالسبيل حرائ أسفل مستوى
الطريق يملأ لسقاؤن بقرهم . وعلى واجهة اسبيل أحواص تظلمها
صليفة ويأتي إليها الماء من الأييم وحصاية ويشرب الناس منها مباشرة
أو يستخدمون أكوانا توضع على حواف نوافذ السبيل . وعلى نواص
الطرقات توضع أزيار فخارية يشرب منها الناس . كان بالمساجد نفورات
للوضوء يمكن أن تستخدم لجلب الماء للغرب .



ويحدثنا الرحالة عن آثران التفرغ المشهورة بالمدينة ، التي كانت
تستخدم لتفريغ البيض تحريفه للحرارة ، فيمكن لواحد منها ان ينتج
من خمسة آلاف إلى ستة آلاف بيضة في ستة أيام حسبما ذكروا .
يقال ان أهل المدينة لا يؤذون ابن عرس الذي يكثر في كل مكان
لأنه يقتل الغامبين .

وكلاب المدينة تتمتع بفرجة كبيرة من الوطنية فلكل مجموعة منها
منطقة معينة . والويل كل الويل لمن يجزوه منها على المشول في منطقة
الأخر .

ومن متع القاهرة حينذاك كثرة طيورها التي تضي على الحياة

مظهر^١ حلوا بأصواتها والمأبها - فتوصف في رسالة إلى زكي الدين الحسيني .
« وقد امتلأت بهن الإغالي ، وتكلمت بنجومهن الأملاك ، وشرين من
جرياتهن فاسكرهن الاصطباح والاختباقي : فكم من مسود كضال يخذ ،
والزوق ككلا زود ، واشقر كزهر ورد ، احمر ناصع ، واصفر طالع ،
وابيض ذو خضاب عندي ، بلطيف متقار بقى ، ومبرقش ومبمع ، ومعم
ومقنع ، واشقر منقش ، ومبرقش مرشش وعوى وهنسى ، وصيني
مسنى ، وعينين كياقوتتين قد وصعتا في لجين ، وكم من طائر ايهي من
قعر صائر ، بفرق مثل صبح مسافر . وكم من اطياف طواف ملاح لطاف ،
ذوات العان ونفرة والآن ، وخلق والخلق ، ونطق والطق ، وابتناس
مع شماس .. قد اتخذت الأرض بأصواتها » .

وقد لاحظ الرحالة جونا Bazzani في عام ١٥٥٤ م كثرة البمام
في أطراف القاهرة وكان قنصل فرنسا يحتفظ في بيته بواحدة
مستأنسة قال عنها الرحالة : « انها لا تنفك تأكل طيلة النهار »
اما فرسكو بالدي فقد لاحظ كثرة الحمام حتى انها تدخل لها ثلاثة
أعشاش في جبرته ووصف رحالة آخرون حيوان غريبا شاهده في
النبيل (يبدو انه التمساح) قائلا : « انه أشبه بذهبان لمع لمعونه
calceatix رأسه ضخمة كرأس الجواد وحسنه أشبه بالوحش .
الذي قتله القديس جودج » .



وخير ما يمكن أن يصور لنا الحياة في القاهرة الصور الوسطى
أشعار شعرائها وقصص ألف ليلة التي كتبت في هذا المهد وتلور
حوادثها فيها - وخلف لنا البهاء زهير (توفي عام ١٢٥٨) ، سكرتير
الصالح أيوب أشرافا ، تحصل نبرة حسية تلور حول الحب فيقول عن
ممشوقته :

شبهها مثل خط الجمال .. فلفتها كالرجح

وبالرغم من رقابة الأهل والحرص على قراءة عن الفتيات اللاتي يلاتن .
أحيانهن - وبالرغم من وصايا الرسول فقد لعبت القهر دورا هاما في
حياة القاهرة - ويقول عن هذا الزعيم :

تشرب وتلوي يا ولقي وليذهب الرقيب إلى الجحيم

كان الكثير من سلاطين المماليك مولعين بالخمر حتى ان يبرس
العظيم كان أحيانا يتصرف عن تصريح شؤون الدولة لسكره .

ولم يكن المرء يشرب وحده بل يفضل المجالس التي تسمو فيها روح
المرح وتتناثر في أرجائها الأزهار . ويضج الواحد لبعثه وثوبه بماء
الورد ويحرق البخور والصبر الرمادي في مياثر . وكان الرقص والغناء
رفيقين لا غنى عنهما لثل تلك المجالس .

ويقوم بالقاء فتيات مرجأت وشيقات كالصفاق وجههن حسنة
كالأقنار ويرددن اشعار الحب العربية على موسيقى المدود ، بينما تتمايل
الراقصات بعركات شهوانية على صوت الرباب والدف .

ويشقه ابن سعيد بشعة بغنى لوجه الحيرة في القاهرة :

لا تركبن في خليج مصر	الا اذا تسدل القتل
فقد علمت الذي عليه	من عالم كلهم طمام
صفاد للحرب قد اقبلا	سلاح ما بينهم كلام
يا صبيلى لا تسر اليه	الا اذا صوم النيام
والليل صتر على التصاير	عليه من فله لثام
وتنتهى من شعره قالا :	
لله كم افوحة جنينا	هناك الصارها الاثام



وعند الاحتفال بالأعياد الكبرى والأحداث الهامة ، تطوف بالمدينة
مواكب احتفالية وتنظم تلك المواكب على نحو دقيق . فمثل سبيل المثال
خرج السلطان بيبرس يستعرض جيشه فكان يسير في القلب ، مستطفا
جواد ، مرتديا جبة من حرير أسود . ذات اكمام واسعة غير موشاة .
وكان يرتدى عباءة من حرير فاخر يتدل طرفها بين كتفيه . وعلى جانبه
يتدل سيف يدوى في غمدته تخفيه الثياب : ويسير أمامه الأمراء حاملين
رموز السلطة . وكانت غاشية الجواد (غطاء الخيل) مغطاة بالذهب
ومرصعة بالأحجار الكريمة . ويحمل أحد الأمراء أو قائد الجيش مظلة
فوق رأس السلطان وهي مصنوعة من الحرير الأصفر ومتوجة بصورة
طائر جاثم على قمة من ذهب .

ويكسى جواد السلطان ثغلاء من جزئيين من الستان الأحمر وينطى
مؤخرة الحصان من الحرير الأصفر المطرز بالذهب وينطى عنقه . وعلى
مقربة منه تحمل الراية السلطانية وتحمل فرق الجيش رايات من الحرير
الأصفر تحمل شعارات قواها . ويسبق السلطان بخطوات غلامين على
خرسين أبيضين صروج مطعمة . ويرتديا ثيابا من حرير أسود مقصصة

بالذهب وكوفيات من نفس النسيج . وعليها أن يحسب الطريق للسلطان . وفي القلعة يسير لاعب مزمار بصحبة أحد القسطنطين الذي يحمل دفا ويغنى عن أعمال البطولة للملوك الأتقيين . ويصحب الملوك شعراء ينشدون القصائد وإمام وخلف السلطان يسير الحرس شاهرين الطاريد (حربة مزودة بفأس ومفردها مطرد) والى يمين السلطان يسير الجوكندار (حامل مصرب السلطان في لعبة البول) وهو يعمل « خناجر النبوة » في أعينها . أما إلى يمين السلطان فيحمل دوع وخنجر آخر . وبالقرب منه يأتي الحكمدار (حامل الصولجان) وهو رجل وسيم طويل القامة يحمل الصولجان ذو الرأس الذهبية وهو لا يرفع عينه أبدا عن وجه سيده . لم يتوالى مسير كبار الضباط والقادة محطوفين بقدر أقل من الاتباع .



وأحيانا يذهب السلطان إلى الصيد . ويصحبه في رحلته خمسة أو ستة آلاف فارس معهم الصقور والطيور . وأحيانا أخرى كان يمارس اللعبة رياضية كلعبة البول . وتلعب تلك اللعبة في ميدان واسع محدد بطين على كل جانب وتوضع في وسطه كره يحجم رأس الإنسان متفوخة بالهواء ثم يأتي ألف ملوك على جيادهم وينقسموا إلى فريقين يواجه الواحد منهم الآخر . ويحاول كل واحد منهما أن يذف الكرة بمضرب خلف خط الآخر . وغلب تلك اللعبة قد يؤدي إلى إصابة أحد اللاعبين بكسر في ذراعه أو قدمه . وإذا ما سقط من السلطان مضربه هوا ، تسارع المماليك إلى التقاطه فمن يتجح في ذلك يأخذ جواد السلطان وكل ثيابه التي يرتديها في هذا اليوم .



ويصف لنا ابن دقاق الذي عاش في نهاية القرن الرابع عشر عيد وفاة النيل . فعندما يصل ارتفاع ماء النهر إلى ستة عشر ذراعاً يطلق حاكم القسطنطين في نافذة القياص التي تواجه القسطنطين راية (ويحيطون بالدينة في الأيام التي تسبق هذا الحدث فنية يرتدى الواحد منهم لحاء الرأس أصفر اللون ويغبروا أهلها بارتفاع النيل) . وإذا كانت الأنبياء سارة يقدم لهم التمس بعض الهدايا .

وفي الليلة التالية تضاء جزيرة الروضة بأسرها وتكثر فيها القوارب وتزين بسفح . ويقاد فيها النفط الموشح في أوان خاصة . وتحمل تلك القوارب التي تنزل على صقحة النيل الموسيقيين .

ويلعب السلطان الى القياس أو يوجه نأليه • ويقرا القرآن حتى الصباح ويشهد للشدون مدائنهم • ثم يتخذ السلطان أو من يوبه عنه ، ان كان شائبا ، مكانا على المائدة • وتطلى الاشارة فيسارع الناس الى التهام الطعام المهد في الليل والذي تضمه في صفوف متوالية • وعندئذ يستل السلطان أو أحد الأمراء القياس • ويهبط • ابن أبي اليرداد • الى القاع ويملا كوبا به بعض الزعفران بالماء • ويوشه على بدون العمود الذي قسم الى دوجات توضح ارتفاع الماء •

وبعد تفريق الخلع على حاكم المسطاط وشيوخ بحارة المراكب السلطانية والأمراء والعظماء ينهب السلطان بسقيفة الى السند الذي يسد الخليج ليكرسه • وهناك يجتمع معظم الأمراء وكبار الموظفين على قنطرة • وعندما يصل الرجل الذي كان قد تفرق الله على عمود القياس يتناول مولا ويضرب به السند • ويقلعه الآخرون لما يلبث الله أن يجري في الخليج •

وفي هذا اليوم يصعد الناس الى التنزّه في القوارب المريئة ويحصلون منهم الطعام ويستمر الاحتفال أسبوعا قد ينفق فيها ثابرا كل ما ربحه أثناء عامه المصرم •



كان الكثير من مسلاطين الممالك رجالا عظماء مولعين بالابنية الجليلة • لها هو بيبوس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) مثالا جيدا لهم • كان من أصل تركي أرق العردين • وقد اشترى بثمان بفس في طفولته بسبب احبائه بالمياه البيضاء Catarrho وكان ضخم البنية ذو قوة هائلة وجراة وحيوية فائقة شابت نفسه القسوة والتعطش والانتقام وكان دائم التجول في أنحاء الدولة حتى ليبس في أكثر من مكان في وقت واحد • وقد راعى في صرامة تساليم الاسلام فلم يتخذ سوى أربع زوجات كما حدد الشرع وعاقب بصرامة شاربى الخمر • وبالرغم من أنه كان مكروها من الأمراء المحيطين به إلا أنه صار في وطنه القصب المصري لفترة طويلة بطلا للحمية من القصب التي كان الرواة يصفونها على الناس في الأماكن العامة • ومات بيبوس من كأس مسمومة أعطاها خصم له وشربها خطأ •

وتدين له القاهرة بمسرحية شيعت في عام ١٢٦٢ م وبالجامع الذي يحمل اسمه ، والذي بني في عام ١٢٦٩ م خارج سور المدينة •

ويقع حاليا في الحي المعروف باسم « الظاهر » وقد بني برخام وخشب جلبا من قلعة يافا في فلسطين • وحوله الفرنسيون أثناء حملة

تأبليون بعد خمس قرون من هذا التاريخ إلى القلعة . وفي عصر محمد علي صار مدينتها ، ثم استخدمته قوات الاحتلال البريطاني مجزأ . أما الآن فقد تحول صحنه الذي يذكرنا بجامع ابن طولون أو الحاكم إلى سديقه عامة تتجارب فيها أصداء عجكات الأطفال طيلة اليوم .

واحتاج السلطان في عام ١٢٧٥ م إلى أعمدة لتزيين إحدى منشأته في القاهرة فامر بهم باب البحر حتى يستفاد من أشجاره الضخمة في هذا الغرض . وأثناء العمل وقع حادث أثار الاهتمام . فقد عثر على صندوق بين جدران الحائط . وجد فيه عنقاً فتح نشاله صغير من النحاس الأصفر . ملقى على قاعدته . وكان يحمل لوحاً به نقش يمثل رأساً بلا جسد وكتابات قبطية ومسوراً أخرى وكان بالصندوق لوح يقبه تلك الأقواس ، التي يستخمسها الصبية في الكتاتيب ، وكان به ثلاثة عشر سطراً الأول منها : « الإسكندر (الأكبر) » والثاني الأرض وجبها له . « والسطر الأخير » ييبرس ملك الزمان والحكمة كلمة الله عز وجل » . وقد استدعى أماسيا يعرفون القبطية . فقالوا إن اللوحة طلسم صنعت ابن الخليفة الحاكم حتى يحمي مصر من أعدائها وغد أي خطر . ويبدو أن المقريزي الذي روى لنا تلك القصة لم يظن إلى الملق الصريح الذي اضطرنه مترجم اللوحة الذي .

اشتهر السلطان قلاوون الذي خلف بيبرس بمصرسته ومقبرته ومارستانه الذي بناه وغاد ليلز نفوس ألفاء أصابته بمرض في عام ١٢٨٤ م . ولم يبق شيء يذكر من مارستانه إلا أن مقبرته . وقد أصبحت بمهارة ، تباهي بمهارة وتنافس خطوطها . وقد أعيد بناء قبعتها المبهارة هل نسق قبة مقبرة فاطمة خاتون التي خسيفت أيضاً في عام ١٢٨٤ م وخصصت لتضم وفات بعض أعضاء العائلة السلطانية .

وقد ألف السيفساء التي تكسو الجدران والدعائم المستطيلة من غير أمثلة هذا الفن في القاهرة .

ومن منشآت هذا العصر قرية الأشراف خليل (١٢٨٨) الابن الأكبر لقلاوون وخليفته . « وقرية الشيخ أحمد بن سليمان الرفاعي » (١٢٩١) وقرية « منبج الجاولي » (١٣٠٤) التي تضم مقبرته ومقبرة صديقه سائر وكلا منهما تحت قبة مميزة . وأخيراً مسجد وقرية « محمد بن قلاوون » (١٣٠٤) وبوابتها كانت قد انتزعت من كنيسة القديس يوحنا بمكا على يد السلطان خليل بن قلاوون .

وبعد عصر الناصر محمد بن قلاوون العصر الذهبي للمسيرة في

القاهرة • وكان الماصر قليل الحجم • به عرج • ومصاب بالمياه البيضاء
من عينيه (١) ، وكان قويم الأخلاق ، ذو ذكاء وافر حيوية كبيرة وإرادة
من حديد وإن كان مغلوبا كثير الحيل وشديد الانتقام • وتمتع بدوق
كبير ورفى على فكان يرضى العلماء وكان صديقا لأبو الفدا المؤرخ •

وهو الذي يسمى جامع القلعة الذي ذكرناه آنفا بمعرض حديثنا منها
وطبقا للمؤرخ لين بول Isaac Poole فهو الذي بنى قنطرة مجرى
النيلون التي كانت تقضى القلعة بالماء الحلو والتي تسمى خطأ
لمصالح الدين •

وقد بنى مسجد آخر قرب « تربة السيدة نفيسة » و « قبة النصر »
بالقرب من الجبل الأحمر ومنشآت أخرى أقل أهمية •

وفي سفح المقطم تقع « مدرسة السلطان حسن » (١٣٦٢) إحدى
روائع العمارة الإسلامية وقد استعملت مرارا كحصن لمهاجمة القلعة •
وتروى أسطورة أن السلطان له أمر بقطع يد مهنته عند فراغه من
البناء حتى لا يبين مثله وكما يقول المقرئى : لا يعرف لى بلاد الإسلام
معيد من معابد المسلمين يطأى هذا الجصع • ويقول عنه جايه Gayet
« انه حقا من ابتاع عمائر الفن العربى بضخامة نسبه وكثرة نقشه وبهذه
رخامه ولين ورقه زخارفه ونعومة نقشه فيسلبه وروعة
نقوشه » •

ولا يجب أن نسى مدرسة السلطان المؤيد (١٤١٥) بحديثها
والرائعة التي تنوسطها فوارة بديعة تكاد تتواري بين أشجارها وشألتها
وأحواض زهورها • وقد حلت محل سجن عرب بخزانة شمائل سجن
لجيه الأمير منطاش المالبكي الذين قمع ثورتهم ومن بينهم مملوك رور الى الله
أن نجى من تلك المحنة لينشئ مسجدا على تلك البقعة التي قاسى فيها
الآلام • وما لبث أن صار سلطانا فلقب بالمؤيد • وقد أوفى نذره وتنهض
محلها المدرسة شامتحت على برجى باب ذويلة وكزين بوابة المدرسة
مقرنصات أنيقة على بساطتها •

وعلى نسق السلاطين أراد كل أمير أن يقيم مدرسة أو جامعاً أو تربة
أو حتى فوارة •

(١) يذكر المقرئى أنه كان مصابا بالحوك • ويقول انه كان مهيا عند أهل منزله
حيث أن الإجراء لما كانوا يغمسونه لا يجسر الواحد منهم على أن يكلم آخر كلمة واحدة
ولا يلفظ بعضهم إل يطفى غولما عنه •

وقد ادعى حماس مسلمي مصر الرحالة ابن بطوطة الذي زار القاهرة في عام ١٣٢٦ م - فبين عامي ١٣٢٠ ، ١٣٦٠ يس أكثر من أربعين مسجدا في القاهرة منها ما يقع من اربع المساجد التي تعرفها ، وذكر منها « الأمير الماس » (١٣٢٠) الذين تزين بوائكه الرابق وجامع « المرداني » (١٣٤٠) التي تفصل صحنه عن بيت صلاته أحجية خشبية بديعة ومسجد « القنفر » أو « إبراهيم آغا » (١٣٤٧) المعروف حاليا باسم « الجامع الأزرق » وتزين حائط قبلته بلاطات من القيشاني الفارسي مزينة بزهور خضراء أو زرقاء اللون على أرضية بيضاء وتغطي الشجرة المزروعة في قلب الصحن بوعاء على الجامع الذي يقع مسجدا بتناسق لسميه مع جوه الجنود الصديقي *

ولا يغفونا ذكر « مدرسة وخنفاء شيخو » (١٣٤٩ - ١٣٥٥) وقد بنيتا متواجهتين على جانبي طريق • وواجهاتهما متطابقتين وكذا مثدنتيهما • وأيضا « مدرسة صرعتشي » (١٣٥٦) الذي جلد برخام بديع يحمل ذلك (شعار) مؤسسه *



ولن ننسى في تعداد عناصر ذلك العصر أكثر من هذا لكن لابد من الإشارة ولو ببضع كلمات الى المقابر المشيئة في البقعة المعروفة اليوم خطأ « بمقابر الخلفاء » فليس هناك مكان في القاهرة أكثر منها يوسى للمرء انه قد عاد في الزمان الى العصور الوسطى أيام المماليك • فلا شيء هناك يذكره بالقرن العشرين ننسى الى تربة وخنفاء فرج بن برلوق (١٤١٠) بقبتيها الحجرية وهما أول القباب الحجرية في مصر فيما يذهب وتنسجما في انساق غريب مع الصحن الرائع التي كان يخطط له المقريري (١) يوما • الى الشمال يقع مسجد وتربة وخنفاء (٢) اينال (١٤٥٦) • وغرائها تغطي انطبعا بعلامة واتساع المنشأة التي لم يصل اثينا منها سوى مثدنة بديعة • والى الجنوب تنتهي تربة قايتباي (١٤٧٤) احلى روائع الفن الاسلامي في القرن الخامس عشر *

(١) أحمد بن علي المقريري (١٣٦٤ - ١٤١٢) مؤرخ قاهري مشهور أسرته من أصل مسلم إلا انه عاش حتى وفاته في مدينة القاهرة وحلف لنا كتابا عظيما في جغرافية المدينة واسم حائرها وعلمت أعمالها وتاريخها اسمه (التوطط والاعتماد بذكر الخطط والأثار) *

(٢) كلمة فارسية وتعني بيت وتخصص لتكني المولية للمصريين الى العبادة ويطلق على معادهم الأوتك التي يهبوا للمظلة الرأسية وهو الخشب بالدير منه للسجدين *

فأمره لا يملك إلا أن يصحب بروعة نسبهما إذا ما شاحدهما من بعيد فالمر الذى يؤدى الى بيت الصلاة والمقبرة مقبى يذكرنا بالمسيرة القوطية . وتتسامى المئذنة الرائعة الى السماء ويتحول بدنهما من مكعب الى مثلث فاستطوانة بصورة تبهج العين بتباين تلك الصور . وحلياتها المعمارية تؤلف وحدة متناسقة لطيفة فبرى المرء في الفورة الأولى كواثى من زينة بأعمدة صغيرة ، وشرفتها قائمة على مقرصات ، بينما سورها مؤلف من أشكال نجمية متشابهة وترفع الفرفة التالية مقرصات مختلفة في البدن . وتنتهى المئذنة بقمة بصلية .

وقد آلت تلك الآثار الى حالة سيئة فتآكلت جدرانها في كل مكان وتشرحت قبائها الضخمة وتصدعت بوائكها فانكشفت أعمدتها الى السماء . وفى ليلة مقمرة يشعر السائر بينها أن جدرانها قد استحالت الى حجب فضية قد تشعب لينفذ البصر الى تلك المقابر الشامخة حتى يتمل من عظمتها . ويميز المرء بوضوح الزخارف العربية التي تتشابه على أسطح قبائها فوحدها النبالية الرقيقة تنوح قسم الجدران والتمكيمات الضياء التي تتناثر هنا وهناك في صمت الجبانة تخلع عليها مظهرًا حراليا يخلصها عن أرض الواقع حتى ليخال للمرء أنها عادت لساعات محدودة الى سابق مجدها .



وصلت القاهرة الى ذروة مجدها في النصف الأول للقرن الرابع عشر تحت الإدارة الحازمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ومع الأمن الذى نعمت به البلاد ، أتى الرخاء وتواكب نجاح سياسة السلطان الخارجية مع الداخلية فتعم الفلاح بالأمن من طغيان الأمراء بفلسل الاجراءات الصارمة التي اتخذها السلطان . وأثار ثروة القاهرة الحسية في مختلف ميادين النشاط مما دفع بها الى الأمام . ولدى ثروة السلاطين والكبراء الى اغراق المتاجر بالسلع المختلفة مما عاد بالربح على التجارة وارتقاع حصيلة الضرائب وأضفت الاحتفالات العديدة بالأعياد قدرا من البهجة على حياة البسطاء .

ثم حل نحو مفاجيء تعوقف القاهرة عن مسيرتها وكأنما قد انهكها الاعياء . وتبدأ سلسلة الصعاب بالويله الرهيب الذى أصابها في عام ١٣٤٨ . وتزايذ القوضى ويم الظلم في الريف . وتتصاعد حلة الصراع بين الأمراء وترتفع معها الضرائب وتدهور قيمة النقد . ويسانى الناس من القحط وتلفر أحياء في القاهرة . وأخيرا تصطب الإتقطة التجارية

والصناعية بضريبة هائلة يتدخل السلطان ودوى النفوذ بأشكال عدة من مصادرات الى بيع السلع الاجبارى بأعلى الأسعار .

ويعتم العشمايون بأنهم هم الذين قضوا على حضارة العصر المملوكى الراهرة . لكن حقيقة الأمر أن الإضمحلال كان قد بدأ يندب منذ وقت طويل ، فقد كتب دومينكو تريفيسانو Domenico Trevisano فى عام ١٥١١ عن القاهرة قائلا : أنها لا تستحق أى شكل السمعة التى تشاع عنها . - والحق أن ظلام الحكم المثمانى قد ساعد على سرعة أفول نجم القاهرة الذى كان قد بدأ فى غسق عصر المماليك .

السيادة العثمانية

ارتقى سليم الأول عرش الامبراطورية العثمانية في عام ١٥١٢ . ودفعه طموحه الى ضم ديار بكر في شمال العراق ثم الموصل وسوريا ، ثم ارسى الى السلطان المملوكي في مصر طومان باي (١) يأمره بالاستسلام له . ورفض طومان باي الاذعان له فنشبت الحرب ، وهرم المماليك في الريمانية في ٢٢ يناير ١٥١٧ لكن سيادة العثمانيين على مصر كلها احتاجت بعض الوقت . فقد استمر طومان باي في الكفاح وأصرز بعض النصارى لكنه هزم ثانية . وخانه أحد شيوخ البدو . فأسلمه الى عنوة وقد عامله سليم الأول في بداية الأمر ببعض الرفق . ولحق يسأله عن الإدارة وعن موارد البلاد . فلما أخذ ما أراد ، أمر بقتله على باب زويلة حيث ملكت جثته أياما . ومع سقوط حكم المماليك الذي بدأ عام ١٢٥٠ م انتهى استقلال مصر . وانتقلت السيادة الفعلية الى القسطنطينية وأن استمر المماليك يتكون البلاد رعايا للسلطان العثماني . ولم تعد القاهرة عاصمة لامبراطورية اسلامية . فكما خلفت القاهرة بغداد كمقر للخلافة المباسمية التي عليها الفور لتتنازل عنها الى القسطنطينية .

(١) حكما في النص ولعل صحها الطورى الذي قتل في معركة مرج دابق في سوريا ثم خلفه طومان باي .

ملك السلطان سليم في مصر حتى صبيح من عام ١٥١٧ وكان مقبلا في قصره بناء بجزيرة الروضة . وقد نظم الحكومة الجديدة في البلاد تاركانا من خضع لسلطانه من المالك يمس امتيازاتهم القديمة . ثم غادر مصر وبصحبته الخليفة « المباسي الأخير » وعدد من الصناع معزهم في تجليل القسطنطينية وألف جنل محبلي بالذهب والفضة وغير ذلك من مواد ثمينة .



وقد تقارب النظام الذي وضعه العثمانيون لحكم البلاد مع النظام السابق في كثير من النقاط . فبعد أن كانت القلعة مقر سلطان ينتخبه المالك ، صارت مقر باشا يمينه السلطان العثماني . وتآلت الحامية العثمانية من خمسة عشرة ألفا إلى ثلاثين ألف رجل من انكشارية وعزب (مضاة) ومباهية (حيالة) ولكن ظلت الارستقراطية المملوكية هي القوى المسيطرة على القاهرة . كان عددهم حوالي عشرة آلاف رجل وتلقب امرأهم بلقب بك . وقد ألفوا ديوانه قويا فرض سيطرته على الباشا وأحيانا استطاع عزله وأحيانا أخرى كانت الفتن العسكرية تتكفل بهذا الأمر ، وحرص العثمانيون على استمرار تلك الفوضى الادارية حتى لا يستقل الولاة بمقاطعاتهم .

ولم يحد هذا هؤلاء المالك الجدد من المالك القديمة وان كانوا من نفس الجنس فلقد عهد السلطان سليم إلى المتخلص من كل من وقع في يده منهم . لكن هؤلاء الجدد واصلوا مسيرة قتلهم . وعلى اختلاف أجناسهم من أتراك وفركس وجورجيين فقد كانوا يمتلكون كثيرا من الضياع المحسنة في الريف ودورا جميلة حول بركتي النيل والأريكية وشوارع « سوق السلاح » وكان في خدمتهم جند من المرتزقة وشهدت شوارع القاهرة معاركهم كما كان الأمر في الماضي وقد انقسم المالك إلى فرقتين متنازعتين :

« القاسمية » أو « الحمر » و « الففارية » أو « الأبيض » وصار كل من « حارة » عبارة عن قلعة مسلحة قائمة بذاتها . وبالطبع كانت أكثر المناطق تعرضا لتهلك القس هي المناطق المحلولة للقلعة ، مقر السلطة التي كثيرا ما تعرضت للحصار من الطامعين فيها . ومن قمة المنظم كان البكوات المالك يصفون بمذاهبهم قصر الباشا أو مآذن الجوامع التي يستخدمها منافسهم كأبراج حربية . وبالرغم من ضراوة تلك المعارك وتعاقدتها إلا أنها لم ترق الكثير من العناء . وكثيرا ما كان الجنود ، وقد

صافرو بضالة رواتبهم وقلة مؤنتهم ، فيفرون ولاهم لن يعرض عليهم أكثر ، ويصعدون الى تهب الأسواق والاتيان بالقطائع من كل نوع وكانوا يمارسون التجارة ، فيغرضون أنفسهم على تجمعات التجار ويجبرونهم مع الصاع على استئجار أبناء الجند كشركة أو كعمال معهم .

وأدى افتقار البلاد الى حاكم قوى وتجزء السلطة وإطلاق العنان للفرائر الى الفوضى الفعالة . ومن ثم شهدت العاصمة انتفاضات شعبية ففي عام ١٦٩٥ أحتقت جماعات من المهادين في قلب الأحجار ثم سرفوا كميات من الحبوب وفي عام ١٧٦٨ . أدت مصادرة بيع تاجر من خان الخليلي وأحد المارة اضطراب دام ثمانى أيام تحول خلالها خان الخليلي الى معسكر محصن . ومن جانب آخر دعى الكثير من المتصدين الناس الى النوبة والتفيس عن الآلام بهاجمة المسيحيين والتجار الأجانب . وقد تهرأ البغو أحياناً على مهاجمة العاصمة للذهب والبلب . ففي عام ١٥٥٦ سدت جميع منافذ المدينة حتى اضطر الناس الى بناء حائط ليقيهم شرهم . وكما كان الأمر في الماضي تعرضت البلاد الى فيضانات مدمرة أو الى الجفاف والوباء مما كان يندفع بالكثير من البائسين الى الرسف على العاصمة . ولم يبال أحد من الحكام سواء الباشا أو المماليك بما يعانيه أهل البلاد . بل أن بعضهم كان يعتمد أحداث المهاديات حتى يرفع من سعر الصنع الفدالية فيبيع ما احتزنه منها بربح فاحش .

وأدى كل هذا الى ارتفاع أعباء المعيشة والالتزامات النقدية وتوقف الأعمال وإحवाल صيانة القنوات والمجارى للمائية . وتدهورت التجارة مع الخارج تدهوراً كبيراً في القاهرة بعد أن كانت تلك التجارة تصدراً لقراء المدينة . فتتوقع على نفسها ويأفل نجسها . ويمنسأ كان أفرادها من الرسوم التي تفرسها على التجارة يتفائل كانت الخرائب في أثمانها تنزايد . كان كل الخلاف بين النظامين الجديد والتقديم للقاهرة هو غياب فترات السلام الذي يفرضه وصول سلطان قوى الى العرش ، وهو ما كان يندى عن مقدرة أى باشا ممن عينتهم القسطنطينية لقصر مدة ولايتهم ، ولحرفهم المستعس من مرقمهم .



كانت أقوى شخصيتي في تلك الفترة هما رئيس المماليك أو محافظ القاهرة أو كما كان يدعى « شيخ البلد » (الذى تلقب في القرن الثامن عشر بلقب باشا) ، ثم أمير الحج وكان كلاهما من المماليك ، والى جانبهما صار قائد الحامية المثمانية في القلعة شخصية شديدة الأهمية .

أما الباشا فكان عليه فقط تنفيذ أوامر السلطان ، فيختار البكوات وحكام
الأنعام وينظم قافلة الحج إلى مكة واعداد للحدائق المخصصة بالزمن .
وكان مقبىا في القلعة ويرأس الاحتفالات الهامة في العاصمة مثل العيد
الكبير وقطع الخليج لكن مهمته الرئيسية كانت إرسال الجزية إلى
استانبول (اسلامبول) أما همه الشخصي فكان تنمية ثروته .

والى جانب الباشا ، كان هناك ديوان يتألف من حيت قادة من
الفرق العسكرية لجيش الاحتلال وأثنى عشر من بكوات المانيك .

وقد حاول بعض الباشوات الجاز بعض المشروعات المفيدة لكن قصر
حمة ولايتهم أعجزتهم عن تنفيذ المشاريع التي تحتاج إلى وقت طويل .
ومنهم سنان باشا أول حاكم تركي عينه سليم فقد شيد جامعا في بولاق
بمسوقا وخانات ومستودعات عدة للبضائع ومنهم من افتقر إلى قوة
الشخصية كموسى باشا ، الذي عجز عن فرض إرادته ، فعندما حاول
في عام ١٥٨٨ أن يضبط النظام في الفرق المحلية ، تمردت عليه وحاجم
الثمردون الديوان ودخلوا إلى حريم الباشا ونهبوا كل ماله قيمة ومن بين
ذلك ساعة تبين الأيام ، ففر موسى باشا بينما هجم الجند على بيت قاضي
المسكن وقتلوا قائده الجاويضية . وحملوا اثنين من القضاة وقطعوا
رأسيهما . ثم نهبوا المخازن وبيوت الأمراء الفارين . وأحرقوا حلولا أطفال
الباشا رهائن ومنذ ذلك الوقت اضطر الحاكم إلى الاستجابة إلى أي مطلب
طلبه . واستمر هذا التمرد حتى أتى باشا آخر اسمه .

ومن بين هؤلاء الباشوات من انضم بالوظيفية والسادية ومنهم
حسين باشا ولد عينه السلطان غراد قرب نهاية القرن السادس عشر
مقتل عشرة آلاف السان لعنتهم المؤرخ بأنهم من الجرمين الذين كان عدوهم
له زاد زيادة كبيرة في عصر الباشوات السابقين .

وكان على باشا (١٦٠٠) يستمتع في كل مرة يخرج فيها إلى
شوارع القاهرة بتهنئيم رؤوس عدد من الأشخاص حتى أن جواده كان
يعود في كل مرة إلى القلعة ملطفا بالسم .

وكان مصطفى باشا (١٦٢٤) يحرص بانتظام مكررات الأثرية ،
فيصدر ما يريد منها قبل أن يرد الباقي إلى الوراثين الفرعيين بيد أن
حسن باشا (١٦٣٠) ذهب إلى حد أبعد فقد كان يستولى على التركة
بأكملها فلا يبق شيئا للوراثين وعندما كان يرى تجمعاً في أحد الطرق ،
ينقض بجواده ، ويستل سيفه فيطعن به من يلو له بقصد التفكك . وقد
أحصى من مات على يديه بتلك الطريقة فكانوا اثني عشر ألفا .

ولكن لم يكن كل الباشوات على شاكلة هؤلاء الوحوش . فهناك اسماعيل باشا والى مصر عام ١٦٩٦ لقد أراد أن يحتفل بختان ابنه ابراهيم الذى بلغ الخامسة عشرة . فعصى الى هذا الحفل كل وجهاء العاصمة والاقاليم ممن يمكنهم التفتيت عن أعمالهم بضعة أيام . وأعلن فى الناس انه سيكون كل من يرغب فى أن يحتفل مع ابنه كل حسب قدره .

واستمر الاحتفال عشرة أيام ، قدمت عروض سيلية فبينما كانت الاستعدادات قائمة للاحتفال كان مقومو المراء من سكان القاهرة أن يتسلق بمشاهدة عروض مصارعة بين الميروانات أو سباق الخيل أو ألعاب تؤدى بالرماح والمبارق أو يشاهد عروض المهرجين والبهلوانات . وقد مهد أحدهم حبلًا طوله أربعمائة قامة (حوالى ٨٠٠ متر) من أحد المآذن الى سور القلعة وأدعس للمشاهدين بحركاته البهلوانية التى أداها وهو على ارتفاع كبير .

وفى اليوم التالى أعلن عن بدء الاحتفالات بطرب المدافع والطبول . فتوجه الوجهاء الى قصر الباشا .

ولم يكن هناك القلعة يتسع لأكثر من ألفى جواد ، لذا اضطر معظم المتحمسون الى ترك خيولهم فى الأبنية السفلية لضيق المكان وكثرة عددهم . وكانت سروج الخيل مرسحة بالأحجار الكريمة ومكسوة بالفضة الطرز التى يستعمل حتى الأرض .

وفى وسط الفناء نصبت خيمتين وسط جوارح الخيل أحدهما خصصت للراقصات وعازفى الآلات الوترية ، والثانية خصصت لضاربى الدفوف والطبول وعازفى آلات النفخ وعند قدوم أحد البكوات أو عند ختان أحد الأطفال تلق الموسيقى لقبه المدعوين الى هذا الحدث الهام .

وتسلم كل واحد من أهل بيت الباشا البالغ سبعائة أو ثمانمائة فرد ثوبين من الستان الانجليزى من ألوان مختلفة . وثوب من قماش انجليزى ومنه سروال وآخر من فروة الثعلب المسكولى . وكان أقل عبد يرتدى ثيابا حسنة وعصاة من الموصلين طرز طرفها بالذهب مسافة أربع أصابع ونفت حوله طاقية من الخيل أو من قماش انجليزى . أما ابراهيم بك ابن الباشا فقد استبدل ملايسه الفاخرة ثلاث مرات أو أربع .

وفى الليل أثار المدينة مائة ألف مصباح ، كانوا يؤلفون أشكالًا متنوعة كل يوم ، منها كتابة علفت على نخلة تقول « أنى لا أنو الا ياختان » وهو إشارة الى عملية التقليم السنوية لهذه الشجرة .

وقد أعد لطعام البكوات ثلاثمائة طبق في كل يوم وللباشا ومدعويه حسبمائدة طبق وللخمس ثلاثة آلاف • وكان ما يفيض من طعام يفرق على الناس • فبعد أن تناول أربعة آلاف شخص طعامهم في ذلكصر أطعم عشرة آلاف فقير في مختلف الأحياء •

وقد خزن في الصباح خمسمائة صبي تصلم كل منهم حسبما كان • لقد أعلن ثوبا وسكان بنقله Negin • وقد طهر ابراهيم بدمهم جميعا • ثم خرج في مركب من القلعة حتى جامع قديم بين مصر عتيقة والقاهرة هو جامع ابن طولون وكان يتقدمه اثنا عشر تابعا يلبسون ثيابا مطرزة باللصوب ويركبون خيولا بيضاء • وكان اللصوب يندر بين الجموع • ولفرض الطريق بالأضمار وكان مرور الناس في ذلك اليوم فاقفا حتى لم يبق امرأة في بيتها • ويمتد على ذلك المؤرخ (الجبري) الذي يروي لنا تلك الحادثة بأن الكثيرات منهن انتهنز الفرصة ليختزن بيوتا أفضل •

وابتهاجا بهذه المناسبة صدر طو من المسجونين • ودفع اليانسا ديون المشرين بيد أن أهل القاهرة قد دهشوا لرفض اليانسا قبول الهدايا المعتاد لتدبيرها والتي ملكت قبعتها ثلاثمائة كيس (الكيس خمسمائة قرش عثمانى) ولم يقبل سوى عديّة قنصل فرنسا وهي امرأة مثمنة مفشاة باللصوب والأحجار الكريمة •



كانت الغالبية الساحقة من البكوات المماليك اسلاطا من المماليك ومن الامم الصغرى الى ملقاتهم • وبالرغم من هذا مستغبر الى بعض من رجالهم المشهورين • ومنهم عثمان بك ذو الفقار الذي تقلد امانة الحج عام ١٧٢٩ وكان اول من حصى باشا الى محل في بيته • ويقول عنه لئن بول انه كان يرأس محكمة في بيته تنظر في الشكاوى المقدمة اليه • ولما كان رجلا نرجسا فقد عاقب بشدة كل من نسبت اليهم اعمال السلب لولا الاضطهاد كما اشرب بناية على مراقبي الاسواق (المحتسبين) • وبالرغم من نزاعته وعدائته الا انه اتسم بالقرور • وقد خلف انطبعا عميقا لدى معاصريه حتى انهم • بعد ان اضطرت مؤامرات اعدائه الى مفادرة البلاد • كانوا يؤرخون الاحداث لهم فيقولوا مثلا :

حدثت الحادثة الفلانية بعد كذا من السنين من مفادرة عثمان بك او كان عمرى كذا عند رحيل عثمان بك •

كان الكتبخا (١) (يقابل وزير المالية الحالي) رضوان الجفلي أحد رجالات القرن الثامن عشر المرموقين . فقصت حكمة تيممت القاهرة باستقرار كامل ، إذ انخفضت أسعار المأكولات وعم الرخاء . وقد شيد مترا عند الأزبكية وصفاها الجبرتي قائلا : « وهي التي على بابها العالمودان المثلثان المشروفة عند أولاد البلد بثلاثة ولية وعقد على محاسنها العالية قبابا عجيبية الصنعة منقوشة بالذهب للحلول والازورد والزجاج الكلون والألوان للفرحة والمصانع الدقيقة . ووسع قطعة الخليج بظاهرة قناطر الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبني عليها قصرا مقلدا عليها وعل الخليلج الناصري من الجهة الأخرى . وكذلك أنشأ في صدر البركة مجلسا خارجا يفضه على عدة قناطر لطيفة وبضه داخل القبط المعروف باسم ليطه المديية . وبوسطه بصرة تمتلئ باله من أهل وينصب منها الى حوض من أسفل ويجرى الى البستان لسقي الأشجار ، وبني قصرا آخر بداخل البستان مقلدا على الخليلج وعل الأملق (٢) من قاهره فكان ينتقل في تلك القصور وخصوصا في أيام النيل، ويتجافر بالعلماء والرايح والوجوه وتبرج النسله ومفاتيح أولاد البلد وخرجوا عن البلد في تلك الأيام ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس في الماميلهم فكانت مصر في تلك الأيام مراعف غزلان ومواطن حور ولدان كانوا أهلها خلصوا من الحسابه ورفع منهم التكليف والخطاب ، وهو الذي عبر باب القلعة الذي بالمريطة المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البنتين (برجين) العظيمتين والزلافة (احود) على هذه الصورة الموجودة الآن .

وقد نظم في هذه القمار قاسم قصبيته يقول فيها متعذرا عن

الخبر :

أكرم بينت الكرم والذوال . . من الهوموم غرسها ذوال
 لله ما أبهى وما أفسنها . . في كاسها كالشمس في مرآها
 يسميها الجبر ولد لؤلؤها . . من شفتيه اللبس ما أحلاها

إذا ما زوجت من ريقه بالشهد

كانت نهاية رضوان بك مأساوية ، فقد أحاط بمنزله المتآمرون وقصروه بالمدافع بينما كان للزبن يحلق له شعره . فأخذ يغائل قدر استطاعته حتى كسرت مساهة فتجامل حتى امتلئ جواده ، وانطلق به هاربا الى الصميه حيث مات .

(١) نائب القضاة .

(٢) لؤلؤع .

ويحدثنا الجبرتي عن أحد بيوتاته القاهرة في هذا العهد وهو بيت
أحمد الشرايبي فيقول :

« كان من أعيان التجار ويتهم بالشهورة بالزبكية بيت الجدة والفقار
والملح . ومماليكهم ولولاد مماليكهم من أعيان مصر جرجية (١) وامراء
ومنهم يوسف بك الشرايبي وكانوا في غاية من الفنى والرفاهية والنظم
ومكارم الأخلاق والاحسان للخاص والعلم ويرتد إلى منزلهم العلماء
والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتفيع وانتفاع
الطلبة ولا يكتفون عليها وقلية ولا يدخلونها في موازينهم . ويرغبون
فيها ويشترونها بالثل لمن . ويضعونها على الرفوف والخزائن والصورات
وفي مجالسهم جميعا بكل من دخل بيتهم من أهل العلم إلى أي مكان
يقصد الاعارة أو للرجعة . وجد ببيتهم ومطوبه في أي علم كان من العلوم
ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمتنون من يأخذ الكتاب بتملحه فإن رده
في مكانه رده وإن لم يرده واختمه به أو باعه لا يسئل عنه وربما بيع
الكتاب عليهم واشتروه مرارا يمتلئون من الجاني بضرورة الاحتياج » .

وقد انزعج المراد تلك العائلة في مشاعرهم الماطلية وطموحاتهم
المادية والماديات التي تحكم حياتهم الماثلية بقواعد سلوكية أمثلتها عليهم
أخلاقياتهم مما زادت في مكانتهم في المجتمع وشابهت بينهم وبين بعض
العائلات الأوروبية المرموقة . ولم يكن المصري يسأل كثيرا بأصل عروسته
على عكس المراد تلك العائلة الذين كانوا لا يتزوجون إلا لبا يبنهم .

وكانت لهم طريقة خاصة في إدارة ثرواتهم . فيقوم واحد منهم
بإدارة جميع ممتلكاتهم فكان يجمع الإيرادات والأرباح ثم يوزع على كل
فرد نصيبه منها .

« ويلقى الاهتمام الكبير لهذه العائلة بالكتب شوطا على مستوى
الحياة العقلية لتلك الفترة . ففي بداية العصر السلوكي تكونت في
القاهرة مكتبات أتى بعضها من الكتب التي نهبت من مساجد سوريا .
ولقد كان هناك إقبال على الأنشطة الثقافية وإن لم تكن تلك على مستوى
رفيع . ويرى لنا الجبرتي محادثة في عام ١٧٥٠ وقعت بين باشا
القاهرة المولع بالرياضيات والشيخ عبد الله الشيراوي شيخ الأزهر .
ولقد قال له الباشا أنه طالما سمع أن القاهرة هي وطن المعرفة وطلب أن
يرى شيء من هذا .

(١) دية عسكرية في الجيوش العثمانية .

وقد اعترف الشيخ بأن الرياضيات لا تدرس في الأزهر إلا ما يتعلق
 منها بحساب التواريخ . ثم سأل البابا عن الملك قائلا : « وملاذا من علم
 الملك أنه يلزم لساعات الصلاة والصوم وأشياء أخرى كثيرة » مضارحة
 الشيخ بأن قليل من الدرس من يهتم بدراسته لأنه يتطلب قابليات
 خاصة وآلاته وحالات نفسية خاصة ومزاج دقيق وعادي . ثم أخبره أن
 يوسعه أن يجد مثل هذا الرجل ، ولكن ليس بالأزهر . وعندما ظهر هذا
 سر البابا بسله فأعنته توبا بأعه بشهادة دينار . وعسل مزاو من
 الرحام تبين مواعيت الصلاة ووضع النان منها على سطح الأزهر وجامع
 الإمام الشافعي .

« ويبدو أن تلك المعلوم لم تكن تتعدى المسطحات » (لب . بول)
 ولقد لمب الدين في هذا العصر دورا هاما في حياة القاهرة فقد شهدت
 المدينة ثورة عارمة عقب موقعة القاهما فقيه تركي حاجم فيها التومسل
 بالأوليه وهي عائد درج عليها الناس وإن لم تكن من الاسلام في شيء .
 ولم تكن تهدله الناس بالأمر السهل .

وكان لشيخ الأزهر مرتبة كبيرة وقد منح الناس من التدخين علنا
 ذات مرة فكان رجال الشرطة يماقبون من يشبهونه مخالفا .

وقتل كثرة الجوامع التي شيئت في هذا العصر مثل المسيدة
 صفية (١٦٠٤) ومحمد أبو الذهب (١٧٧٤) والبردين (١٧٩٠) على
 المحافظة الدينية المتأجعة وقد أخذ الطراز المصارى يتباعد تدريجيا عن
 طراز المدرسة ليرجع الى طراز الجامع الذي كان سائدا في القاهرة قبل
 عصر صلاح الدين ولم يكن هذا أن الفنان قد حاكي القديما محاكاة تامة .
 فلقد تأثر بالمعمار التركي الذي كانت جوامع الأولى كنائس ولذا تحيل
 القباب محل السقوف المسطحة ويستخدم القيشاني في الزخرفة مثلما
 نرى في جامع ابي سنقر ، الذي جدد في عام ١٦٥٢ وغطى حائط القبيل
 باكمله بالقيشاني الأزرق .

وكان أهم المولمين بالصارة في هذا العصر هو عبد الرحمن كنتخذا
 الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر . وقد بنى أيوه عثمان كنتخدا
 حائما ومدرسة وسيل بالقرب من بركة الأزيكية ، ومدرسة للصبيان في
 الأزهر ومؤسسات خيرية أخرى غير أن الابن فاق أباه ففي طرف بين
 القصرين بنى مبيلا وخارج « باب الفتوح » شيده حائما وآخر عند باب

الغريب (١) ملحق به حوض وصييل ومعموسة . وبالقرب من جباله الأركنية شيد مدرسة وسبيل لتزويد السكان بالماء . وأعاد بناء مشيلى السيدة زينب والسيدة مكينة وشيد جوامع أخرى بالقرب من باب القرافة وفى « الموسكى » وحى « الحسنى » وشارع « عابدين » . لكن أهم مشائنه كانت فى جامع الأزهر . فقد أقام بيتا للصلاة يرتكز على خمسين عمودا وله محراب جديد وبني مئذنة ، ووسع المدرسة الطيبرسية وورع على طلاب الأزهر كميات كبيرة من الزيت والأرد والربد فى شهر رمضان (لين - بول) *

ويبدو ان عبد الرحمن كنهذا كان قد جمع ثروته بطرق غير محموده ، مما دعاه الى صرفها فى أوجه البر حتى يريح ضميره ، فنراه يقدم للمحتاجين الصبيان وللسودنة أردية صوفية تقيهم برد الشتاء .

ومن بين ما رسم عبد الرحمن كنهذا جامع الإمام الشافعى وضريح « السيدة نفيسة » « ومارستان قلاوون » ويحصى « لين بول » ما شيد فى رومته من جوامع فيجدهم ثمانى عشر غير عدد كبير من المنشآت الأقل أهمية . لقد كان يعمل بصلق من أجل رعاية الأجيال القادمة . لكنه مات فى الجزيرة العربية سنة ١٧٧٦ بعد أن لقاه على بك ودفن جثمانه فى جامع الأزهر بالقرب من بوابته الجنوبية .

ويعتبر جامع محمد بك أبو الذهب (١٧٧٤) آخر الجوامع الهامة التى بنيت فى تلك الفترة . وله سمي محمد بك بهذا الاسم لعاده بئر الذهب فى الجصور أثناء سيره وقد تمتع بشعبية كبيرة بسببه بإشاعته وكرمه وتمتع بمهابة كبيرة فى مصر . وقد عينه السلطان واليا لمصر مدى الحياة تاركا فى يده كل السلطة التطبيقية فى البلاد . وفى عام ١٧٧٤ أقام مدرسته فى مواجهة لجامع الأزهر ، وفيها دفن مع أسرته .



وان لم يكن فى العصر العثمانى مساجد كثيرة فى مصر الا أن ولاية الأمور لم يقتصر فى رعاية القائم منها . وإن لم تكن مرمتها دائما على النحو الأمثل ، بل للاضمحلال فى عصر محمد على الذى انتزع جانبا من أوقافها التى خصصت للإطلاق عليها . وانتزع من أيدي العلماء (رجال الدين) حق إدارة تلك المنشآت على الرغم من لمناتهم التى انصبت عليه . وقد دمرت كثير من المساجد التى تذكر أوقاف تلك المنشآت مما

(١) باب من أبواب الأهرام

يسر برعها وبالتالي اصال الجوامع نظرا لقله المال فتعرض الكثير منها
للخراب .

وبالمثل حاول محمد علي أن يضفي على قاهرته مسحة أوروبية .
فشق طرقا واسعة وأقام مشات على حساب الكثير من الآثار الإسلامية
الهامة .



زار مصر النمساوية الكثير من الرحالة الأوروبيون وعقولهم مفعونة
بصور الحياة المستمدة من قصص ألف ليلة وليلة بيد أن قاهرة ذلك
المصر خبيث طوبهم . فعلا أطربهم جو الحياة لكنه لم يمد ياعده
بالباهم . فهم لا يظهرون إعجابا بالمدينة وإن اجتذبتهم سحر الحياة
الشرقية فقد انشغ عن المدينة البهاء والجلال اللذان طالما طالعا عين
الأوروبي فلم تمتد كثير في نفسه الإعجاب بصورة جديدة للحياة المصرية

وحتى يعلوا فكرة عن مساحة المدينة ، كانوا يقارنوها بمساحة
أوروبية لكن معظم تقديراتهم لا تتطابق فيصفها جرون المهاجر
Grevin Allagart في القرن ١٦ بأنها تماثل مساحة باريس ثلاث
مرات . وفي القرن السابع عشر يقول ديلا ليه Della Valle انها
تفوق القسطنطينية وروما . واعتقد كوبن Coppin انها أصغر
من باريس وأقل سكانا لكن تفنو Thévenot رأى العكس أما في
القرن الثامن عشر فاعتقد كل من جرانجه Granger ومامكريه
Mamcriet انها تماثل باريس في مساحتها .

وقدر فوستير Foster محيط القاهرة في القرن السادس عشر
بثلاثة وثلاثين كيلو متر . وادها بوفو Beavan في القرن
الثاني الى ستة وخمسين كيلو متر . أما فرمتل Farnet فيرى
انها ستة وثلاثون كيلو متر . وقد قدر حرائمه بوكوك Pococke
في القرن الثامن عشر محيط قلب المدينة بأربعة عشر كيلو متر . وقال
لوبرين Le Bruyn وبريس Bruce أن المره يحتاج الى
ثلاث ساعات ليحيط بالقاهرة .

ومما سبق يتضح لنا صعوبة استنتاج إحصاء دقيقة للمدينة في
هذا العصر . فقد جعل ضيق شوارعها المنازل تبدو على وادى افتقار
لمدينة للطرق الواسعة الرئيسية الى اضفاء طابع الازدحام على الطرقات
الضيقة في المناطق المزدحمة . وقد تناوبت في أرجاء المدينة حدائق

وخرائب جعلت القاهرة تبعد أكبر مما هي عليه في الحقيقة . وكان يوجد في قلب المدينة قصورها جدرانها أحمرها الأزيكية التي استمرت حتى القرن التاسع عشر وكانت تشغل قرشاً واسعة . وأدى اتصال البرك إلى اتساع مسطحاتها مع قلة عمقها . وبهذا عادت القاهرة إلى نظام التبعثر السكاني الذي كان عليه سكانها الأوائل من العرب . فبين الحدائق أو الخرائب أو اجبات التخيل كان المرء يرى مجموعات من « الأحواش » وهي عبارة عن أفنية مسورة تنفض على حرائب أفنية عتيقة أو شوارع قديم ويجمع فيها الناس مع حيواناتهم وينام فيها الفقراء في أكواخ حقيرة تجاور ورش تقوم صناعتها على المواد الحيوانية كالجلود ويتعامل في أرجائها الروث الذي يجف تحت حرارة الشمس . وتدرجياً أضحت نسبة السكان للأرض تفضائل ويظهر علماء الحملة الفرنسية مساحة الأرض المسكونة في القاهرة فعلياً بالإضافة إلى مصر القديمة وبولاق بما لا يزيد عن كمالي هكتارات أو ربع مساحة باريس في ذلك الوقت .

وكان هذا العصر نهاية الازدهار المعماري الذي شهدته العصور السابقة فلم تكن الأبنية الجميلة بمثل « سبيل خسرو باشا » و « منزل جمال الدين » وبعض من المساجد إلا استثناءات قليلة أما أكثرية منشآت هذا العصر فقد اعتكفت إلى سلامة الدوق والآلاف .



ظلت بولاق ميناء هاماً للقاهرة يقصده المسافرون وكان يضم في نهاية القرن الخامس عشر من ثلاثة إلى أربع آلاف منزل وعشرين ألف من السكان وتزاحمت فيه الوكالات والشون والمطاعم والحمامات والأسواق والقبيلات فضلاً عن الجبانات . وأدى تكوين جزيرة الزمالك إلى سهولة عبور النيل في تلك الفترة عنه في الروضة وصار بإمكان فلاحى إمبابة الوصول بسهولة إلى قلب المدينة .

وترامت حول بولاق حقول كانت مياه الفيضان تفرغها كل عام . وكان يربطها بالعاصمة طريقان أحدهما يؤدي إلى باب الحديد والآخر إلى الأزيكية يبلغ طولهما حوالي كيلو متر ونصف ونصف بهما حوايت ومنازل .

فإذا ما سار امرؤ في أحدهما إلى نفسه في أحد ضواحي المدينة بعد أن يمر الدعاة الغريبة فلذا ما مر من أحد الأبواب وجد نفسه في الحي الأترنجي الواقع بين الخليج والأزيكية . وقد تجمع الأوروبيون حول منزل تنصل فرنسا خوفاً مما قد ينشب من اضطرابات . الموسكى هو

الشارع الرئيسي • وقد سمي على اسم أحد أقرباء صلاح الدين « عزيز الدين موسى » ويقطن الفرنسيون مجموعة مساكن متجاورة على الخليج تؤلف حيا يعرف باسم حي (الألة الفرنسية) • وكان من أجل لحياء القاهرة موقعا وأسماها في نفس الوقت بسبب الرائحة الفظيعة التي تنبعث من قناة الخليج التي تنضب في الشتاء •

في عام ١٦٣٨ كتب كوين Coppel أن منازل الشوارع جميلة وأجملها على الإطلاق هو منزل لفنصل فرنسا ، فمدخله مثل مدخل الفنادق ، ويوجد عند البوابة الأمامية مكان معد لجلوس الانتشارية الستة الموجودون دائما في هذا المكان والذي يدفع لهم ستة قروش في الشهر (١) وهو (الفنصل) يستظم النفاق أو ثلاث من الانتشارية لمراسمته •

ووصف لنا ليرونكور Livoncourt بيت الفنصل في عام ١٧٤٨ قائلا :

« يفكر المسكن الذي أقطنه الى الراحة فعلا عن سوء موقعه لكن أسوأ المنقصات يمثل في رائحة القناة (الخليج) التي تخترق القاهرة التي لا تمتلئ بالماء الا أثناء ارتفاع مياه النيل من ١٥ أغسطس حتى نهاية أكتوبر • أما باقي العام فهي مستنقع يسم ما حوله ولا أفهم لما اختار الفرنسيون حينما استقروا هنا منطقة يمثل هذا السوء • وتطفي رائحة ذلك المستنقع بريق الزخارف الذهبية تماما وبفون وجبة في اصلاحيها • وأكثر المنازل تالفا بتلك الأمراء هو منزل الفنصل للشيد على حافة الجبى والذي تطلل الكثير من نوابله عليه • »

وتم تمتد ثلاثة تلك القناة (الخليج) شبه الجافة بيع طهيها كسماد للحدائق •



كانت هيئة بركة الأزبكية تخير على مدار السنة مثل معظم البرك ، ففي الشتاء تحول الى مرعى أحضر حمار بالأعشاب ثم الى جبل أحلب مترب في الربيع لما أن يأتي الفيضان حتى تمتلئ بالماء وتعود بركة كبيرة تحف بها قصور النباليك البديعة وتنتزق على سطوحها القوارب من كل لون عند الأعياد •

(١) قرش عتيق وهو يساوي خمس نصف فلة وكان رطل اللحم البقرى ١٦٨١ من الطعام يساوي نصف فلة ثم ثلاث في هذا الوقت وقد كان السكر يباع نصف رطل في ذلك •

وفي قلب المدينة توجد حارة اليهود بطرقاتها الضيقة القديمة
ومبانيها العالية وكانت تضم عدد من المآبد (سينما جوج) وبيت العاشاق
الأكبر .

وكثيرا ما تعرض الحى الواقع حول باب الفتوح وباب النصر وجامع
الحاكم الى مياه السيول المنخفضة من جبل القطم .

واحتلقت منطقة بين الصغرى بأهميتها كمركز للمعاملات التجارية
حيث تجمعت فيها الأسواق الرئيسية التي أنشئت في التمهيد وقد ألف
التجار في النهاية أمر المصارف التي تشبه بين الممالك من آن لأخر
وعصيات النهب التي كانت حوائثهم تتعرض لها . وكثيرا ما عبد هؤلاء
التجار في أوقات الاضطرابات الى أن يناموا في حوائثهم بدلا من أن
يعودوا الى منازلهم .

أما الحى الواقع خارج باب زويلة بين باب السوق والقلعة فكان
مصرعا للاضطرابات فهجره التجار تريبا وتبعثرت في أرجائه أطلال
المتارل المهجورة وضاعف حريق شب في عام ١٦٥٤ في زيادة خرابه .

يبد أن حى باب اللوق كان أحد للمناطق السادة التي انتعشت
تحت الحكم العثماني كانت تحده في الشمال عدد من البرك وفي الجنوب
جبانة وينتهي في الشرق بحدائق والخد فيه أبواب الدهر منازلهم
ومشاربهم سيئة السمعة حول قصر الأمير يشبك . وهناك تمود الناس
أن يتجهضوا في ميدان مسيح لرؤية الحرة ومدربى الحيوانات .

والى الجنوب امتد حى السيدة زينب من الخليج حتى بركة النيل
في الشرق وقد صار هذا الحى أحد أكثر أحياء القاهرة ازدحاما في
المنطقة الواقعة بين القلعة وبركة النيل تقام حى ابن طولون الذي امتدت
مسافته حول الجامع الشهير القائم على ربوة يشكر .

وعلى متفرعات تلك الربوة بنى السكان بيوتهم . وعاشوا ممن
التحسروا من أصل تركي أو من الممالك القديمة وغلب عليهم الفقر وروح
التفرد كما اتسموا بالتقصص الديني . وقد زحف العمارة على كل تلك
المنطقة وباتل على المنطقة المجاورة للقلعة .

أما القلعة فقصت على شرفها الصغرى مباحية بمزقتها وقد سكنها
الباشا مع حدة الانكسارية د المزب ، ولما كانت إقامة هؤلاء في مصر
قصيرة فقد أهملت وتداعى الكثير من منسقاتها . لكنها لم تفلح اثر عزها

السابق • تماما ويصفها لنا بيريلون دي من Pierre Belon du Mans
يكسو الرحام جدرانها باوتفاع قامة رجل حول بواباتها ونوافذها •

وأصاب الازمحلل « القراقة » مدينة الموتى لقلّة النشاط بها • إذا
حار لنا استخدام هذا التعبير • • جعل سيل المثل صارت المنطقة الملائمة
لجامع قايتباي قرية يائسة تتألف من أضرحة خربة وبيوت مهجورة •

وتقلص حي مصر القديمة • وتركزت الحياة فيه حول مواته القديمة
بجامع عمرو وقصر الفصح • وكان الأخير اثني عشر كنيسة وديرا أقام
سولها مائتي أو ثلاثمائة مسيحي بيوتهم •

وكان لجامع عمرو شهرة يسببه قديمه فأقيمت حوله الحمامات
ومنازل لسكنى الحجاج واصطبلات أما الجزء الملاصق للقلع من هذا
الحي فقامت به قصور وفيلات للميزة • وقد آلت بالي أجرا هذا الحي
إلى غراب تام • وعلى الضفة المقابلة للنهر تايست الجزيرة ويوجد بها الهادي
دون تميز هام •



يمكن أن نحس صورة للحياة في القاهرة العثمانية من روايات
الرحالة المدينة • فلقد وصف بلون دي مان Belon du mans
منازلها في عام ١٥٤٧ بأنها ذات أسطح مستوية تتألف من طابقين
وأبوابها منخفضة حتى لا يمكن لصانع أن يجوزها • وهي حيلة أدخلها
للمصريون كي يمتدحوا استضافة الخيالة الأتراك • ووصف لنا أقال
أبوابها المشبية كما شكى من مضايقات ذئاب صغير يعرض في فرنسا
ب Cousins تشته مضايقاته في الليل على الأنبي •

ويقول بريان Bruyn في عام ١٦٨١ أن المرء لا يكاد يجد شوارعها
جيذا ومظم شوارع المدينة ليست الا طرقات ضيقة شديدة الاتواء •
ثم ينتقل الى وصف بعض المنازل والطرق المستعمدة في التقب على
حرارة الجو فيقول : « أن وجهه القوم يستعملون طريقة لتلطيف حرارة
الجو فهم يشيخون على سطح منازلهم قبايا تغطي قاعات ويطلع في القبة
بداخلها نواخل • ويلطف الهواء تلك من تلك النواخل تلك القاعات فيمكن
للرء أن يجلس فيها عند اشتداد الحرارة ودونما أن يشعر بادنئ ضيق •
وكانت هناك طريقة أخرى تتمثل في القاعة مسطحة صناعي للماء في داخل
للنزل • • وسقط الماء على لوح رخامي كبير فينحط سطحه ثم يوضع
سرير في وسطه •

وقد أدهش الرحالة جونا James (١٧٨٥) بحق الهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء . فلم تكن هناك طبقة وسطى . « إما أن يكون المرء كبريا أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا ، عظيما أو حقيرا » . لكنه لم يلاحظ أى علامة من علامات التفرق بين المصريين فهم متفقون أن ظلم من الدنيا مقدر . فمن الحق الشكوى من الحاضر أو الخوف مما يخشا المستقبل الذى لا يمكن تجلسه سواء مر كان أم حل . ويسخر منهم قائلا : « انهم لا يرهلون أنفسهم بالتفكير » . وقد أشار بلون الى خفة روح القاهريين فهم على حد قوله أكثر من عرفهم من الناس حسبا للروح وهم على استعداد دائما للرقص والأتان بحركات عابثة .

وإذا كان معظم أهل القاهرة يتمتعون بالصحة إلا أن عدد المرضى مع ذلك كان كبيرا . فقد عدد أراضها بير دافيتى Pierre Davity مؤلف كتاب « وصف عام لأفريقيا » والذى زارها في عام ١٦٦٠ وقد قال : « ان القاهريون كانوا يتعرضون للاصابة بالزلات الشمسية والفتاق والحمى في شهرى ابريل ومايو لأن في هذين الشهرين تهب رياح تجلب معها الحبيات الوبائية » . والوباء الذى كما ذكر دافيتى ، يعود كل سبع سنوات ويقتل أحيانا عشرين ألف نسمة في أربع وعشرين ساعة . « ويذكر أيضا مرض العيون الذى عامى منه ثلث عدد السكان وقد أرجعه الى التهامهم للساكنة وشربهم الماء (١) والى التراب وارتداء الملابس (١) » . وطبقا لذلك كانت تلك العنائم الثقيلة تسبب العرق الذى يؤلم ويهيج العين .

ويقول جونا James عن المصريين في الصادة يتزوج من بنى جنسه ، كما الآثراك فيفضلون لسه الشمال من لكوسكوفيات واللاتانيات والجورجيات . الا ان يتمتع بأجمل دم في العالم » .

وأحيانا يفضلون الحبشيات . فصحيح ان بشرتهم داكنة الى حد ما ، لكن ملائمتهم تنسج بالجمال وكذلك أجسامهم وما يميز الحبشيات عن غيرهن من النساء « ان أجسامهم وطية حتى في أكثر اوقات السنة حراوة » .

وتدخن كل النساء القليون وكما يؤكد البعض فانهم يكن أكثر سحرا إذا دخن ويراهن بله . أحيانا يدخن القليون في التوالد ولا يسمح إلا لأمهات بممارسة تلك العادة .

وينسب جونا الى ماء النيل خصوبة نساء مصر إذا شربن أو

ستحتمل فيه وقت الفحصان وطبقا له فإن هذا يلزم لماذا يحتمل في شهرى يوليو وأغسطس ويناير فى شهرى إبريل ومايو .

ويبدو ان السهم كان يلعب دورا هاما فى حياة قاهرى هذا الزمان . ويروى لنا جوابا ان أحد الباشوات لم يذكر اسمه كان يحكم القاهرة فى عام ١٦٩٢ ، وأراد ان يتخلص من أحد البكوات قاهر بأحضار دجاجا من لقهوة وكان مسموما . وفى نفس الوقت قدم أحد الخدم شكاية للباشا ، وكان هذا مبيحا من قبل . وبمجة انهياكه فى فحص الشكاية وبالنال عجره عن شرب القهوة ، فلقبها ليك « وكان هذا بعد أكبر شرفه يمكن أن يناله انسان فى تلك البلاد » ومات البك فى نفس ذلك اليوم .



كانت شوارع القاهرة تقدم الكثير من المشاهد الطريفة . مثل عروس القورى . اللاتي كن يرتفن على ايقاع الصاجات - رقصات تعتمد على من الجزع والفسر والأرداف . وكن يرتفن رقصاتهن فى الطرقات أو على أبواب البيوت . وكانت ملايهن تفسه ملابس نساء الطبقة الوسطى وان كن فى الغالب يرتفن فى اولئك الحل . وتحتضن عيونهن بالكحل وتلون كلفوهن وأقلامهن بالحناء . وكن يرتفن على أنغام ديك ينق أوتاره موسيقى فى صحنتهن . وأحيانا كن يؤدين عروض خاصة فى المنازل لكنهن لم يكن يستقبلن فى المنازل الفاخرة .

وكان الحواة كثرة فى القاهرة وكانوا يرتفون العابهم فى الميادين العامة برقة غلامين وعدد من المساعدين ويتعلق حولهم المشاهدون . ويخرج الواحد منهم عددا من التماثيل من جراب جلدى يصح واحدا منها على الأرض ويجبره على أن يرفع رأسه وجزء من جسده . ويلف الثاني حول رأس أحد الغلمان كمامة . ويأخذ أحد الحواة عصائين ويضعهما حول عنقه ، مثل القلادة ، وقد يعيد الحواى الى فتح قفل ثم يضعه فى فم أحد مساعديه ويلفقه فجأة ، فيعطى انطباعا أن قوسه للمدنى يخترق وحنه للمساعد ثم يتظاهر بأنه يخترق عنق مساعده بسنخ حديدى . وفى الأواقع ان قمة السنخ تنزلق فى تجويف داخل بدن السنخ . ثم يخرج من فمه مجموعة من الناديل الحديدية من مختلف الألوان ثم يلفف اللهب من فمه ويخرج من أفذه قطعا تقديية ومن وقت لآخر يتفخ فى صدفه حتى يخرج صوتا يشبه صوت التفير كى يجلب اليه الجمهور . أو قد يقيده قلميده ويديه ثم يوضع فى جراب ويصرخ طالبا لقرشا . ليحييه أحد مساعديه بأنه لن يمطيه له الا اذا مد له يده . فيخرج من الجراب إحدى يديه .

وكان المرمى يرى أيضا في الطرقات « الشجر » وكن يسرن سائرات
الوجوه ويحملن الأدوات اللاتي يستعملنها لكشف الذهب . وكانت تتكاثف
من مقبل مملوء بالاصداف وقطعة رجايا ملون وعمدة معدنية وغير ذلك .
وتفرش كل تلك الأشياء على الأرض . ويمكنها أن تقرأ طالع مبيها من
موقع هذه الأشياء بالنسبة الى واحدة كبيرة تمثل الصيقل - وتعدى بما
ينتظره في المستقبل من أحداث حسنة أو غير حسنة . وتدارس التجربات
أيضا صناعة الوشم . فهي يزين جبهاته أو ذقون النساء أو كفوفهن أو
صمورهن برسوم مختلفة . تكم بتقريب الجلد بحزمة من سبع إبر ثم تسبح
القلوب بخليط من السناج المذاب في لبن امرأة . وبعد مرور أسبوع
يذلك الوشم بعجينة من أوراق البجر أو البرسيم . ثم يلون الرسم
باللون الأخضر أو الأزرق .



هانت التجارة من تحكم الباشوات وتسلطهم الذي أثقل البلاد . فلم
يعد الهنود الذين اعتادوا المجيء في الماضي بمتاجهم يبقون على أنفسهم
المجيء خوفا من أن تصادر متاجرهم وأن يسموا هم أنفسهم كما كان
يحدث أحيانا عندما كان يريد الباشا أن يلقى معاملة جريئة تماما .
كان بالكاهنة تسح مجازر عرفت باسم « مجازر السلطان » .

لأن رأس وحده كل حيوان كان يذبح فيها عدا الماعز كان من حق
السلطان ويسبق هنا *Jeune* قائلا : « إن وزياته (السلطان)
يعرفون كيف يصنعون منها مبالغ كبيرة من الفضة تذهب الى خزائنها » .

ولم يكن التجار الأجانب رغم الامتيازات الأجنبية أسعد حالا من
أخوانهم المصريين كان عليهم من حين لآخر أن يدفعوا غرامة وهو مبلغ
من الفضة يجده الباشا ويطلبه من التجار الأوروبيين منعلا أهدارا كثيرة
كثيرا ما تكون غير منطقية أو لا فائدة منها . فكانوا يلجأون الى الحال
فإذا لم يكن للباشا منه في استبدول بليغا القنصل الى تهديده بإبلاغ
شكواه الى السلطان بحجة انه يخرق معاهدة الامتيازات الأجنبية .
فيتفاوض معه الباشا . وكثيرا ما كانت قيمة الغرامة تخطي . فإذا كان
للباشا من يحبه في استبدول فقد يجتد الباشا من احتجاج القنصل
ذريعة لفرض غرامة أخرى أقل قيمة .

وكثيرا ما تأثرت أعمال التجار الأوروبيين بالمشازعات التي كانت
تندب فيما بينهم . فمثلا تنازع اثنان من القناصل في عام ١٦٥٠ على

قنصلية القاهرة تأخذ كل واحد منهما يستميل البابا إليه بتقديم الهدايا حتى يطرد منافسه . وفي مرة أخرى عبد أحد القناصل وقد أقتلته الديون ، إلى الفرار من القاهرة تاركاً إلى جاليته أمر دفع ديونه إلى دائنيه وكانت تلك لثلاث مئتين ألف قرش . وبعد مئتين عاماً ورت أحد أولاد عمه المتصّب ، وأعاد الكرة ، فاضطرت البجالية مرة أخرى إلى مساعدة ديونه .

وبالانحصار فقد ملكت القاهرة تحت يد النمانيين ثلثي مساحتها الحقيقية ومثل هذا من سكانها . وصارت أشبه بماصمة مقاطعة بسيطة عنها عاصمة دولة بعد أن تحولت عن طريق التجارة العالمي صارت مدينة حديثة يسودها الخراب وتمزقها الفتن التي يشعل مآرها المشرقة الجانب .

الحملة الفرنسية

• غزا الفرنسيون في مصر في عام ١٧٩٨ تحت قيادة نابليون •
ومكنوا فيها ثلاثة أعوام أدت إلى تغيير البنية السياسية للبلاد • ولكنها
لم تحدث سوى تغيرات طفيفة على العاصمة •

هزم نابليون قوات المماليك بقيادة مراد بك في معركة الأهرام في
٢١ يوليو وقتل من المماليك سبعة آلاف مقاتل • وفي اليوم التالي دخل
الجنرال القاهرة • وسد البداية أوضح مبادئ سياسته نحو المصريين التي
تمثلت في القضاء على طغيان المماليك واحترام الدين الإسلامي والامة
النظام والمساواة •



وقد اتخذ بوناپرت خطوات مبدئية لتحسين الأحوال الصحى في
القاهرة • كان من اللازم العناية بالجرحى من جنوده والعمل على تفادى
اصابة جيشه بوباء ينتج عن اقامته في مثل تلك البنية البدائية • فأمر
الجنرال بإعداد المستشفيات العسكرية في القاهرة والجيزة وبولاق ومصر

القدية وفي بيوت المالكين الذين فروا ومنهم منزل رمي لمراد بك الذي
فر الى الصعيد ومزرعه ابراهيم بك في القصر الميني .

وللوقاية من الأوبئة فرض على السكان كنس ورش منازلهم مرتين
كل يوم . ونقلت الأربال من الطرقات الى خارج المدينة .

ولم يكن المرض هو كل ما كان يهدد الجند بل كان الخوف أيضا من
الوقوع في الكنته مما قد يهيج الأهالي على التمرد . لذا أمر أهل القاهرة
بان يعلق كل منهم فانوسا على باب بيته ونظمت دوريات تطوف بأشياء
المدينة وكان عليهم ان يمسروا باب كل من يهمل في إضاءة فانوسه غير
غرامة يدفعها . وفيما بعد أقيمت حصانج كبيرة ذات أبراج أوجه في
السورح الرئيسية على نفقة الأمراء بعد كل منها عن الثاني ثلاثين
خطوة .

وانتزع الفرنسيون أبواب المزارع التي كانت تغلق ليلا حتى اذا
ما نشبت ثورة لا ينجأ الثوار الى اغلالها والمحصن خلفها .

بيد ان هذا الاجراء الذي دعت اليه اجراءات الأمن اقلق أهل
القاهرة . فاشيع أن نية الفرنسيين أن يذهبوا المسلمين وقت صلاة الجمعة .
وزاد الطين بلة ، الأمر الذي أصغره نابليون بتجريد المصريين من
أسلحتهم .

وحتى يدير نابليون حاجته من المال أمر اللجنة الادارية بتأجير
حقوقها على يد الخزانة . وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسادة
الى حد ماين (١) فكسب من وراء ذلك ثلاثين في المائة من قيمتها ثم أمر
بإستخراج سبائك الذهب التي جلبها من فرنسا واستبدالها نقدا في
الإسكندرية .

لكن تلك الاجراءات كانت مصدر خزي للمصريين وبالتالي كسبا في
صالح الماديات الطغاة القدماء . لقد ظهرت الضحية التي سلبت
حقوقها على يد الخزانة . وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسادة
القدماء عندما اجبرت اصحاب المالية نابليون الى فرض تبرعات ضخمة
يدفعها الأمراء . فكان على تجار خان الخليل ان يدفعوا عشرة آلاف تلالري
في ظرف عشر أيام . ومثل هذا القدر على باعة السكر . أما اصحاب
التقاضي فاجبروا على دفع ألفي تلالري . ولم تفلح الأشكال القانونية التي
استخدمها الفرنسيون في أن تخفف من الماراة التي أحس بها القاهريون .
لما الفارق في ان تكون المساواة تبرعا يدفع قسرا للخزانة أو لا يسلبه

(١) انواع من الصلة (راجع ملحق للتصريحات في آخر الكتاب) .

الماليك - وإن كن أسلوب الفرنسيين أكثر تهذيبا إلا أن ذلك لم يكن
ثيقلا من خزن من عقد ماله -

وأهم التغيرات التي طرأت على القاهرة الحيلة الرسمية كان تدبير
عدد كبير من المنازل في أثناء تورتى لعل القاهرة في حي الأزهر وبولاق
والضفة الشرقية ليركة الأزيكية والمناطق الملاصقة ليركة الرطل - وقد
هدمت الكثير من المباني لتيسير حركة المرور أو تهوية المدينة ، وتحرب
بعض منها عند استخدامها كملجأ للجند ومستودعات - أما أهم
ما كسبته القاهرة من الحيلة فكان الطريق الكبير الذي ربط بين بولاق
وبيتها وتطيف جزء كبير من يركة الأزيكية وغرس عدد من الأشجار ونقل
الحيوانات من المدينة الى خارجها -

أطلق المهندس الميكانيكي كورنثي Costi الذي حضر مصمما في القاهرة
فسد حاجة الحيلة والأعمال ، وأقام لها حلقات في بولاق والجيزة وجيزة
الروضة ، لقد شيد مسيكة ومصنع للكارتون والورق وورش ميكانيكية
وأخرى للتجارة وغيرها - وأقام على الطرف المسالي لجيزة الروضة وعلى
المرتعات التي تحده القاهرة طواحين هوائية ، وما زالت باقية حتى يومنا
هذا وتعرف بطواحين بولاقيرت -



وما أن رحل الفرنسيون حتى سيطرت البلاد نهبا للفوضى حاول الأتراك
أن يحدوا من قبضتهم على البلاد وعينوا خسروا باشا واليا لمصر - وأراد
الماليك استعادة سلطتهم وثوراتهم وإدارة البلاد كما كان الأمر في
الماضي - فبادت الاضطرابات وأعمال النهب وقاسى المصريون من انعدام
الأمن -

وعنا يظهر محمد علي وكان قائدا لفرقة الألبانيين ورجح في أن يفرض
على جنده النظام - في ١٨٠٥ انتزع من السلطان الاعتراف بولايته على
مصر وفي عام ١٨١١ قضى على الماليك في مذبحة لهم دبرها لهم القلعة -
وبما زالت آخر المعقات التي كانت تحول بينه وبين السلطة المطلقة على
البلاد ، ودخلت القاهرة إلى عهد جديد -

وقبل أن نتحدث عن التغيرات المختلفة التي تعرضت لها القاهرة
في القرن التاسع عشر والقرن العشرين نطالع فقرات ممتعة من مذكرات
وحالة انجليزى زار القاهرة وقت الاحتلال الفرنسي هو وليم

William Witterton

فقد لاحظ أن الطابق السفلي من المنازل يكون من الحجر الجيري المنتزع من الجبال المجاورة ، أما الطابق العلوي فيبنى من الخشب ، وإن قبة المنزل ترتفع إذا كانت به فؤارة . وإن أرضيات الحجر كانت تسمى لماثبا بالبلاط مما يمنع الماء من الانتماش . وإن أثاث البيوت كان يشبه الأثاث التركي ويتكلف عادة من طنطاف ومجناجيد . وقد وصف « ويغن » النباتات التي رآها في حدائق القاهرة وضواحيها وقال « إن لأشجار التوت والسنا الضخمة Chetere ظلال كبيرة » .

وراء سوق المبيد السود ، وهو فناء يحيط به من كل جانب طابقين من الحجرات ولم ير هناك سوى ثلاث زنجيات أحسن كانت تحصل بثمن زراعيها طلال أبيض . وطبقاً لروايته للقد كانت تلك التجارة راكمت لسنوات نظراً للصعوبات التي كانت تواجه قوافل المبيد ولكنها كانت في طريقها للانتماش مرة أخرى . وكان يتوقع وصول قافلة للمبيد في خلال ذلك الأسبوع . وذهب « ويغن » أيضاً إلى سوق الرقيق البيضان . وكانت أبليته أفضل وأكثر نظافة ولكنها حاوية تماماً .

ووصف سور القاهرة وقال أنه طوله كان ثلاث فراسخ (تسعة كيلو مترات) . وأضاف أن الفرنسيين قد حولوا مجرى الميوز (القناطر التي تجلب الماء للقلمة) إلى حائط للدفاع يمتد من الدليل حتى المدينة . وحل قسم التلال التي كانت تحف بالقاهرة شيخوا طوابي . وأخيراً فقد حولوا منزل إبراهيم بك إلى قلعة على ضفة النيل الشرقية ، وأحاطوا قرية أبلية مسود .

وقد قدر إبعاد القاهرة عن البحر المتوسط : أربع كيلو مترات ونصف طولاً وثلاثة عرضاً .

وعند دخوله من باب النصر شاهد شارعاً طويلاً تمتد على جانبيه الحوائط . وكان به وبالشوارع « التي يظنها الوجهاء » ثريات معققة تضاهي عند الاحتفال بعيد من الأعياد .

وكان لكل مقهى زاوية للأشجار أو أكثر ، ومنهم من كان يمارس فيه في الطرقات . وليس الواحد منهم قبة من خوص . وقد يوقف أحد المارة وينقده أحياناً تمسكه مقابل قليل من النقود .

وطبقاً « لويغن » كانت القاهرة تنقل إلى الماء الطراز باستثناء أبار القلمة ولقد كان انطباعاً سيئاً عن السكان . فقد لاحظ أن المسحوب يعلو بشرة النساء بينما يتجهل لعم الأطفال حديثي الولادة مما يشير بسمرة مفرطة . وحتى أطفال الأسر الراقية والأجانب كانت عليهم مصعة مرصية .

كان الباعة الجائلون الذين يبيعون الخبز والحضروات وغيرها من الأطعمة يعملون عن بضاعتهم بطريقة مميزة ، مثل بائع الحلوة (عجيبه من السكر والنقل) الذي يقول : « بسمبار عه حلوة » • وكان لهؤلاء الباعة شهرة في الانبيار بالبضائع المسروقة • فكانوا يقاضون بضاعتهم ببعض المسروقات النافذة التي يأتونها الأطفال أو الخدم • وينادي بائع الأزعار على بضاعته قائلا :

« الورد كان سود ، عرق القبي خلاه فتح » • إشارة إلى احسن معجزات الرسول (صلعم) • أما الأكبشة القطيعة التي نسجت بالآلة يديرها ثور فكان يائها يقول « شغل الثور يا بنت » • وعن التمر حنة يقول البائع « يا وايح الجنة يا تمرحنا » •

وكان المرء يصادف في الأسواق أحيانا سواة ينتمي معظمهم إلى طائفة الرفاعية • وهم يدعون فقرتهم على التخلص من الغمابين التي تعيش في المنازل • ولما كانت تلكه الغمابين تتخذ جوارحها في الأماكن غير المظروقة من البيت مثل غرفة « الكراخ » حيث يدخل إليها الرفاعي وحده ، فربما كان يحضر معه في بعض الحالات ثعبانا ، ويتظاهر انه قام بإخراجه • ولكن الكثير من القضاة أكدوا ان هؤلاء الرفاعية كثيرا ما قاموا بصلهم وسط ظروف واحتياطات تمنع أي شبهة نفس • وعند القيام بعمله يتخذ وجهه تعبيرا غريبا ويترك الحائط بصماء ويصغر ثم يطرق بلسانه ويصق على الأرض ثم يتلو بعضا من التعاويذ التي يدعوها سحرية •

القاهرة الحديثة

تدخل القاهرة عصرًا جديدًا يعزى لمحمد علي الحكم . ذلك البركان المتفجر الذي أخذ يهزم ويهزم ويهزم ويهزم حتى كس القاهرة نوبًا جديدًا غزله يده .

في البدء أقام نوعًا من التنظيم البلدي مثلًا في « كحيا » وهو يسائل وزير الداخلية في مصر العالي ، ثم موظفان برتبة « باشا أغا » يرأسان قوة الشرطة الموكلة اليها حفظ النظام وأخيرًا « المحتسب » وهو يطلقه يومياً الأسواق ليستج العجار من في محاولة للنش وكان لكل حارة « شيخ » و « نسي » ويقومان بواجبات قاضي الصلح في أوروبا وعليهما الرام كل مواطن ان يعمل معه بطاقة تحمل اسمه مثل بطاقات الهوية في يومنا هذا .

وزاد الاعتماد بالأحوال الصحية للمدينة . فتصنعت أسواقها الى حد كبير بفضل الاجراءات الصارمة التي اتخذتها السلطة في هذا السبيل . صارت الشوارع أنظف ، وقلدت أسطوار الأوبئة . وتقلت الأوبئة الى خارج المدينة ، وأعيد تنظيم « المارستان » وشيقت الكثير من المستشفيات

الجديدة . وحاول محمد علي ان يركز الانشطة الصناعية في منطقة
السنية في شمال شرق بولاق - وبضربة حجر واحد لمصاب هنجي ،
فقد استغل اكوام الانقاض والاربال التي كانت تحب بالقاهرة الى الشمال
والشرق - وكانت موطئا للعدوى - في تسوية المنحدرات ودم برك
القاهرة . فعلى سبيل المثال استغل النل الذي كان قد اقيم عليه حصي
المعهد الفرنسي في ملء بركة قاسم بك . وجفت تماما بركة الازبكية
التي كانت حتى هذا العهد ما ترال تمتلئ جزئيا بماء الفيضان . وكذلك
الأمر بالنسبة لبركة الرطل حيث تحولت الى حديقة . ولم يتخلص من
كل تلك البرك نقر هنا وهناك تسقي منها الفاشية .

وتفردت طبوغرافية منطقة بركة الازبكية تماما . فاحتلت الكتلة
التي كانت تغذيها بالماء . واستغلت الاكوام المحيطة بها في سدحها .
ثم اقيم عليها قصر الحلبية ودهب الجواميز .

وطرأت تحسينات على حركة المرور في المدينة ، فقد حلت المباني
التي كانت تقوق سبيل العربات وادبلت المصاطب التي كانت تقوم أمام
المنارل . وكانت القاهرة قد اعتمدت لفترة طويلة على البغال والحمار
والخيل كوسيلة للنقل ، وكان ركوب الحصان مقصورا على الجند ، ومن
بين الأجانب جميعا صرح للقناصل فقط باستخدامه . وكان نابليون أول
من سيار في القاهرة بصرية يجرها سم حيون . وصرح محمد علي
باستخدام العربات التي أحث ظهورها جوا من الالالة في القاهرة .
وقد منح بعضا منها هدية لوزرائه فصار في القاهرة منها حوالى ثلاثين .

وعندما تقرر مد شارع المرمكى بشوارع السكة الجديدة ، حدثت
سعة الشوارع الجديد بحيث تسمح بسير جملي محملين بالبضائع
يسيران جنباً الى جنب ، ولذا فمنتهقد انه كان من النادر ان ترى عربته
باربع عجلات تسير في هذا الطريق . واستمرت الحمار لمدة طويلة وسيلة
للمواصلات الأكثر انتشارا . وقد ظهر ناصري خسرو هدهما في القرن
الحادى عشر بتسميى ألفا في القاهرة . أما في القرون التسامع عشر
(١٨٤٦) فقد قدر Combes . كومب ، عددها لى حى بولاق وحده
بالى عشر ألف حمار . وقد حظيت تلك العاية بعطف واصحاب راكبيها .
حيثقول منها جوينو Gobion ان ملامحها ذكية وحبيبة ، فلقد لاحظ
انها تميل الى السير بسرعة وسيرها اقرب الى العدو منه الى التهاثر ،
فكانها ترفع عن الخطو . وأحيانا ينبج الحمار في ان يتخلص من راكمه
ويتابع سيره سعيها بمخارته وفي عينه نظرة ساخرة واذا به لد تغليا ،
ومن خلفه يأتى الحمار ضاحكا من أعماق قلبه .

شق طريق واضح مستقيم يخترق الخليط المتناسك من المنازل ،
ليربط بين القلعة والأزبكية . وكان هناك طريق آخر تحفه أشجار السنت
والخروب يربط بين بولاق والمدينة . وربطت قنطرة معدنية الجزيرة
بجزيرة الروضة ومنها يصير القديمة . وعنى بتطهير الخليج وبصيانة
شاطئ النيل عند بولاق ومصر القديمة .

واتخذت المدينة ثوبا جديدا ؛ فقد أطلت البيوت الحديثة تحمل محل
القديمة . وفي القلعة هدم الكثير من منشآت الماليك وسويت الأنقاض ،
وعلى شيد قصرا ومسجداً وتكنات للجيش ومعمل للبارود وترصافة
ودار لسك العملة . وبدا عاوت القلعة للحياة واستقرت شيئا من سابق
مجدها في المصور الوسطى . وظهرت قرية فوق المنحدر الشمالي للشرق
الصحري . ولكن يبدو أن الوساسوس تُخِنت تقاب معبد على في القلعة
التي كان قد دير فيها مديسة للماليك ، ولذا لم يتم بالراحة هناك ولم يجد
معدة في الحياة وسط تلك السكنة الضخمة الخاصة بالجنه التي تصب
بها الصحراء التي تغلظ تحت الشمس . فاقام قصرا عند الأزبكية على
نفس موقع القيادة الفرسية السابق . وهي بقعة بديمة . وفي الجوه
الجنوبي للسندان (الأزبكية) اقام قصورا جديدة اما في الجانب الغربي
فاقيم أول فندق كبير على الطراز الأوروبي ، أو تيل دوريا Hotel d'Orient
وعندما رأى مرة أخرى حرى كما Henri Commae تلك المنطقة في
عام ١٨٦٢ شجوها بالتسانلزية والاكاسم.

لكن معبد على كان يفضل الحياة وسط الحقول الخضراء ، لذا رمم
قصر مراد بك في الجزيرة وقصرا آخرى في جزيرة الروضة الفخمة قوسا بعد
ابراهيم بك ابنه الأكبر سكنا .

لكن أهم مشأته كان قصر شبرا ، الذي اقيم في سهل حسب
محمود بين النيل وترعة المهودية . وربط بينه وبين باب العديد طريق
مستقيم مرصوف تحفه الأشجار ، وتسير عليه المركبات الفاحرة ورجال
البريد متعطين جمالهم . واقام على بقعة قريبة من النهر بين بولاق والقصر
المينى مجموعة من القصور لأفراد عائلته ، كانت محاطة بحديق ودرت
فيها أشجار التخليل والتوت وغيرها من أشجار الفاكهة التي تشجيك هنا
وهناك . واقتصد بالباشا أخذ الاستقرطليون في بناء القصور هناك .

ولم تتغير باقي الأحياء تقريبا ملموسا في تلك الفترة عدا سى بولاق
الذى أعيد بناء ما تخرب منه أثناء الاحتلال الفرنسي حيث كان نقطة
وصول البضائع المتجهة إلى العاصمة ، بينما أخذ سى كصر القديمة

يتداعى لأنه لم يكن يستخدم الا كمناطق تخزين للبضائع القادمة من الصعيد .

احتفظت القاهرة حتى عام ١٨٥٠ بطوبىها السابقة تقريبا . ولكن استحدثت من حياتها القوصى والمجاعات ، وأحدثت الحركة الاقتصادية تنفس : أراد محمد علي بمساعدة الخبراء الأوروبيين أن يستأنف ما كان كونه *Conté* قد بدأه ، وفى عام ١٨١٢ استقدم خصصاثة عامل من استنبول ، تبعهم مائتى عامل أرماني في عام ١٨١٦ . وأقام ورش لصناعة المطارق والسمنديان والمناشير ، ثم أقيم مصنع للورق ومصورة للزيت وورشة للخمر . بيد أن محمد علي كان يفتقر المنهج والنظام ، فضلا عن أنه هجر عن أن يشارك الأترياء من المصريين في مروعاته ومثل هذا الإسهام كان من الممكن أن يكون ناجحا . لقد أثار المصريون بنشاطه المجهوم ، ولكنه لم ينجح في أن يقيم قاعدة صلبة لبناء حياة اقتصادية سليمة وللازمة عاصمة لهم كبقية تصليح لأن تكون مركز للإدارة والنشاط الصناعي والتجاري .

كانت النهضة القاهرة الصناعية الحقبة في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، حيث أمكن للصناعة أن تنهض وتطور عندما أقرت في عام ١٨٧٤ تشريعات قانونية محددة حديثة ، بالإضافة إلى استتباب الأمن في ربوع البلاد والاقتصادى الذى أصاب مصر بعد عام ١٨٦٠ (١) . ولزدهرت في مصر صناعات عدة فيما بين ١٩١٤-١٩١٨ مثل الأسرة المعدنية والملابس والصابون والركبات ودبج الجلود والسيراميك والنجارة . وفى عام ١٩٠٠ أقيمت مصانع مسنن طرة والمصرى . ومصنع للظوب في العباسية في عام ١٩١٠ وآخر للأسمنت في حلوان عام ١٩٣٠ . واليوم ارتفعت عشرات المصانع في القاهرة لحواسيها وأصبحت مصنع الحديد والصلب في حلوان .



وعلى نسق المسوارح الكبيرة التى شكلها البارون هاوسمان *Hausmann* في باريس بنى في القاهرة الكثير وترسم لنا العوارض التالية معالم التطور الكبير الذى بدأ يضرب أطنابه في القاهرة .

١٨٥٤ - إقامة الخط الحديدى الذى ربط الإسكندرية بالقاهرة .

(١) أدى اندلاع الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى انقطاع التلن الأمريكى من الأسواق الأوروبية وباتفاق إزدباد الطلب على القطن المصرى الذى لزددهت أسعاره تنافيا .

١٨٥٦ - بناء خط حديدي بين السويس والقاهرة *

١٨٥٩ - ١٨٦٩ - خط قناة السويس *

١٨٦٥ - إقامة شركة المياه

١٨٧٣ - تأسيس شركة الغاز *

جعلت إقامة الخط الحديدي بين الإسكندرية والقاهرة الطريق ميسورا لزيارة العاصمة التي كانت وقتها هي الماشى على المحطتين من الأترياء أو نهر من المولعين بالغمرة المستعدين لمواجهة الأنظار ولحمل الصعاب الكبيرة ومن ذلك التاريخ صارت زيارة القاهرة في متناول الجميع كغيرها من مناطق العالم المتحضر * واجتذبت إليها المغامرين الذين كانوا يسعون خلف الثراء لا في التقلب عنه تحت العراب ، ولكن في حقه الصفقات مستملين الحصاة التي أسبغتها عليهم الامتيازات الأجنبية في ابتزاز السلطات * فكان المرء يرى بين السالحين الشرفاء من رجال الأعمال وجالا هائلت ضمايرهم *

وأدت الاضطرابات السياسية التي تعكرت عام ١٨٨٠ الى سقوط مصر في أيدي الإنجليز *

يكان خط قناة السويس حربة قاضية لتجارة الترانزيت في القاهرة * فلم يعد للقاهرة من وظيفتها السابقة كمرکز للتبادل التجاري وتجارة الترانزيت الا الشطر الأول *



بحسب تطور القاهرة منذ عام ١٨٥٠ يستعين رئيسيها الأول من تحول منطقة قلب العاصمة عن مراكزها القديمة ، والثانية ظهور أحياء لوروية خالصة على حدود المدينة كما لو كان المرء يضيف شرفات مزينة بالأزهار حول واجهة منزل قديم لتحسين مظهره *

لم تكن التغيرات التي طرأت على أحياء قلب المدينة من كثرتها الا تغيرات سطحية * فعلى جوانب الطرق الكبرى أقيمت دور أليفة تعلو خلفها المساكن القديمة يسكنها البسطاء كما هم دون أدنى تغيير * وقد بنيت عدة شوارع حديثة مثل * السكة الجديدة * التي يعد امتدادا لشوارع الموسكى ، وشوارع كلوت بك بين ميدان * باب الحديد * والأزبكية * ، وأقيم ميدان ابن طولون وحفمت المنازل الملاصقة لجانبي

السلطان حسن والرفاعي حتى يظهر للأعيان . وعلى ارض بركة النيل
السابقة اقيمت القصور والقبيلات والأبنية العامة . وريطت القلعة
بالأريكية بطريق متسع تحفه منازل ذات بوابك . بيد ان تلك
المشروعات النافعة التي تحمل صمة أوروبية لم تصب نهاية لأكوام الأتربة
والقاذورات وما يصحبها من ذباب التي ظلت تلوث الشوارع الجبابسة
المتصلة بالطريق الرئيسي عن طريق درجيات بسيطة .

أودعرت حديقة الأريكية وحديقة روسي Rometti المجاورة
أزدهارا كبيرا . وقيم في وسطها متنزه يقص بأشجار التمر حنا والفار
والميمورا . ويقطعه مشيان وجفول وتنازلت في أرجائه مقام ومسارج
صغيرة وأكشاك . ولكن الكثير منها كان أوكارا للقباز أو الرذيلة حيث
كان المرء يسمع أحيانا طلقات أعيرة نارية . وأحييت الحديقة بسور
حديدي في عام ١٨٦٥ ، وفرض رسم لسورها ، وأضيفت عماشيتها بالمغاز
فوضع هذا حدا للبيازل السابقة . وحول الحديقة أنشئت العائز الحديقة
في الظهور مثل الأوبرا والبورصة ونفق دولاسي «de la Cle»
وبنفس سيولر اتاوريتال Pérennulaire et Orientale والتيسو
هوتيسل New Hotel وعديد من المتاجر الكبرى .



إذا فحصنا باقي أحياء القاهرة للاحظنا ظهور حي هاشميين حول
أحد القصور الخديوية وبعض المباني الإدارية في مكان بركة بطي البقرة
السابقة شرق باب اللوق والكصر المينى ! وللاحظنا ان الدور أصبحت
تبتد على طول الخليج حتى منطقة السيدة زينب ، بينما لم يصب في
جزيرة الروضة سوى قرية بالسة (المنيل) بها قصران احدهما مملوك
لأبراهيم باشا (ابن محمد علي) . بينما تطلعت القلعة عن دورها كقاعدة
للمحكم .

لاحظنا مما سبق اتجاه القاهرة في التوسع العمراني منذ تأسيسها
في الشمال والشمال الشرقي . واستمر هذا الاتجاه باطراد مستمر
طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين .

أقام الخديوي عباس الاول قرية حربية صغيرة في السهل الرمل
الواسع الواقع شمال القاهرة . وكانت تضم كنائس للجند ومستشفى
ومعسكر وسكن للصياد والموظفين . ثم أخذ ذلك الحي ، الذي عرف
بالعباسية ، في الاتساع بسرعة حتى اتصل بالقاهرة . وقد شكل قصر

اللقبة أحد القصور المنيوية الجديدة نقطة جنوب مصرية أدت إلى انتشار
المران حوله .

كانت البقعة الواقعة بين شبرا والنيل في نصف الدائرة التي يشكلها
الحل المحيدي الذي ذهب إلى الإسكندرية ، أرضاً زراعية تقطعها الحدائق
والبحول . ثم ما لبثت أن امتد إليها الممران تدريجياً زاحوا من حي بولاق .
ومن ناحية ربط جسر بين بولاق وأرض الجزيرة حيث شيد قصرًا للباشا
تحتلها الحدائق . وزيّنت الجزيرة بالبحيرة بطريق جميل مهدت
على جانبيه أوصقة . وفي طرف بولاق أخذت المنازل تمتد حتى عتبات
محمد علي الأميرية بالقرب من حصن ترعة الإسماعيلية . وكان قد أقيم
هناك فيما بين عامي ١٨٤٦ و ١٨٧٨ عددًا من القصور مثل قصر النيل ،
التي سكنه محمد باشا ثم الخديوي إسماعيل ، و قصر الدواية ،
و قصر الوالد ، باشا ، والأمير أحمد ، وإلى الخلف قليلا القصر
العالي . وكانت كل تلك القصور محاطة بالمناطق الخضراء .

بين حي الإسماعيلية في عصر الخديوي إسماعيل في البقعة الواقعة
بين الأزبكية وشارع بولاق وترعة الإسماعيلية وقصر النيل وباب اللوق .
ولد منح إسماعيل الأرض بحدود مقابل لكل من أراد أن يقيم عليها بناء
لا تقل قيمته عن ألفي جنيه .

وسرعان ما بنيت فيلات بدوية تحيطها حدائق جميلة انتظمت حول طرق
واسعة تؤدي إلى ميدان كبير . وما زال هذا الحي يحفظ بتخطيطه الأول
حتى الآن رغم أن المباني العالية حلت محل الفيلات والحدائق .



وهنا نتوقف برهة قبل أن نستكمل دراستنا لتتعرف على بعض
الانطباعات التي تركتها القاهرة على الأوروبيين في القرن التاسع عشر .
فبالرغم من موجة التحديث التي أخذت تغمر في القاهرة هذا العهد ، كانت
الحيية لا تزال قائمة على أن تحلب الباب الأوربي بجوها الشرقي . فيتحدث
عنها أوتير رونييه Arthur Rony الذي زارها في عام ١٨٦٤ بعبارة تقول
حسباً - « كيف يتأني للمرء أن يصف تلك البقعة الساحرة حيث
تتشابك الطرقات والأزقة والميادين في انتظام ملهم بسحر التنويع ، فكل
منزل فيها عمل فني تتجلى فيه الأصالة أبدعت يد رقيقة - كيف يمكن أن
أرسم المصمت في الهواء ولا النور المشرق الذي يعم المتناثر للزخرفة في
تقابل مع الضوء الخافت المكنون الذي يشيع في الطرقات فيبث في
النفس حيورا سرمديا . وتمتزج الصورة واللون والحيوية بلا انفصام ،
كل ملهم بروعة ومضبب بالحياة » .

ولمصحبه الآن في جولة في القاهرة ذلك المهد • نراه يتحرك قصر
الباشا • بعد اجتماع معه ويستلم مع جمع من اصدقاء حيدرا يقول عنها
(برادتها جيدة التبطين لكانها مقعد وثير سعوى يطوف بالمرء في عالم
سعوى يطوف بالمرء في عالم كاف ليلة وليلة الساحر •)

« أولا وداعا شارع الفوسكى الطويل الذى نرى في اوله اسلحة
نوبية واليوية معروضة في الطريق • ويعرض « عبدة » تمساحا معظما
تنبعث من فكه رائحة كريهة ، ونرى من بين معروضاته خناجر وحراير
وسهام وطبول تزينها اشكال غريبة والوان باهتة •

والفوسكى اكبر شوارع القاهرة • وفيه مصانف المرء كل شيء •
يبدو مستليما ، لكنه في الحقيقة متعرج ساعد ، حابط • وتقوم على
اشره والفوضى والمتاجر • انه شارع كبير وطريق طويل غير مرصوف ،
جانبيه منازل بعضها جديد ولكن طرفها شرقى لم يتطرق اليه التحديث
البغيض •

فلما ما بعدنا قليلا نرى على ناحية احد الشوارع حائولا مفتوحا ملء
برجال نالعين على الشمس • « انه القراول » (قسم الشرطة) حيث نرى
« الباش • بوزكس » الالبانيين بوجوههم التى تذكرنا بالظيود الجارحة
وملابسهم انبى بملابس قطاع الطريق ، حيث تتدل من مناطقهم الخناجر
اللامعة • وهم ليسوا الا عصابة من الاثري لا يهاجم الا اللاحون •

ويلفتنا عبق ساحر في إحدى الطرقات الضيقة عميقة الأنوار حيث
تطرق العمائم البيضاء تستر الظلام تصيحها نحات ودرجات ناطية تتألق
في طرقات رنانة بلادي حركة من الهوى ، فتعلن عن حوايت المطارين
حيث تتجمع بضائع الهند والجزيرة العربية •

يرضى بالى الكتاب في رسم صورة للمدينة مبلوة بأحاسيس
عاشق • ولا تترك روبيه قبل أن تقتبس منه عبارة قالها له قنصل فرنسا
في القاهرة يسكن أن تلخص الطباعات الزائر للمدينة المتينة • ان
ما مستسمه وما ستره الغرب والمحب من الاطلام •



يعتبر عام ١٨٨٢ (بدء الاحتلال البريطانى لمصر) سنة ١٤٤٠ هـ
لمصر وللقاهرة على وجه الخصوص عهد هذا التاريخ وحتى عام ١٩٢٢
تضاملت قامة حديوى مصر بجانب المنسوب السياسى البريطانى الذى سيطر
على السلطتين القهرمية والتنفيذية •

وتحت واية هذا النظام حتى الاجانبه الكثير من الفوائد واخذوا الدخل العام نظرا لارتفاع تسن القطن واتساع الرقعة الزراعية مما كان له اعظم الاثر على عاصمة البلاد .

ولقد اثرت على الحياة في القاهرة الاحتلال ثلاثة عوامل ، اولها وجود جالية بريطانية كبيرة طبعت بدوقها وروحها الامياء التي سكنتها قصر المنيارة وجاردن سيتي .

وهنيوبولس . وتحت حماية الامتيازات الاجنبية تمتع الخاصة منهم بحرية كبيرة أدت الى نوع من القوضى المعمارية . فالتفتت تلك المشروعات روح التخطيط الكلي والتنظيم واهملت فيها قواعد الصحة العامة وصواب كان البنائون من الافراد لا الشركات فقد اتسموا بقصر النظر فلم يكن الواحد يربأ بجداره او المصلحة العامة . فنجم من تراكم الاخطاء سرطان خطير .

وتحولت حتى الميناء والمضاربات التي نجحت من تصفح رؤوس الاموال الاجنبية على مصر ، التي كانت تتمتع بالشفقة نظرا لاستقرارها السياسي والاقتصادي ، الى مصار . فاختار ما استثنيتا فترة الازمة السياسية في ١٩٠٧ التي أدت الى رحيل اللورد كرومر والتي لم تحس نتائجها قبل عام ١٩١٢ كانت القاهرة أحلة في الاتساع في كل اتجاه . لكن هذا النشاط يتوقف لفترة وجيزة أثناء الحرب المالية الاولى . ثم ما لبث ان استرد عذفوانه .

أخلت الشوارع الجديدة تخترق الأحياء القديمة ، لكنها لم تكن الا واجهات تخفي مظاهر الفقر خلفها . وفي عام ١٨٩٩ طورت القنوات الصغيرة التي كانت تحيط ببولاق وطبر الطنج أيضا وحل محلها بشارع كبير . ثم توسيع بعض الميادين مثل ميدان السيدة زينب . بيد ان هذا لم يكن الا استثناء فكانت شوارع العاصمة مائتال على بدايتها وتفتقر الى حد كبير الى نظام صرف صحي فعال . كانت الجهود مركزة على القسم الأوروبي من المدينة حيث عاش الأثاب مع الاستقرابية المصرية .

كان المثلث الكبير الواقع الى شمال طريق بولاق بين الأزبكية وحدائق فندق شبرد وقنطرة الدكة وشارع الملكة نازلي (رمسيس) أرضا مهتلة يتجمع فيها النجس حول برك ماء الرشح الراكد . جففت المستنقعات وقسمت ، وبيعت ، وبدأ بنائها في عام ١٨٩٠ فصاروا حيا يعرف باسم التوفيقية .

وصار حيا الاسماعيلية والتوفيقية مركزا للاعمال وللنشاط الاقتصادي للمدينة ، وشيقت هناك دار القضاء العالي (قديما المحكمة

المختلطة) بواجهة تزينتها صفة أعمدة توحى للناظر بمعبد أغريقى * وإلى جوارها شيعت البنوك والمطلات التجارية الهامة * وهذا اعتقل مركز عالم المال والتجارة من قلب القاهرة القديمة المحصور بين شارع كلوت بينه والموسكى والأزبكية إلى تلك المنطقة الواقعة إلى الغرب .



ظهر حتى جازده سبتي في نهاية القرن التاسع عشر حول قصر الدويارة (مقر الملقوب السامى البريطانى وحاليا سفارة بريطانيا) وقصر « الوالدة باشا » * وكان حيا أرسقراطيا يكاد يكون لاجتيا * وقد تألف من فيلات تصلها طرقات تظللها الأشجار * ومنذ عام ١٩٠٥ أخذ الحي في الامتداد نحو النيل * وتفرججا زحف العمران على الضفة المقابلة .

وللتحدث الآن ونرى بهذا الصدد عى أهمية طرق المواصلات في اتساع رقعة القاهرة - يدعى أن بناء أحياء جديدة مفروض بتصميم صميل المواصلات إليها - وكان هنا ما حدث عند بناء شبرا والعباسية والقبة والمطرية * كان العمران يلائق بناء أى طريق كبير * وتكبر طرق العاصمة شارع الهرم الذى بنى في سرعة قياسية في عام ١٨٩٩ لييسر على الامبراطورة لويسين زيارة المنطقة الأثرية * وقد بدأ به شريط الترام في عام ١٨٩٩ واستبدل الآن بخطوط للاتوبيس .

لكن أهم الانجازات المسارية لهذا العصر كانت بناء مصر الجديدة (هليوبولس) التي صاوت كشيبة بمدينة صغيرة متكاملة * أسمهها البارون اميان Hapsin البلحيكى على ضفة صحراوية شمال القاهرة كانت تستغل في التمرينات العسكرية * شملت مصر الجديدة طبقا لخطة مفروسة وقد رودت بطرق حديثة ومياه للشرب وصرف صحي والكهرباء ويطت بالقاهرة يغط للمترو وطرق * وتوجت جهود البارون بالنجاح فبلغ عدد سكان الضاحية حوالى ٣٥ ألف نسمة (في الستينات) * وتقسم الضاحية عددا من الكنائس والمساجد والكثير من المدارس وعدد من الفنادق الفاخرة .

وبالرغم من النجاح الذى لاقاه بناء ضاحية المصادى ومدينة القطم إلا أن القاهرة تخطى ببناء في الزحف نحو الشمال والشرق * ولا يجب أن ننسى في هذا السياق ضاحية مدينة المهندسين التي سميت على الضفة الغربية للنهر « ومدينة مصر » بين العباسية ومصر الجديدة .

سارت عملية تحديث القاهرة بتخطي واسعة في حلال القرنين
الآخرين - ففي عام ١٨٥٧ لم يكن بالحيطة إلا التقليل من الشوارع الملتفة .
وفي عام ١٨٨٠ وقع عقد مع شركة خاصة لصيانة الطرقات ولكنه صاغ
في عام ١٨٨١ ، وتولت الحكومة المصرية بنفسها المهمة .

تولت الحكومة تبليط الشوارع الآتية على التوالي مستخدمة الحجر
الجيري ، شارع الاسماعيليه وقصر النيل وعابدين والسيدة ريس وشوارع
شبرا وميدان العتبة الخضراء والموسكي وباب اللوق . وفي عام ١٨٩٧ :
١٩٠٠ أعيد تبليط بعض تلك الشوارع بحجر البارلت المقتلع من معاصر
أبو زعبل بدلاً من الحجر الجيري الهش القادم من طرة . وفي عام ١٩٠٦
أجريت أولى المحاولات لسفلتت الطرقات . وفي عام ١٩١١ وقع عقد مع
شركة سويسرية لتنفيذ تلك المهمة .

في عام ١٨٨٢ بلغ طول الطرق المصانة سبعين كيلو متر منهم
٢٤٥٩ مصانة غازية .

وكانت الاسماء تطلق في الليالي المظلمة . وفي عام ١٩٠٥ ولعت
الحكومة اتفاقاً جديداً مع « شركة غاز لوب » Gas Lobb لاستبدال
نوعيات مواشير الغاز بنظام « اور » اور . وبلغ عدد المصاييح في عام
١٩١٣/١٦٤٨ . وفي عام ١٩١٤ أدخلت مصاييح الغاز ذات الضغط
العالي التي كانت مستخدمة في لندن في هذه المهد . واليوم تضيء معظم
شوارع العاصمة للكهرباء .



افتتحت محطة القاهرة المركزية للسكك الحديدية في عام ١٨٥٦ .
وقد أعيد بنائها تماماً عندما اتصلت بخط حديد وجه قبل .

وفي عام ١٩٢٦ حصلت « شركة طيران امبريال » Imperial Airways
على تصريح باستخدام مطار مصر الجديدة الحربي لتسييل خط جوي
القاهرة - العراق . ثم مالبث أن ازداد عدد الخطوط وشيد مطار حرم
شمال ضاحية مصر الجديدة .



وفي ختام دراسته أود أن أكرس الفقرة الأخيرة للمظهر الجمالي لمدينة
القاهرة . لقد خليت الباب كل من زارها من الرحالة على مدار السنين
بمناظرها الشرقية ومشربياتها الخشبية وكثرة حوائطها المارة بأشجار
الفاكهة الممتدة بين دورها وطرقاتها المهمة بالحياة التي قلمت لأثرها

مصورا جديدة على عيونهم وكانت الأشجار تحب ببركها . أما الخليج
التي كان يخترقها فقد جلب عليها ظهرا جذابا . بينه أننا إذا استثنينا
الفترة الأولى من عصر الأسرة الفاطمية والنصر الحالي لوجدنا أن أي من
الحكومات التي تماقت عليها لم تبتذل جهدا حقا في تجديد المدينة .

لقد غرس الفرنسيون أشجارا في الأريكة أثناء حملة بونايرت لكنها
اجتمعت بعد وصولهم بضمير وقيل هذه الحادثة بسنوات ضحى مراد بك
بأشجار جريرة الروضة كبداة سفر للاستدلال .

وأما محمد علي وأبنته إبراهيم الجنائز إلى الروضة ، لكنها لم تمش
طويلا . سواء القيصان التي تفرعها جرفات معها الأشجار ولذا استبدلت
بزراعة النخيل .

وقد أدى بناء عدد من الشوارع الكبيرة في عصر محمد علي وحيد
إسماعيل إلى عدم الكثير من الآثار الإسلامية . وأدى إنشاء شارع الخليج
والسكة الجديدة والأزهر والأمير فاروق إلى احتفاء عدد من الأحياء الرائعة .
وقد أدت عدم المبالاة التي يبدونها المصريون نحو الأهرام إلى خسارة فنية
لا يمكن تعويضها ، فعل سبيل المثال اختلعت المقريبات تماما من بعد أن
بقيت للسكان أو فككت إلى أجزاء استخدمت في صناعة الآلات .

وفي عهد سعيد باشا قطعت الكثير من الأشجار خصوصا في منطقة
العباسية والقبة .

وبين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٥ استولت منطقة الجزيرة في عهد من
الشرعيات لأرضه لزوات الخديوي إسماعيل ، فقد أقيم هناك قصر تحيط
به الحدائق من كل جانب (فنيق عمر النعام) ليستقبل فيه ضيوفه من
الأمراء والملوك المصنفين لظهور حفل افتتاح قناة السويس . وهذا القصر
يحكي على نحو شظف قصر الحميرا بأحواض زهوره وكهوله وبهباته
والأكوريم .

كانت الأشجار والحدائق تغطي منطقة بولاق المذكور والجزيرة في
١٨٧٣ - ١٨٧٣ . وغرس الخديوي إسماعيل بين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٨
الكثير من الأشجار حول الطريق المائري للجزيرة وطريق البعيرة وشارع
أهرام . وزرع عباس حلمي الثاني الكثير من الأشجار على أطراف
العباسية . ولكن أي منهم لم يبال بأفلاك المنازل التاريخية ولا القصور
والمساجد المتعلقة من مولى أهرام . فاندثرت إلى الأبد الكثير من المباني
التي أبدعها المعماري الإسلامي .

وتعد الأحياء الجديدة التي شيدت في هذا العصر إلى الشمال والشرق من مناطق الإسكان الفاخر - وهي تختلف في طبيعتها عن أحياء القاهرة القديمة - نشوارها واسعة تظللها الأشجار ومبنيها دوزما بحاطة بالحرق وفي بعض منها تتجلى صورة القاهرة القديمة « سلة الزمار تبتق منها دور بديمة ومائى أنيلة » .

تم بحمد الله ونعمته

فهرس الاصطوانات

- أرض : مقياس غارسي يساوى الساعد من طرف الأصبع الأوسط حتى
المفصل ويقدر بـ ٤٠ سم *
- بيهارستان : إقليم مارستان *
- تلاري : النطق العربي لعملة المانية *
- تنور : قوما *
- جياكتار : حامل صولجان السلطان *
- جوكتار : حامل مضارب لعبة البولو للسلطان *
- حارة : حي *
- خان : فسطح *
- حطة : حي *
- درهم : وحدة مواريث عربية تساوى ٣٢ جم *
- دينار : وحدة موازن قديمة تساوى مثقال (١٤٤٤ جم) *
- أو درهم ونصف ، وتحتسب في نفس الوقت كعملة *
- ديوان : مجلس من كبار المحققين الإداريين والمسكربين *
- ويضي : صاحبة *
- دبك : آلة وتربية يوترين وتزف بالقوس *
- ربع : بيت ينقسم الى وحدات مستقلة تسكن كل واحدة أسرة *
- رطل : وحدة موازين تساوى ٤٤٤ ر كجم *
- رواق : المساحة الواقعة بين صفى أعمدة *
- ساج : نوع من الخشب *
- ساري : خادم بالتصير *
- سبيل : مبنى به حوض للشرب لسقاية المارة *
- سلامك : غرفة استقبال *

- شمسية : مظلة أو خيمة *
- عزب - جنس من مساكن تركي *
- عقبة : فندق جبلي *
- غاشية : غطاء بؤاد السلطان *
- قالودج : لطيرة من النخيل والعسل *
- فندق : مستخدم قديماً لفندق يغطيه الأجانب *
- قز - وحدة أطوال فارسية تساوي ٢٤ سمرا *
- لنظار : وحدة موازين تساوي ٤٤٩٢٨ كجم *
- كنية أو كتيبة : نائب الباشا (والى القاهرة في العصر العثماني) ..
- كمنجة : آلة موسيقية بوليز صندوقها الصوتي يغطيه من قشرة جوز الهند
- مارستان : مستشفى *
- مقال : وحدة موازين تساوي ٤٤٤ رجم *
- مجلس : حجرة عملة فيها المجالس *
- مدرسة : طراز من الجوامع أدخل الى مصر في عصر صلاح الدين الأيوبي ويتألف فيه الجامع من أبواب أو أكثر يفتحها في فناء مفتوح أو منطى *
- مدين : وحدة تركية صغيرة *
- مراق : هيئة تتولى الرقابة الصحية في المدينة *
- مروية - هيئة تتولى الاشراف على نظافة المدينة *
- مقعد - حجرة تفتح على الفناء الداخلي للمنزل *
- مقصورة : مقصورة تنصب للحاكم في المسجد قرب المنبر ليحصل فيها لصاحبه من الراحة *
- ملقب : بئر حوضي يحرق سلق المنزل وتوجه فتحة نحو الشمال لاجتناب ريح الشمال للشمس في الداخل *
- مس - وحدة موازين فارسية قديمة تساوي ١٣٦٤ كجم -
- منارة : حجرة استقبال *
- ميدان : فضاء مسطح يستخدم للتجارب أو الاستعراضات الحربية
- ولسيق الخيل أو الألعاب الرياضية *
- مزر : مغروب يماثل البوطة *

فهرس

الصفحة	
٥	مقدمة
	الفصل الأول :
٩	الفتح العربى - القسطنطين - العسكر
	الفصل الثانى :
٣٦	الطوائف
	الفصل الثالث :
٤٢	القاهرة
	الفصل الرابع :
٨٠	صلاح الدين والتلعة
	الفصل الخامس :
٩٢	الماليك
	الفصل السادس :
١٢٠	السياقة العثمانية
	الفصل السابع :
١٣٦	الحملة الفرنسية
	الفصل الثامن :
١٤٤	القاهرة الحديثة
١٥٧	فهرس المصطلحات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٢٢٨٢

ISBN ٠ - ٩٩٤ - ٠١ - ٩٧٧ -

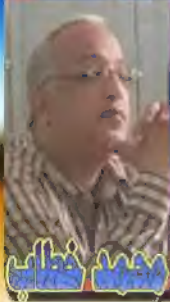
ليجرام



سور الأزبكية



ليجرام



هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون

مختار خطاب

يتناول هذا الكتاب قصة القاهرة ، تلك المدينة التي نمت
 في النفس - عبر تاريخها - صوراً وخیالات بطولية رائعة ..
 مدينة الأهرامات بصروحها المائلة التي تمير عن فكرة
 الخلود .. مدينة القلعة التي تبدو كقائد حربي عتال يشرف على
 جنوده الذين تؤلفهم منكر العاصمة .

ويتبع هذا الكتاب قصة تلك المدينة الخالدة ، التي
 لا تشابه مع غيرها من المدن الأوربية ، ولكنها تشكل مزاجاً
 من عدة مدن متباينة العصور والحضارات .. مدينة القسطنطينية
 القديمة بأكواعها المتراصة حول عدد الكنائس والأديرة ،
 والقاهرة الفاطمية بقصورها الزاهرة وحدائقها البديعة ،
 وهذه المدينة بدورها لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدهرة بأى
 رباط سوى الرقعة الجغرافية .

تليجرام : هنا صور الأزيكية أكبر مكتبة رقمية

